ومصائب قام ديوكلتيانوس (او تكلا) واغتصب التاج الامبراطوري واصبح صاحب السلطة كلها على المملكة الرومانية برمتها

وفي خلال ذلك تنيح البطريرك مكسيموس وذلك سنة ٢٨٢ ويحتمل ان الامة وجدت صعوبات ومقاومات في اختيار خلف له ولذا ظل الكرسي البطريركي بدون بطريرك بضعة اشهر الى ان انتخب ثيوناس الذي ساس شعبه بسلام وحكمة مدة من السنين . وفي مدة الهدنة هذه التي جاءت بين الحروب والاضطهادات التي كانت تتوالى على الكنيسة المصرية كالحلقة المفرغة بنيت في مدينة الاسكندريه اكبر كنيسة في بر مصر وكرست باسم العذراء مريم . ولو ان الكنائس الكبرى لم تكن قليلة في هذه البلاد الا ان هذه الكتدرائية الجديدة دلت على نهضة ممدوحة لانها كانت اول ماباناه المصريون المسيحيون من نوعها كمعبد عظيم يجتمعون فيه للعبادة الجمهورية

اما المسيحيون في مصر فلم يكن لديهم سبب يعرفونه يحملهم على الشك في نوايا ديوكلتيانوس في بدء حكمه ولم يكونوا يظنون به سوءاً من نحوهم وهذا ظاهر من جواب ارسله البطريرك ثيوناس الى لوسيان المسيحي الذي كان معيناً حينئذ في وظيفة خطيرة عند الامبراطور هي (ناظر بيت الملك) او بمعنى اوضح (مدير الدائرة الخاصة) . وكان تعيينه في هذه الوظيفة بعد ارتقاء ديوكلتيانوس العرش الملوكي بقليل فكتب اليه البطريرك يقول :-

« ان الراحة التي تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحيين الحسن واعمالهم الممدوحة التي تضيء كالشمس في رابعة النهار فينعكس ضوءها امام اعين الكفرة والملحدين فتبهر انظارهم وبذلك يتمجد ابانا الذي في السموات . اما غرضنا الذي نرمي اليه والغاية القصوى التي نسعى خلفها هي ان نكون مسيحيين فعلا لا بالاسم فقط وان نعمل اعمال المسيحيين الحقيقيين لانه اذا كنا نطلب مجد انفسنا الذاتي فنكون كمن يطلب شيئاً تافهاً زائلا لا فائدة منه . فاذاً يجب على كل مسيحي ان يهتم بمجد الله الآب ويمجد الله الابن الذي سمر لاجلنا على خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء ابدياً لا يقوم بذهب او بفضة . فلذلك ايها العزيز لوسيان لا اريد ان يعرف عنك التباهي والفخر لانك اهديت كثيرين من خدمة البلاط الملوكي الى معرفة الحق وادخلتهم في حظيرة المسيح بل بالاحرى بك ان تشكر الله الذي اختارك آلة نافعة للبنيان وجعلك واسطة خير لنفع الاخرين واعطاك نعمة في عيني مولاك لحد تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادي المسيحيين وذلك لمجد اسمه وخلاص الكثيرين »

وقد كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في خدمة الامبراطور بالالتفات لواجباتهم كمسيحيين واتيان الاعمال التي يمتاز بها المستخدم المسيحي في ديوان وثني عن غيره ثم شدد عليهم الوصية بالابتعاد عن شر كثيراً ما سقط فيه المصريون بل الشرقيون

بوجه عام حيث قال :ـ

« ان الله ينهاكم عن ان تبيعوا للآخرين شيئاً من متعلقات القصر خلسة او ان تأخذوا رشوة لكي تقولوا للامبراطور كلاماً ضد الحق ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا ان الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح وعوّل على الاقتداء به ذاك الذي كان فقيراً معدماً . لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من افواهكم بل لتكن كل اعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفي اعمالكم . تمموا واجباتكم التي أسندت اليكم بخوف من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا ان الاوامر التي تصدر لكم من مولاكم الذي لم يسيء الى احد من رجال الله كانها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلاً . وأخيراً يا أبنائي الاعزاء البسوا الصبر كرداء وتمنطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة »

وبعد هذه المقدمة العمومية اسهب البطريرك في تفصيل الطريقة التي يسير عليها المستخدمون عند تأدية واجباتهم المتنوّعة المتعدّدة . وكان اكثر موظفي البلاط الامبراطوري من المسيحيين وكانت وظيفة امين الكتبخانة خالية حينئذ وكان البطريرك ثيوناس يرجو تعيين مسيحي فيها . اما أمين الخزانة الخاصة فقد أوصى البطريرك بانتخاب

شخص يكون ماهراً في علم الحساب عارفاً بمسك الدفاتر فلا يعتمد على ذاكرته في هذا العمل وان يكون حسابه مرتباً مبوباً حتى يسهل معرفة الميزانية وفحصها في وقت قصير ويجب كتابة تاريخ صرف النقود وسبب صرفها والمكان الذي صرفت فيه في أعمدة على حدتها في الكشوف (الاستمارات) الخاصة بذلك . وقد وضع هذا البطريرك العارف تعليمات لامين الثياب والملابس واختاره من الرجال الذين اشتهروا بالدقة والامانة وكتب له يوصيه بملاحظة الترتيب الآتي وهو : ـ

« مقدار الملابس المسلمة لعهدته ونوعها وماهيتها والاماكن الموضوعة فيها وتاريخ وصولها للمخزن واسم المتعهد الذي وردها وهل هي حسب الشروط ام لا وضرورة افتقادها مراراً ومعرفة موضع كل سلعة من الدولاب المخزونة فيه . وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول اناة لكي يتمجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليلة الاهمية »

وقد شرح ثيوناس بالتفصيل الوافي واجبات أمين الكتبخانة واظهر في شرحه هذا كل حكمة ومهارة مما يدل على غزارة مادته وطول باعه اذ قال ـ « يجب على أمين الكتبخانة ان يكون عارفاً بما عنده من الكتب والمجلدات وان يفتقدها ويفحصها كل آونة وأخرى وان يرتبها حسب اهميتها ويدرجها في كشف على نسق واضح وان يستخدم امهر النساخ وابرعهم لنسخ ما يحتاج اليه من الكتب الغير

موجودة عنده . كذلك يلزمه ان لا يرتأي ويظن انه ليس في حاجة الى الدرس والمطالعة او الالمام بمحتويات الكتب خصوصاً التي يميل اليها الامبراطور ويبحث عنها ويطلبها . ويتحتم عليه ايضاً معرفة اسماء الخطباء والشعراء والمؤرخين الذين نبغوا في الاعصر الخالية والوقوف على مؤلفاتهم ومصنفاتهم وأقوالهم المأثورة . وحيث ان هذا الامين كثيراً ما تضطره شؤون وظيفته للمحادثة مع الامبراطور وارشاده الى الكتب المهمة التي عنده فينبغي له ان يذكر امامه في اثناء حديثه اهمية الترجمة السبعينية للكتاب المقدس ونفعها وما فيها من الفائدة العظمى وان يفهمه ان هذا الكتاب كانت له منزلة كبرى عند بطليموس فيلادلفوس الشهير الذي كان يقدره حق قدره (١)

وقد وضع هذا البطريرك الماهر ارشادات أخرى عن الكتب التي يشير بقراءتها على مسامع الامبراطور بصوت جهوري كما انه أشار ايضاً على القارىء باقتباس شواهد من كتب أخرى تناسب مقام الموضوع المراد تفهيمه للامبراطور . وقد ذكر أيضاً انه يلزم الامين

(١) معلوم ان بطليموس فيلادلفوس هذا هو لذي اعتنى بترجمة التوراة الترجمة المسماة بالسبعينية . ويظهر من قول ثيوناس انه لم يكن يخطر بباله ان امبراطور رومانی كديوكلتيانوس يكون على درجة من الجهل المطلق لحد انه لا يعرف شيئاً عن بطليموس واعماله المعروفة . ولكن جهل ذلك الامبراطور الثاني كان حقيقة راهنة حتى ان مريديه ومحبيه شهدوا بخلوه من كل معرفة وتجرده من العلم والعرفان

ان يعتني بالكتب القديمة المنسوخة وان يجلدها تجليداً حسناً وان يعمل كل ما من شأنه حفظها من أيدي العبث . كذا يجب على الذين يقرأ كتاباً للامبراطور ان يمزج كلامه ببعض شواهد عن اعمال المسيح ويدخل في موضوعه امراً يجر الى الحديث عن الديانة المسيحية وكثيراً ما شدد هذا البطريرك الوصية على المسيحيين المستخدمين في الدوائر الامبراطورية بمراعاة شروط النظافة وحسن الهندام وان تكون دلائل الفرح والابتهاج ظاهرة على سيمائهم وعلائم الهيبة والوقار واضحة في ملامحهم وعلى وجوههم

ولنعد الآن للبحث عن اصل هذا الامبراطور وفصله الذي توسم فيه المسيحيون المصريون كل خير وبركة فنقول :-

ان الذي ينظر الي اسم هذا الامبراطور يظنه يونانياً او رومانياً ولكن اسمه في الحقيقة لقب اخذ من مدينة في دلماطية هي مسقط رأس أمه وذلك لانه ولد عبداً من والدين كانا تحت رق العبودية الا انه اظهر من نعومة اظفاره طمعاً اشعبياً وحذقا طبيعياً في طلب التقدم والرفعة كما انه كان يشك كثيرا في الوسائط التي استعملها لنيل غرضه الذي يسعي اليه ولقد تقدم ديوكلتيانوس تقدما سريعاً في الرتب العسكرية الى ان عين قائداً للحرس في الوقت الذي مات فيه الامبراطور نومريانوس في مدينة خلكدونية عند عودته من حرب الفرس كما مر بك . فلما مات نومريانوس هذا دبر حيلة محبوكة الأطراف بها جعل قواد الجيش الذين كانوا في

الحرب مع الحكام الرومانيين ان يصادقوا على انتخابه امبراطوراً فتم له ذلك . ولما استتب له الامر افتتح حكمه بقتل رجل كان يخشى من مطالبته اياه بسرير المملكة ويخاف ان يصيبه شر منه ولذلك اتهمه بانه القاتل لنومريانوس سلفه فجيء بهذا الرجل المسكين امامه وهو مقيد بالاغلال والسلاسل وحوله جمع يصخبون ويصيحون فامسكه وذبحه بيده ذبحاً دون ان يعمل معه تحقيقاً او ان يحيله على محاكمة بل هدر دم الرجل هدراً وبعد مضي سنتين على هذه الحادثة رأى ديوكلتيانوس انه يصعب عليه تنظيم هذه المملكة بمفرده بينما هي مملكة واسعة الاطراف اعتاد شعبها عدم الخضوع بسهولة للذين يغتصبون استقلالهم ويفقدونهم حريتهم فلذلك اشرك معه في ادارة المملكة مكسيميان وهو رجل أمي كان مثله كمثل ديوكلتيانوس في انه ترقى سريعاً في الرتب العسكرية الى ان صار قائد فرقة وذلك لحذقه الطبيعي ومهارته . فلما عينه ديوكلتيانوس وكيلا له اعطاه لقب امبراطور المغرب وبعد هذا التعيين بست سنين شعر الامبراطور الروماني بضرورة تعيين وكيلين له ولشريكه فعين قسطنطينوس وكيلا لمكسيميان وهو رجل من عائلة طيبة وعين غاليروس وكيلا لنفسه وهو رجل راعي قطعان وسمى هذين الوكيلين قيصرين واضطرهما ان يطلق كل منهما امرأته ويقترن بابنة مولاه لينال بذلك الترقي والرفعة

اما هؤلاء الامبراطرة والقياصرة فكان لديهم شغل خطير في انهم يعملون للدفاع عن سلامة المملكة التي كانت تنحل تدريجياً وتستقل ولاية

منها بعد الاخرى وذلك لان الشعب رفض مبايعة عبد ذميم كديوكلتيانوس والاعتراف بانه امبراطور عليهم وكانت كل ولاية من هذه الولايات النازعة للاستقلال تختار عميداً لها من بينها ليقيم الحروب ويشن الغارات طمعاً في اعادة الاستقلال القديم وكانت اول ولاية نزعت الى الحرية بريطانيا وعقدت لواءها الي امير منها اسمه كاراشيوس وتبعتها فرنسا تحت قيادة اليانوس واماندوس ثم قرطجنة تحت يوليانوس واخيراً قامت مصر تحت زعامة اخيلوس واعتقلت البيض الصفاح لتسترد استقلالا لها كان قدمات وراح . والذي يتدبر طول مدة الجهاد في مصر لاجل الحرية وما له من الاهمية العظمي لانه جهاد في سبيل الخلاص من رق العبودية يعجب جداً اذ لا يجد ما يشفي العلة عن اخيلوس هذا ولا يعرف شيئاً عنه بينما يراه رجلا عنيداً وبطلا صنديداً ظل تسع سنوات متوالية يقاوم القوة الرومانية ويحتقر سطوتها وعظمتها الى ان مات بعد مدة طويلة في الحرب وبموته خابت آمال مواطنيه ولم يعد لهم امل في الاستقلال . وكل ما نعرفه عن اخيلوس هذا على سبيل التخمين انه مصري النزعة مسيحي المذهب ولو انه يوناني الاسم . وقد مضت ستين سنة بعد هذه الحادثة والمصريون يتضجرون ويتململون من حكم هؤلاء البرابرة المغتصبين الذين انتحلوا لانفسهم لقب امبراطورة رومانيين وادعوا ان المملكة المصرية انما هي ارث لهم لا يصح ان ينازعهم فيها منازع . ولم تسكت مصر طول هذه الستين سنة بل انها قامت ست مرات في اثناء هذه

المدة وهي تعتقل السلاح وتسير خلف كل من يقول بانه قاصد استقلالها وساع في تحريرها ولكنها لم تستفد شيئاً ولم يخشها العدو لانه كان مؤكداً انها تنهزم امامه لما اعده لها من جيش متمرن ولانه استأجر لها عساكر متدربة في فنون القتال لا يقف امامها هذا الشعب المصري الضعيف الذي اعتزل السلاح من قرون مضت ولم تبق له معرفة بالحروب كما ان المصريين لم يكونوا ينتظرون نجدة من الخارج ولكنهم ارتبطوا كلهم معاً ـ اليوناني والمصري والمسيحي والوثني على السواء ـ لكي يجاهدوا جهاد اليائس القانط في نوال الحرية

وقد قضت سنة هذا الكون الطبيعية ان يكون السبق للسريع والنصر للقوي . وتفسير ذلك ان اخيلوس المار ذكره بك كان قد أخذ طيبة وأقيم ملكاً فيها لمدة أربعة اعوام ذاق فيها المصريون طعم الحرية الممزوج بعلقم تهديد الرومانيين لهم بينما كان غاليروس غير نافذ الكلمة لا تتعدى سلطته حدود خيمته ولا يسمع صوته سوى عساكره ولذلك سعى جهده في الحصول على مركز ثابت وايجاد شهرة له من العدم فسار بجنوده ضد المصريين واخيلوس عساه يذلهم فيعود بالشهرة والنصر ولكنه لم يفلح في تدبيره هذا وحينئذ اضطر ديوكليتيانوس ان يحضر بنفسه ومعه جيش مزبد ومن ثم بدأ الحرب بينه وبين المصريين او بمعنى اخر بين العلم والنصرانية والضعف من الجهة الواحدة وبين الجهل والكفر والقوة من الجهة الاخرى

وبعد ان حاصر الامبراطور مدينتي قبطس وبوزيريس حصاراً طويلا تغلب عليهما اخيراً واهلكهما عن بكرة أبيهما ومن ثم سار في طيبة الى ان وصل آخر حدود مصر فعقد معاهدة مع أهالي النوبة والحبشة وتنازل لهم فيها عن الاقليم الواقع بين اصوان ووادي حلفا على شرط ان يردّوا غارات الاعداء الذين يثيرون على حدود المملكة . وكانت تتجدد هذه المعاهدة سنوياً ويقام لها احتفال ديني تنحر فيه الذبائح حسب طقوس الديانة المصرية القديمة وتعمل لها الولائم الفاخرة في جزيرة فيلا التي عسكرت فيها الحامية الرومانية . ولم تزل بقايا السور الذي شاده ديوكليتيانوس في وسط الوادي قائمة الى يومنا هذا . وقد ذكر بعض المؤرخين ان ديوكليتيانوس لم يثق تمام الثقة بمدافعة اهالي النوبة عن الحدود المصرية فاتفق معهم فيما بعد بان يدفع لهم جزية سنوية ومثلها للبلميين الذين كان يخشى شر غاراتهم وهم الذين ساعدوا التدمريين قبلاً على افتتاح مصر من جهة الجنوب

ولما اكمل ديوكليتيانوس هذا كله غادر مصر وتبعه جيشه ولذلك تقاص ظل السلطة الرومانية فيها وأوشك بدر قوتها على الافول وعليه التفّ المصريون باجمعهم مرة ثانية حول اخيلوس ـ الذي كان فرّ من وجه ديوكليتيانوس قبلاً ـ فقابلته مدينة الاسكندرية بترحاب واجلال بعد ان فاز بالنصر ونال غرضه . وقد يصعب على الباحث تحديد مدة استقلال مصر تحت حكم اخيلوس ولكن البعض زعموا ان

مصر ظلت مستقلة من ست سنوات الى تسع وبنوا ظنهم هذا على ان ديوكليتيانوس لم يعد لمحاربة مصر وارجاعها لسلطته الا بعد ان قضى وقتاً طويلاً في رومية كانت مصر في اثنائه تستنشق نسيم الحرية المنعش

فلما قدم ديوكليتيانوس لاخضاع مصر زاد شقاؤها وعظم بؤسها ومصابها . فانه بينما كان اخليوس في الاسكندرية يجني ثمار انتصاره داهمها ديوكلشيانوس قاصداً افتتاحها فبدأ اولاً بتشديد الحصار عليها بان حوّل مجاري المياه التي تشرب المدينة منها ولم يبق شك في انتصاره عليها ما دام قد قطع كل صلة بينها وبين باقي مصر وما دام هو قادراً على ايجاد كل ما يحتاج اليه من مؤونه وذخيرة بواسطة البحر المتوسط وبينما كان ديوكلتيانوس يحاول أخذ الاسكندرية ويقاتل المصريين ليسلبهم استقلالهم كانت الامم الاخرى الخاضعة للسلطة الرومانية تجاهد مع الامبراطرة الرومانيين شركاء ديوكلتيانوس دفاعاً عن حياتها واحتفاظاً على وحدتها واستقلالها وقد رشى هذا الامبراطور النوبيين والبلميين ليكونوا على الحياد فلا يمدون يد المساعدة لمصر وكان حرب ديوكلتيانوس السابق لهذا قد أورد مصر موارد الخراب والدمار وحرمها من ملكها الذي سجنه في الاسكندرية فلذلك لم تقو هذه المرة على مقاومة طويلة فان الاسكندرية بعد ان مضى عليها ثمانية شهور في حرب عوان يدفعها اليها اليأس سلمت للامبراطور وأخذ اخيلوس أسيراً ثم

حكم عليه بالموت . قيل ان ديوكلتيانوس اغتاظ جداً من مقاومة الاسكندرية له وحنق من استبسالها في حربها معه فأقسم ايماناً مغلظة ان لا يكف عن ذبح اهليها حتى تجري دماؤهم كالسيل المنهمر في الشوارع ويبلغ ارتفاعها الى ركبة حصانه قصاصاً لهم على عنادهم وعدم استسلامهم فذبح عشرات الالوف من المصريين وجرى دمهم كالغدران في الازقة والشوارع الى ان شبعت نفس ديوكلتيانوس بهذا المنظر الذي تشيب من رؤيته الاطفال فانتهز فرصة سقوط حصانه عند ما عثر بالجثث المكومة فاوقف الذبح لانه اعتبر عثار جواده علامة من السماء على اتمام هذا الانتقام وهو لم يكن ليكف مطلقاً عن عمله هذا لولا ان دواعي سياسية خطرت بباله فوجد له مخرجاً من الحنث بقسمه الذي أقسمه فكف عن خراب المدينة وذبح كل سكانها. وقد زعم البعض ان العمود المنفرد الذي لم يزل الى الآن قائماً في اطلال الاسكندرية القديمة المعروف « بعمود السواري » اقامه الوطنيون هناك او نصب بامر الامبراطور نفسه في هيكل سيرابيس ليكون تذكاراً لهذه الحادثة المشومة الا ان الابحاث الحديثة التي عملت في الاسكندرية لاتثبت صحة هذا الزعم . اما ديوكلتيانوس فعرف كيف يتصرّف في مصر فقضى فيها وقتاً ما كناً هادئاً ولم يصبّ جامات انتقامه على رأس هذه البلاد الشقية الا بعد بضعة اعوام ولكن هذا الانتقام الثاني كان صارماً جداً لا مثيل له بين أعمال الانسان الوحشية

ولما رأى بعض الاشخاص الذين كان قد حكم عليهم بالموت اوبالنفي ان ديوكلتيانوس ينوي بهم شراً تركوا مصر وفروا الى بلاد اخرى . وقد بدأ ديوكلتيانوس حينئذ في ابطال سبك النقود المصرية القديمة ولكن هذا لا يعد شيئاً في جانب المصيبة العظمى التي اصابت مصر بضياع كتبها العلمية القديمة التي كانت اثمن الكنوز عندها . فان هذا الامبراطور الجاهل الذي كان عقله مفعماً بالخرافات والاوهام ظن ان المصريين قادرون بواسطة علم الكيمياء ان يحولوا كل المعادن الاخرى الى ذهب وهاج وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي جمعوا بها مالا طائلا صرفوه في المدة التي كانوا يجاهدون فيها لاستقلالهم وحريتهم . فبناء على هذا الفكر السخيف ـ الذي يوجد كثيرون يعتقدون به الآن ـ امر بتسليم جميع هذه الكتب اليه وقد نفذ الامر رغماً عن احتجاج المصريين وتوسلاتهم وتضرعاتهم فاخذ هذه المجلدات العلمية وحرقها هذا الامبراطور الغر الغشوم باحتفال حافل وهي ولو انها تحتوي على بعض امور وهمية واغلاط غير جوهرية الا انها لو بقيت لكانت أحسن ما يقتنيه العالم في علم الكيمياء وفي علوم اخرى مهمة

وبعد هذ بقليل توفي بطريرك الاسكندرية الذي ربما قاسى كثيراً من هذه المصائب التي مرت على ابنائه . وقد يصعب التثبت من معرفة الذين رأسوا المدرسة اللاهوتية بالترتيب في ايام الاضطرابات هذه وقد يمكن معرفة اسماء الذين اداروا حركة هذه المدرسة ولكن تعاقبهم الواحد

بعد الاخر لا تسهل معرفته الا انه يحتمل ان يكون اخيلاس قد خلف ثيوغنوسطس وانه تعين بامر من البطريرك ثيوناس وانه رقي كرسي البطريركية بعد ذلك بمدة طويلة في اثنائها توالى بطرس وسيرابيون على رئاسة المدرسة اللاهوتية . ويقرب من الظن ان اخيلاس هذا فعل ما فعلها كليمنضس قبله في انه ترك الاسكندرية اوقات القلاقل والحروب وحل محله بطرس اثناء غيابه وقد ورد ان البطريرك ثيوناس مات سنة ٣٠٠ ب . م وخلفه بطرس هذا الذي كان حينئذ شاباً بالنسبة الى ثيوناس وكان ايضاً متزوجاً وذا بنات

وقد ظلت مصر ثلاث سنوات هادئة مطمئنة (١) ومن ثم عصفت زوابع المصائب التي تركت الكنيسة على شفا جرف هار ثم قامت ريح صرصر امطرت على الامة المصرية بلايا ورزايا لم تقم لها قائمة بعدها

الفصل الثامن عشر

تاريخ الشهداء . سنة ٣٠٣ ـ ٣٠٠ ب . م

لا ريب في أن الاضطهاد الذي احدثه ديوكلتيانوس وكاد يقضي على مصر قضاء مبرماً لم يكن محصورا في هذه البلاد فقط انما كان بدء مشروع خطير يقصد به محو آثار الديانة المسيحية من على وجه البسيطة

(١) قال يوحنا النيقاوي في تاريخه ان الاضطهاد بداء في مصر عقيب اخماد نار عصيانها . وهذا القول قريب من الصواب كما انه ازاح الستار عن بعض النقط التاريخية فيما يتعلق بالشقاق الذي احدثه ميليتيوس في مصر . وقد مر بك أن الاضطهاد الذي اثاره ديشيوس بداء في مصر قبل صدور الامر الامبراطوري بثلاثة سنة كاملة

ولان بطانة هذا الامبراطور العاتي ومعينه لم يكونوا يهتمون باظهار الحقائق له فيما بعد - وجهله موصوف في الذي مضى - ان القوة والمقاومة التي صادفها في الشعب في مصر وعدم رضوخهم له انما منشأ هذه الغيرة للمسيحية الشديدة المراس التي تدعي التهذيب والمدنية اكثر من سوى المملكة الرومانية بهما والتي تدين لاله قدير وتطيعه وتقول انه أعلى من الامبراطور الروماني وارفع وتنكر ان هذا الامبراطور نائبه . والذي زاد هذا الامبراطور ارتياباً في امر الديانة المسيحية ماشاهده في فرنسا وبريطانيا وفي شمال افريقيا من سعي هذه الشعوب لنوال الاستقلال كما تسعى مصر ومن ان الباعث لهذا السعي هو سبب واحد ومحرك واحد هي الديانة المسيحية . ومما زاد هوسه وجنونه ان غاليروس (١) وكيله جسم له الامر وكبره كما ان المنجمين والعرافين الذين دعاهم ديوكليتيانوس كثيراً لينبئوه بما يكون في مستقبله قالوا انه يعسر عليهم اغراء الارواح على مجاوبتهم وظهار مكنونات الغيب مادام ان قصر الامبراطور مفعم بجماعة الكفرة (يقصدون بذلك المسيحيين) الذين وجودهم من القصر يمنع تجلي الارواح وظهورها

(١) مما ينبغي ذكره هنا انصافاً لديوكليتيانوس ان الاضطهاد المنسوب له لم يصل درجة القطاعة والقسوة الا وقت جنونه الذي اعقب تنازله قسراً وتركه غاليروس يتصرف كيف شاء ناسباً الفعل لديوكليانوس . وقد صدر أمر في البداءة كان صارماً شنيعاً ثم تلاه ثان وثالث في ظرف بضعة اسابيع يتضمنان سجن جماعة الاكليروس أولاً ثم اجبارهم على أن يذبحوا للاوثان بواسطة العذابات المريعة وكان ذلك نتيجة نار شبت في قصر الامبراطور اتفق جمهور المؤرخين المعاصرين بانها اضرمت بامر غاليروس نفسه وعزاها الى المسيحيين وبذلك اقنع ديوكليتيانوس باتخاذ الطرق اللازمة ضدهم . وقد صدر أمر رابع بينما كان ديوكليتيانوس ممتوهاً وبلغ الاضطهاد حده بعد تنازله

فلما امتلأ عقل ديوكليتيانوس بخوف ناتج من خرافات عقيمة ولاعتبارات سياسية ايضاً امر باصدار منشور شديد اللهجة ضد المسيحيين وذلك في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ ب.م (وهو يوم عيد عند الوثنيين) ولما صدر هذا المنشور كان ديوكليتيانوس وغاليروس في نيكوميديا يطلان من القصر لينظرا بدء تلك الحادثة المشؤمة التي استمرت تسع سنوات كاملة . وقد بدأ هذا الاضطهاد بان سار الوالي بمشهد حافل الى كنيسة نيكوميديا الكبرى يصحبه جم غفير من الموظفين والكتاب وجماعة من حاملي الفؤوس فكسروا الابواب واحرقوا جميع كتب الكنيسة وستورها ثم اخذ العمال في هدم الكنيسة بالفؤوس والاثقال الى ان ساووها بالارض ولم يتركوا فيها حجراً على حجر الا ونقضوه . اما المنشور السابق ذكره فصدر في ثاني يوم لهذه الحادثة وعلق في الاسواق والاماكن العمومية وهذا نصه :-

(١) يجب هدم جميع الكنائس وازالتها من الوجود

(٢) يجب احراق كل الكتب المقدسة

(٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يتجردون من وظائفهم فقط بل يحرمون من حقوقهم الوطنية ايضاً (وذلك لكي يتسنى لاعدائهم ان يذيقوهم انواع العذابات واشكال القسوة)

(٤) كل المسيحيين الغير موظفين يصيرون عبيداً ارقاء

وقد يمكن للفطن ان يتصور مقدار ازدحام الناس في الاسواق

لقراءة هذا المنشور . فكان المسيحيون عند سماعهم هذا الخبر المشوم ينسلون من وسط الجمع لكي يختبؤا او يفروا هاربين ولو ان املهم في هذا الهرب كان ضعيفاً . اما الوثنيون فلم يفرحوا لهذا الخبر بل بالعكس كانوا يريدون المدافعة عن اخوانهم لولا انهم خافوا الشبهة والريبة . قيل ان مسيحياً جريء القلب شديد العارضة اقتحم الجمهور المزدحم في السوق وتقدم ليقرأ هذا المنشور فلما علم بما فيه مد يده بسرعة البرق الخاطف واخذ هذا الامر الامبراطوري ومزقه شذر مذر وذره في الهواء وقد فعل ذلك بغاية الشجاعة والحزم بينما المتفرجون وقفوا مندهشين كأن على رؤوسهم الطير . أما هذا الباسل فقد القوا القبض عليه في الحال وذاق الوان العذاب المر وحينئذ احرقوه حياً في نار ضعيفة اللهيب لكي يطول عذابه كثيراً

وقد جاء في روايات العامة ما يثبت ان هذا الشهيد المار ذكره هو مار جرجس الشهير الذي يعد الآن عميد القديسين في البلاد الانكليزية. ولا يوجد سبب يدل على عدم احتمال هذا القول الاان الحكايه الآنفة لم يرد لها ذكر في الروايات المصرية المنقوله عن مار جرجس . فقد ورد في هذه الروايات المصرية حكاية غريبة عن التنين ومار جرجس مما حدا بالبعض الى الظن ان هذه الحكاية هي من اوضاع برسوس الروائي الشهير وضعها كرمز على حالة المسيحي في هذا العالم وجهاده فيه . اما كلمة « تنين » فكانت لقباً اطلقه المصريون على ديوكلتيانوس رجعلوا

وجه الشبه بينهما الخصام الشديد الذي استحكمت حلقاته بين هذا الامبراطور وبين ذلك الشهيد الباسل الذي قاومه مقاومة شديدة واخيراً فاز عليه واخضع سلطة وقوة ارادته تحت موطيء قدميه . هذا كلما يتعلق بمسألة التنين الذي اقترن ذكره بتاريخ مار جرجس والذي يتصفح الروايات القديمة على صحتها لا يجد ادنى خبر عن وجود تنين حرفي او عن مقاومة جرت بين هذا القديس وبين اي حيوان آخر . اما الرواية الصحيحة التي نحن في صددها فتقول ان هذا الامبراطور كان ممثلا في صورة كأنه ملك المسكونة برمتها وتحت يده ثمانية ملوك خاضعة له . وقد جاء فيها ايضاً انه بعد مضي ثلاث سنين على منشور الامبراطور الذي ذكر قبلا لم يكن احد يتجاسر ويقول انه مسيحي خوفا من العذابات المرة التي كان يتوعدهم بها ديوكلتيانوس . اما عن مار جرجس فقد ورد فيها انه وهو بعد ضابط صغير في الجيش طلب الى مدينة الاسكندرية ليرقى الى درجة اعلى فلما مثل بين يدي رؤسائه لم يسعه السكوت بل قال جهاراً انه مسيحي . فعند ما سمع الامبراطور ذلك لم يشأ قتله حالا بل مد له في اجله حرصاً على حياة ضابط امين مثله وكان دائما يجدد العفو عنه ويعده بالترقي والتقدم إذا هو اطاع الامر وانكر المسيح . ولم تسلم حكاية مار جرجس الصحيحة من النسخ والابدال لانه يحتمل ان كاتباً من المذهب الآريوسي (نسبة لآريوس الهرطوقي) وقعت في يده هذه القصة بعد زمن ما فادخل فيها ما قلب وضعها وعلق عليها من الشروح

والحواشي ما وافق غرضه الذي قصد به نسبة فضائل وكرامات مارجرجس المصري الى مارجرجس الاريوسي الروماني الذي جاء بعده كما سيجيء. وقد صادف عمل هذا الكاتب بعض النجاح في اوائل الامر ولكن لم يلبث هذا النسخ ان انعكس من وقت ما تلاشت الطائفة الاريوسية من مصر واضمحل ذكرها واصبحت الكنيستان او الثلاث التي كانت تكرست باسم مارجرجس الاريوسي (١) تنسب الى مارجرجس المصري وتقول بسيادته عليها وصارت هذه الكنائس ملأى بصور تمثل حكاية التنين القديمة العهد وهي حكاية لا علاقة لها مع هذا او ذاك كما أسلفنا . ففي هذه الصور ترى مار جرجس راكباً جواداً أصيلاً مطهماً وقد اغمد سيفه في تنين (٢) وحشي كما يسميه اليونان والمصريون وخلص الاميرة من انيابه كقول برسوس المار ذكره ولكن الروايات المصرية القديمة لم يذكر فيه تنين او أميرة بل التنين كان لقباً للامبراطور كما قلنا وكان مار جرجس يلقبه به اما هذه الاميرة فكانت احدى محظيات الامبراطور التي كانت

(١) قيل ان الكنيسة اليونانية المسماة باسم مارجرجس الموجودة في قلعة بابلون (بمصر القديمة) كانت مكرسة قديماً باسم مارجرجس الاريوسي وكان له كنيسة أخرى في جرجا

(٢) لا يعرف شيء عن صفة الحيوان الذي صنفت عنه قديماً حكاية التنين . وقد ترجم في سفر (التكوين «حوت») ويشيرون عنه في مصر تارة بتمساح واحياناً بتمساح مجنح واحياناً بحية عظيمة هائلة

قد حبست ليلة كاملة مع هذا الشاب الباسل بعد ان رفض انكار المسيح بقصد ان يؤثر خداعها وكلامها اللين في عزيمته التي لم يزدها العذاب الا ثباتاً ورسوخاً . فلما ادخلوا هذه المحظية الى سجن مار جرجس ذهب الى احدى زوايا الغرفة التي كان مسجوناً فيها وجثا على ركبتيه يصلي لله الى ان جاءت هذه الاميرة وطلبت منه بلطف ان يقول لها بصوت جهوري ما كان يتمتم به في صلاته . فاخذ صاحبنا يشرح لها كل ما يختص بالمسيح وصلبه وموته وقيامه فأثر فيها كلامه تأثيراً عميقاً . فلما بدأت تباشير الصباح اقبل رجال الامبراطور لاخذها اليه فلم يكن من الفتاة الا ان أعلنت بصريح اللفظ بأنها صارت مسيحية تماماً ولذلك صدر امر الامبراطور باعدامها في الحال فأعدمت (١)

وقد يحسن بنا الرد بابسط عبارة على الذين ذهبوا مذهب العلامة رينولدس في القرن السابع عشر الذين اجتهدوا حينئذ في التوفيق بين مار جرجس قاتل التنين وبين مار جرجس الآريوسي . فان مار جرجس الآريوسي لم يمت حتى سنة ٣٦١ ولم تبن كنائس باسمه الا بعد موته بزمن . اما مار جرجس المصري فقد كرست كنائس باسمه قبل ذلك بكثير اي سنة ٣٤٦ ب . م

(١) في واحة برقا وجدت في القرن الثالث عشر كنيسة لمار جرجس قيل انها تضم عظامه . وزعموا ان رأسه موجودة في لِدا ويقول أهل الواحات ان جسده أرسل اليهم بعد استشهاده بمدة طويلة للاحتفاظ عليه

كذا قد عمّ الخلط في مصر الآن بين قديستين ولم يعد احد يميز بينهما حتى خيف كثيراً ان حداثة عهد الواحدة بالنسبة للثانية وعدم معرفة شخصيتها يمحي ذكر الاخرى . ذلك ان كل غربي سمع عن القديسة كاترينا التي من الاسكندرية بينما قليل من الفرنجة لا يعرف عن الست دميانة سوى اسمها فقط وهي العذراء الشهيرة التي تكرمها مصر وتحترمها ولذلك تجد صورتها مرسومة في كل كنيسة وينذر من لا يعرف تاريخها تفصيلا بين المسيحيين المصريين . فاذا سلمنا جدلا ان القديسة كاترينا وجدت في مصر - وهو امر مشكوك في صحته - فقد يمكن ان تكون هي القديسة تاوضورا بعينها وهي التي استشهدت في الاسكندرية في الزمن الذي يقولون ان القديسة كاترينا استشهدت فيه . ويوجد محل للنظر في ان تاوضورا كانت تسمى هيكاترينا قبل اعتناقها الديانة المسيحية - وهو اسم مشتق من اسم الآلهة هيكات. ثم أبدلته باسمها الحالي وقت عمادها . كل هذا ظن فقط ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي ان الكنيسة المصرية لا تعرف القديسة كاترينا ولم تسمع عن اسمها قط الى ان جاء الروم الكاثوليك هذه الديار واذاعوا خبرها فيها لتوهمهم بانها مسقط رأسها وكان ذلك بعد الزمن الذي خيل لهم انها استشهدت فيه بعدة قرون

وقد يحدث كثيراً انه عند ما يفد السياح الافرنج الى هذه البلاد يذهبون لمشاهدة الكنائس المصرية ويسألون عن صورة القديسة

كاترينا فيضطر الترجمان أن يشير لهم الى صورة الست دميانة وهي أشهر عذراء استشهدت والتي لا يعرف القسوس شيئاً عنها فيراها السياح مرسومة وبيدها سعف النخل تحيط بها أربعون راهبه من أترابها .

(قالت المؤلفة) : وقد اتفق لي من مدة مضت ان زرت احدى الكنائس الكبرى في القاهرة وسمعت القس يشير الى صورة الست دميانة كأنها صورة الست كاترينا . فلما رأيت منه ذلك ابتدرته بالسؤال قائلة : كيف تقول هذا القول ؟ أليست هذه صورة الست دميانة ؟ . فاجابني القس بوجه شاحب مقطب : « ماذا عساني أقول غير هذا ؛ نعم ان جنابك الفخيم تعلمين انها الست دميانة ولكن السائحين لا يعرفون شيئاً عنها فاذا قلت لهم انها الست دميانة لا يفقهون قولي ولا يفهمون وقد يقولون لي انها الست كاترينا وانا لا اعرف اكثر من هذا ولا يسعني مجادلتهم وقد تكون كاترينا كلمة انكليزية معناها دميانة !!! ولذلك فانني اقول لهم انها كاترينا وهم راضون بقولي. ومن ذلك الوقت اتضح لي أن تلك الصورة الموجودة في الكنيسة المومأ اليها - وهي الكنيسة الوحيدة تقريباً التي يزورها السياح - يقولون عنها انها القديسة كاترينا وقد وجدت هذا الاعتقاد شائعاً في الاسكندرية فيما بعد ذلك لان الروم الكاثوليك بنوا كنيسة في هذه المدينة وكرسوها باسم القديسة كاترينا وشاركهم في ذلك الاقباط الكاثوليك واصبحوا يحجون اليها . قالت المؤلفة : وقد تمكنت من زيارة الكنيسة القبطية الوحيدة في الاسكندرية وهي التي أعيد بناؤها

من عهد قريب فوجدت أن الست دميانة قد رسمت فيها بشكل حديث تحيط بها الاربعون راهبة ولكنها ليست ماسكة سعف النخل في يدها بل هي في وسط عجلة مرسومة حولها . فلما رأيت اسم الست دميانة منقوشاً على الصورة سألتهم ان لماذا صوروها محتاطة بعجلة كالقديسة كاترينا فكان جوابهم لي « ان جماعة الفرنجة يقولون انها القديسة كاترينا وقد تكون كاترينا كلة افرنجية ترجمتها دميانة فلذلك رسمنا الست دميانة وحولها عجلة كاترين » !!!*

وقد نصيب الفرض اذا نحن اتينا بذكر شيء عن الست دميانة فنقول : ان كلمة دميانة مأخوذة من مذكر هذا الاسم « دميان » وان هذه القديسة كانت من ضحايا هذا الاضطهاد الذي نحن في حكايته وكانت بارعة الجمال غضة الشباب خصت نفسها بالزهد والتنسك وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وكان أبوها مصري الموطن تعين مديراً لاحدى مديريات مصر وابتنى ديراً لابنته على مسيرة ساعتين من بلقاس شمالا (غربيه) حيثما اعتزلت فيه مع راهباتها وصارت رئيسة لهذا الدير رغماً عن حداثة سنها . وقد قدر بعضهم عدد الراهبات اللواتي كنّ في الدير

* (المترجم) هذا ما سمعته حضرة المؤلفة في مصر والاسكندرية عن الست دميانة ومنه يستدل على ان الخطاء والجهل يتفشيان بين القوم ويسريان في عقول هذه الفئة المعلومة اكثر من سريان الحقائق الصحيحة بينهم . وهو عيب فاضح عيرنا به الافرنج ويقولون ان المعرفة والعلم بعيدان عنا بعداً شاسعاً مادام هذا مقدار علمنا باحوال قديسينا وشهدائنا المشهورين

عندما شبت نار الاضطهاد باربعين راهبة . وكان والد دميانة معتبراً في قومه ذا مكانة عند الامبراطور الذي استعمل معه كل نفوذه الشخصي ليقنعه بان يذبح للاوثان لانه لم يكن يرغب هلاك خادم أمين مثله قل ان يوجد له مثيل في بلاد عمها الاضطراب والقلاقل وكثر فيها أعداء الامبراطور. قيل ان هذا الامبراطور قبل من والد دميانة ان يظهر له اشارة خفيفة تدل على الرضوخ لاوامره في هذا الشأن بدل أن يذبح للاوثان كغيره ومن ثم يعهد اليه الامبراطور تنفيذ أمره القاضي بالاضطهاد في المديرية التي يحكمها هو فيتسنى له حينئذ انقاذ اصدقائه ومحبيه من العذاب بهذه الطريقة . فتردد صاحبنا بين القبول والرفض ولما سمعت دميانة بذلك أرسلت الى ابيها تستعطفه وترجوه وتستحلفه أن يرفض طلب الامبراطور رفضاً باتاً فتعل ابوها كذلك وازدرى بمواعيد الامبراطور واستخف به ايضاً . فلما بلغ ديوكلتيانوس ذلك استشاط غضباً خصوصاً لان امرأة مكسورة الجناح ابطلت كلامه ولم تعبأ بقوله فسكب سخطه ورجزه ليس على الاب فقط بل على الابنة والقى القبض على دميانة والراهبات اللاتي معهن واضطرهن لان يذبحن الاوثان ولما رفضن ذلك قطعياً وضعهن تحت طائلة العذابات القاسية الطويلة المدى ولما لم يعدلن عن رأيهن قطعت رؤوسهن جميعاً . ولم يزل الدير الذي قيل ان رفاقهن موجودة فيه قريباً من بلقاس . ومن الحقائق الراهنة ان المسلمين الوطنيين ـ الذين من سلالة المصريين المسيحيين وارتدوا عن الايمان في أوقات مختلفة ـ

لا زالوا يؤدون الاكرام للست دميانة كما وصل اليهم من أجدادهم فيقصدون مزارها مع مواطنيهم المسيحيين سنوياً ويفدون زرافات ووحداناً الى ديرها الذي يعد من اجمل الآثار منظراً في مصر

وقد ظلت نار الاضطهاد مستعرة في انحاء المملكة الرومانية لمدة ثلاث سنوات حيث بلغت منتهى القسوة والفظاعة . وأول امر صدر باثارة الاضطهادات كان في سنة ٣٠٣ ولم تأت سنة ٣٠٤ حتى صدر الامر الرابع المار ذكره بك أصدره غاليريوس عندما كان ديوكليتيانوس مصاباً بالعته والجنون . وهذا الامر الاخير زاد عن غيره في الصرامة والخشونة ولم يقتصر على فريق معلوم من المسيحيين بل عم جميعهم بغض النظر عن العمر وبدون تمييز بين الرجال والنساء ولم يستثن منه ذو حيثية وصاحب مركز رفيع . والذي يريد معرفة درجة ذلك الاضطهاد ومقدار ما قاساه المسيحيون من العذاب عليه بمراجعة الفقرة الآتية التي كتبها يوسيبوس أسقف قيصرية وكان قد جاء الاسكندرية عندما خمدت نار الاضطهاد وعندما كان صدى بلاياه لا يزال يرن في آذان الذين شاهدوه وذاقوا مرارته . ومما يذكر في هذا الصدد ان رسوم العريان الذي نال الشهادة بعدئذ وستأتي حكايته معنا كان اكثر الحكام غيرة في تنفيذ اوامر الامبراطور القاضية بالاضطهاد ولكنه اهتدى واستشهد . ولا يؤخذ من كلام يوسيبوس التالي انه كان في مصر عند حدوث هذا الاضطهاد ولكن يحتمل من كلامه الآتي بانه شاهد الامر بعينه انه يقصد بذلك

ما نظره في فلسطين من استشهاد الكثيرين وموتهم لاجل اسم المسيح مما جعله يقيس ما جرى في صعيد مصر به ويتخذه دليلا على شدة الاضطهاد في هذه الديار وهوله . وهاك ملخص ما كتبه :

«انه يعسر على الكاتب الماهر ان يصف مقدار ما تجرعه الشهداء في صعيد مصر من عذابات قاسية وآلامات تشيب من ذكرها النواصي فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون اجسامهم وينزعون عنها الجلد الى ان ينكشف اللحم وهكذا يفعلون باقي اجزاء الجسم الى ان يموتوا اما النساء منهم فكانت تربط احداهن في احدى رجليها وترفع في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد ان يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كل جسمها وتظهر امام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منها الانسانية وتأباه النفوس الابية . وكثيرون ماتوا بواسطة الاشجار بالطريقة الآتية وهي انهم كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين ومن ثم يتركانهما ليعودا الى اصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا والآخر للشمال والشهيد بينهما تمزق اضلاعه وتسحق عظامه سحقاً ويتطاير جسمه في الفضاء . ولم يكف لهذه الفظائع اياماً وشهوراً بل كانت تستمر سنيناً طوالا وهي في افظع حالاتها وكثيراً ما كان يصدر حكم بقتل عشرة اشخاص في لحظة واحدة واحياناً يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة واحياناً ثلاثين وستين ومرة حكم على مائة رجل

بالموت فماتوا في يوم واحد مع زوجاتهم واولادهم الصغار وذلك بعد ان ذاقوا من العذاب الوانا . قال المكاتب : وقد شاهدت بعيني بينما كنت واقفاً بقرب النطع جماً غفيراً من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن بطرق مختلفة فكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون في اتون النار المتقدة حتى ان السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس ثلم وفل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين فكانوا يستريحون هنيهة ريثما يتنفسون الصعداء . فما تقدم يتضح ولا شك اننا نحن شهود عدول على ما شاهدناه باعيننا من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح في الروح القدس الذي ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله ايمانا متيناً جعلهم يقتبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة حتى انه عندما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الاخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين في المحكمة امام القاضي معترفين له بانهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من عذابات مريعة واضطهادات شنيعة بل كانوا يجاهرون بكل جراءة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التي تعلم بوجود اله واحد عظيم خالق السماء والارض والبحر وكل ما فيها . ومن العجيب الغريب انه عند ما كان يصدر الحكم النهائي بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى انهم كانوا يرنمون ويرتلون اغاني الحمد والشكر لله الذي اهلهم لان يموتوا لاجله وكانوا يظلون يفرحون ويطربون الى آخر نسمة من

حياتهم عند ما تفارق ارواحهم اجسامهم — نعم ان هذا غريب ولكن الاعجب من هذا كله ان الافراد الذين اشتهروا بغناهم وثروتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف منسبهم وذاع صيتهم في الافاق خصوصا لانهم برعوا في الفلسفة والعلم ونبغوا في المعرفة والعرفان — هؤلاء كانوا يحسون كل هذه الامجاد والمزايا من سقط المتاع ويزدرون بها ازدراء في جانب اهمية الدين الحقيقي والايمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح »

ولنعد الآن الى ذكر مشاهير الشهداء الذين استشهدوا على يد ديوكليتيانوس في مصر فنقول ان من اشهرهم ميناس او مينا المعروف هنا باسم « مارمينا » فقد ولد من عائلة عريقة في النسب في مدينة نيقيوس وكان أبوه مديراً في احدى مديريات مصر أما مينا نفسه فكان ضابطاً في الجيش عندما دعي لانكار الديانة المسيحية فلما رفض قطعت رأسه ودفن جسمه في اقليم مريوط حيثما بنيت كنيسة في المكان الذي دفن فيه اكراماً له ثم هدمت وبنيت مكانها كنيسة اكبر منها في مدة حكم اركاديوس ويحتمل انها كانت كمكان يستريح فيه الحجاج والمسافرون عند مرورهم من الاسكندرية الى وادي النطرون

ولو ان الموت والاضطهاد وقعا بشدة على الطبقة العالية من المسيحيين في مصر الا ان العمال وجماعة الفقراء معهم لم يعمهم السوء كما مس غيرهم وذلك لان الحكومة كانت في حاجة اليهم لتشغيلهم في مقالع البرفير

ومناجم الزمرد في مصر التي كان يشتغل فيها قبلا المجرمون ومن ثم سخروا فيها المسيحيين عدة سنين كمذنبين وذنبهم هو دينهم . وكان عندما يبتدي الاضطهاد يحكمون على بعض المسيحيين بالاشغال الشاقة مؤبداً خصوصاً عندما كانوا يحتاجونهم للاشتغال في اخراج المعادن وبعضهم سيما اساقفة الكنيسة كانوا يحكمون عليهم بان يشتغلوا طول حياتهم في خدمة إبل الامبراطور واسطبلات خيوله . إلا انه يحتمل ان هؤلاء الاساقفة اقتدوا انفسهم بشروط معلومة وذلك يظهر من قول يوسيبوس عنهم بانهم لم يسوسوا رعيتهم سياسة الجد والاستقامة ولذلك سقطوا الى حضيض المذلة والهوان لابتعادهم عن الحق والكمال فلو كانوا في الاسر وتحت رق العبودية لما قال عنهم يوسيبوس هذا القول ولما كانت لهم ثمت علاقة بالشعب .

وقد ورد في بعض التواريخ ذكر خمسة من اساقفة مصر الذين وقعوا تحت طائلة العذاب المرّ قبل ان يردوا حتفهم . اما تاريخ الشهداء القديم فقد جاء فيه ان عدد الذين استشهدوا في خلال التسع سنين التي ازكى ديوكلتيانوس نار الاضطهاد فيها في بر مصر بلغ ١٤٤٠٠٠ شهيد ولا مشاحة في ان في هذا القدر شيئاً من المبالغة والغلو كما ان التقدير الذي قدره بعضهم بعيد عن الحقيقة بالمرة لا يعتد به لانه ذكر عدد الشهداء اقل من الصحيح بكثير . فاذا قال باحث بشناعة الاضطهاد بمصر في ذلك الحين وبكثرة الذين راحوا ضحية فيه قلنا له انظر الى الجسم

الوافر الذين ارتدوا عن الايمان والذين خباؤا انفسهم لكي ينجوا من الموت فهؤلاء لا يحسبون في عداد الذين ماتوا وفاتوا . وقد مر بك ان برسوم العريان كان من أشد الناس مقاومة للديانة المسيحية واضطهاداً للمسيحيين وقد ذكر المؤرخ نيبل الظروف التي اعتنق فيها هذا الرجل الديانة المسيحية ولكنه لم يذكرها حسب اصلها بل جاءت محرفة ولذلك رأينا من الصواب ان نأتي على شرح الحقيقة نقلا عن اقدم المصادر المصرية واوثقها فنقول :

ذكرنا آنفاً ان العريان كان ضابطاً في الجيش المصري . وكان بين رجال فرقته عسكريان اسم احدهما فيليمون والثاني ابولونيوس وكان أولهما مغنياً والثاني زماراً . وكان هذان العسكريان صديقين حميمين لبعضهما وكانت رغبتهما في الاستشهاد شديدة جداً وذلك لانهما اختارا أن ينالا الشهادة حالا من ان يظلا طويلا في خدمة عدو لدود لدينهما هو العريان وقد يحتمل ان مهارتهما في فن الموسيقى وما كان لهما من المواهب السامية والصفات الحميدة جعلت العريان ان يغض الطرف عن ديانتهما فلم يضطهدهما حالا بل تركهما آمنين . وحدث انه اتضح لهما ان العريان يحب فيليمون المغني اكثر من زميله ولذلك اتفق الاثنان على تدبير الحيلة الآتية وهي ان فيليمون اخذ الزمار والملابس التي لابولونيوس وتزيا بزيه تماماً ثم دخل على العريان بجرأة غريبة واعترف امامه صراحا بانه مسيحي . فلما رآه العريان بهذا الشكل ظنه ابولونيوس بعينه وخطر

على باله انه من الضروري ان يمثل به تمثيلا حتى يكون عبرة لزميله ليمتنع من اقتفاء اثره وعليه اصدر امره للحال برميه بالسهام وقتله وقد كان كذلك . فلما قتل فيليمون مثل ابولونيوس امام العريان كما قتل زميله من قبله فعرف العريان حينئذ بانه قتل احد الصديقين الذي كان يحبه كثيراً وكان يتمنى لو يعيش طويلا فخنق واستشاط غيظاً وأمر بقتل ابولونيوس كما قتل رفيقه . فلما جاء رامي السهام لتنفيذ الحكم على ابولونيوس هذا طاش سهم من سهامه فاصاب عين العريان فادماها وظل مدة طويلة وهو يقاسي العذاب الاليم من هذه الاصابة الى ان شفاه احد المسيحيين وأعاد اليه بصره كالاول . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها ان الدواء الذي استعمله هذا المسيحي لمعالجة عين العريان كان دم هذين العسكريين اللذين استشهدا ولذلك لم يسع العريان الا ان اعترف بقوة المسيح وصدق الديانة المسيحية وبرهن على صحة ايمانه بان اطلق سراح جميع الذين كانوا تحت طائلة العذاب والموت في السجون . ولما وصل هذا الخبر الى مسامع ديوكلتيانوس ارسل للحال بطلب العريان وعند وصوله امر بموته فاماته شهيداً

ومع انه يحتمل ان محافظ الاسكندرية كان اكثر شفقة وأقل اهتماماً من العريان في تنفيذ الاوامر القاضية بالاضطهاد الا ان الاضطهاد في هذه المدة كان اقسى واشنع من غيره وقد قيل ان البطريرك بطرس اختباء في بادئ الامر كما فعل بعض سلفائه

وعند ما أصيب ديوكلتيانوس بالجنون وعد ان يتنازل عن الملك وذلك في أول مايو سنة ٣٠٥ ولكنه لما عاد صوابه اليه في هذا الشهر نفسه رفض هذا التنازل وسعى ان يقبض بيده على زمام الحكومة باكملها الا ان خلف الوعد هذا لم يرق في عيني غاليروس الذي بذل مافي وسعه ليضطر ديوكلتيانوس الى اصدار امر التنازل الذي وعد به . الا ان (١) موت قسطنطينوس في سنة ٣٠٦ والاضطرابات التي حدثت في المملكة أشغلت بال غاليريوس عن كل شيء حتى ان نار الاضطهاد خمدت في مصر مدة من الزمن . فلما اقترب عيد القيامة لسنة ٣٠٧ اشتغل البطريرك بطرس ـ زيادة عن شغله في اعداد منشور العيد الذي كان يصدر سنوياً ـ بتأليف « قانون التوبة » او هي الشروط التي بمقتضاها

(١) قال يوحنا النيقاوي ـ وهو كاتب نشأ بمصر في القرن السابع ـ انه لما اضاع ديوكلتيانوس رشده نفي الى جزيرة تكثر فيها الحراج والغابات اسمها واروس في الغرب ـ نيل ، كان في هذه الجزيرة فئة من المسيحيين التجأوا اليها فراراً من الاضطهاد ، فلما رأوا الامبراطور في حالته السيئة هذه أظهروا له حنواً واشفاقاً وكانوا يقدمون له الخبز يومياً ويقوتونه الى ان عاد اليه صوابه وحينئذ كتب الى الجيش والى مجلس الشيوخ في رومية يطلب اطلاق سراحه واعادته الى عرشه ولكنهم أبوا عليه ذلك ورفضوا قبوله مرة أخرى فكانت النتيجة ان هذا الامبراطور أصيب بمرض السوداء (الماليخوليا) وظل وقته يبكي وينتحب الى ان ازداد جنونه ثم أصيب بالعمى وبقي هكذا الى ان انتهت حياته ومات ولم يكن احد يعتني به سوى جماعة المسيحيين الذين كان حكم عليهم هو بالعبودية والعذاب والموت

يصير قبول الذين سقطوا اثناء الاضطهاد الى حضن الكنيسة ثانية .
وقد أتينا عليها هنا بالايجاز تاركين باقي البراهين والشواهد التي اقتبسها بطرس من الكتب المقدسة ليثبت بها مذهبه في كل بند منها وهاك الشروط المذكورة ـ :

(١) جميع الذين زلوا في بدائة الاضطهاد لشدة ما قاسوه من العذاب المريع ثم أظهروا توبة وندامة في اثناء الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم في الكنيسة يوم العيد الآتي وذلك بعد ان يصوموا (١) اربعين يوماً صوماً عنيفاً

(٢) جميع الذين عثروا في ايمانهم لداعي سجنهم فقط دون ان

(١) ان صوم الاربعين يوماً هذا لم يكن في ذلك الحين قانونياً في الكنيسة انما واضع لاجل الذين يرغبون في التوبة اما الصيام الذي كان دارجاً في الكنيسة الى ذلك العهد فكان اربعين ساعة فقط . وقد كتب ايرنيوس مكتوباً في هذا الصدد بعث به الى فكتور يندد عليه فيه لسعيه في ادخال هذا الفرض القاسي الثقيل الى الكنيسة قائلاً « ان جدالنا لا يقتصر الآن على تحديد يوم العيد فقط بل يتعداه الى كيفية الصوم وحدوده . ذلك ان البعض يذهب الى ان يتحتم عليهم صوم يوم واحد وقال غيرهم يومين و آخرين اكثر وبعضهم يحسبون ان اليوم المفروض عليهم انما هو اربعين ساعة نهاراً وليلا . فهذا الاختلاف الذي تراه بين الكثيرين لم يقع في أيامنا هذه بل نشاء بين الذين سبقونا الذين اذا لم يكن عندهم قانون صحيح يسيرون عليه ابتدعوا هذا الصوم الذي منشاؤه سذاجتهم وعدم اختبارهم وعلى اي حال فحيث انهم كانوا مسالمين للجميع فوجب علينا ايضاً ان نكون على وئام وسلام »

يعذبوا عذاباً شديداً يجب ان تعطى لهم سنة كاملة فيها يظهرون التوبة الحقيقية قبل قبولهم في حضن الكنيسة

(٣) كل الذين ارتدوا عن الايمان لمجرد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذاباً تعطى لهم اربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة

(٤) جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام الى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حريّ بالكنيسة ان تبكيهم وترثي لحالهم

(٥) الذين نجوا من العذاب او الموت لتظاهرهم بالبله او الصرع او أي حيلة أخرى تمنح لهم مهلة ستة شهور فيها يكفرون عن سيئاتهم

(٦) العبيد الذين اجبرهم مواليهم للتقدم للمحاكمة عوضاً عنهم ثم سقطوا في هذه التجربة ينبغي ان يبرهنوا على توبتهم باعمالهم في بحر سنة

(٧) الموالي الذين فعلوا ما تقدم تفرض عليهم ثلاث سنين توبة

(٨) جميع الذين عثروا ثم عادوا فاصلحوا خطأهم حالا بان قدموا انفسهم للسجن وللعذابات يجب قبولهم في عضوية الكنيسة بدون فحص او قصاص

(٩) كل الذين قدموا انفسهم للاخطار طوعاً واختياراً دون ان ينتظروا القاء القبض عليهم او يصبروا حتى يرى ما يحل بهم لاتصح محاكمتهم ومقاصتهم بل يكتفي بتذكيرهم بان المسيح ورسله لم يعملوا

هكذا ولم يلقوا بانفسهم في التهلكة . اما الذين سقطوا من هذه الفئة المشار اليها فاذا كانوا من الاكليروس الذين طلبوا العودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قبولهم في الوظائف الكهنوتية ثانية بل يقبلون كاعضاء في الكنيسة فقط

(١٠) اولئك الذين انكروا حيثياتهم واشخاصهم لاجل تشجيع الاخرين وتقوية ايمانهم في اوقات الاضطهاد فهم قد أتوا عملا حسناً فلا لوم عليهم ولا تثريب

(١١) جميع الذين افتدوا انفسهم بدراهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون قط

(١٢) لاشيء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص عليهم

(١٣) جميع الذين اجبروا اجباراً لكي يذبحوا للاوثان والذين افقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فاصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم في درجة الذين اعترفوا بالمسيح تماماً مادام فعلوا مافعلوه بدون ارادتهم. فاذا كانوا من الاكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا. انتهى

وبعد ان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنائس الاوربية صادق مجمع طرولو سنة ٦٦٢ على هذه القوانين المار ذكرها وقد ظل هذا القانون الذي دعاه الاجانب قانون الكنيسة الهرطوقية معمولا به في جميع الكنائس الاورثوذكسية في كل العالم التي اقتفت آثار كنيسة

مصر ونسجت على منوالها

وقد يغلب على الظن انه في أثناء هدنة الاضطهاد هذه استفحل أمر الانشقاق الذي كان منشاؤه ميليتيوس حتى استلفت امره الانظار واشغل الافكار وقد اختلف المؤرخون في تحديد مدة وقوعه فقدموا واخروا فيه نحو سنتين او ثلاث . اما ميليتيوس هذا فكان أسقفاً لمدينة ليكوبوليس (اسيوط) وقد وردت عنه روايتان متناقضتان ـ اولاهما رواها اتباعه ومريدوه والثانية اوردها اثناسيوس الذي كتب عن هذا الشقاق بعد حدوثه بخمسين سنة . ولا ريب في ان الروايتين المذكورتين تقربان من الحقيقة ولو كانتا مختلفتين

اما اثناسيوس فقال ان ميليتيوس قد نجى نفسه في وقت الاضطهاد بان ذبح للاوثان فلم يسع البطريرك بطرس الا أن شكل مجلساً بعد ذلك في الاسكندرية فحكم هذا المجلس على ميليتيوس بالادانة والابتعاد عن الوظيفة فعوضاً عن ان يخضع ميليتيوس للحكم انشق من الكنيسة وسار على غير طريقها ولم يكتف برسامة القسوس فقط بل تطرف حتى صار يسيم اساقفة وكانت النتيجة ان ثلاثين من هؤلاء الاساقفة الذين سامهم ميليتيوس صرحوا باستقلالهم عن كرسي الاسكندرية وقالوا بعدم وجود علاقة لهم به . وقد اشتبه في هؤلاء الاساقفة بادخالهم الى الكنيسة تعاليم يهودية وفرائض طقسية من العهد القديم بطريقة غير محسوسة وقد ظهر في الاسكندرية بعد ذلك صديق وظهير لميليتيوس هو آريوس الهرطوقي

المشهور واصله من ليبيا كان قد سامه بطرس شماساً في الكنيسة

اما اتباع ميليتيوس واصدقاؤه فانحلوا له عذراً على ما فعله وقالوا ان هروب البطريرك بطرس في أبان الاضطهاد وسجن كثيرين من اساقفة الوجه البحري اضطره الى تقديم الذبائح للاصنام ليربأ بنفسه. أما البراهين التي قدمها أنصار ميليتيوس والمعارضات القائل بها أضداده فتنحصر في الاوجه الآتية وهي : ان ميليتيوس فر من السجن ولم يحتمل عذاباً في سبيل الايمان المسيحي وهو عمل لم يأته أحد من الاساقفة رصفائه ثم ان ميليتيوس رسم قسوساً وسام أساقفة لابروشيات أخرى غير أبروشيته وقد عمل هذا رغماً عن الاحتجاج الشديد والاعتراض القوي الذي أرسله له أربعة من الاساقفة بينما كانوا في السجن ثم ذاقوا كأس الحمام ونالوا اكليل الشهادة مع من ناله . وانه بعد موت هؤلاء الاساقفة الاربعة سار ميليتيوس الى الاسكندرية واغتصب وظيفة البطريرك الذي كان لا يزال غائباً وأخذ يتداخل في أعمال البطريركية ثم انه لم يعبأ بجواب التعنيف الذي أرسله بطرس كما انه عند عودة هذا البطريرك وصدور الحكم عليه من المجلس لم يرضخ للحكم بل اظهر ازدراء به وتحقيراً مهيناً ثم صار يقاوم البطريرك ويضاده في كل قول وعمل . وبعد هذا كله ذهب ميليتيوس الى بلدته حيث اعتزل فيها عن كل عمل اما آريوس فسامحه البطريرك ورده ثانية الى وظيفته

ولم تكن هذه المناظرات والمنازعات لتنتهي لو لا ان بداء اضطهاد

جديد وضع حداً لها وجعل الكنيسة تنظر الى هذه المصيبة الحديثة . اما الامة القبطية فلم تكن حينئذ قد عرفت الذي تم لميليتيوس واريوس ومر ذكره بك

فهذا الاضطهاد الجديد بداء في خريف سنة ٣٠٨ب. م اذ أصدر غاليريوس امراً صارماً شديداً يقضي باعادته من جديد وذلك باتفاقه مع ابن اخيه مكسيمين . وغريب في امر حكام الاقاليم الذين بعد ان كانوا في الاضطهادات السالفة يكتفون بتعذيب المسيحي باتلاف احدى عينيه مثلا او بوضعه تحت رق العبودية والذل اذ يشتغل في المناجم المصرية كاسير ـ تجاوز هؤلاء الحكام الحد في هذه المرة وجرى دم الغيرة والحسد في عروقهم من فعل الديانة المسيحية وزاد حنقهم كثيراً ضد المسيحيين الذين كانوا يابون انكار دينهم والاعتراف بغيره . فعظم الخوف والرعب من جراء هذا الاضطهاد ومصائبه وعم القلق والاضطراب واستوليا على مصر مدة سنتين كاملتين فكانت تشبه فرانسا عند ثورتها العظيمة التي حدثت سنة ١٧٨٩ التي دكت بها معالم الاستبداد ومحت آثار الظلم ولكن بعد ان جرت الدماء انهراً . ولسنا في حاجة الآن لوصف طويل لتلك المخاوف والشدائد بل يكفي ان نقول انها فاقت كل البلايا التي سبقتها وقرأت وصفها فيما مر وان الذي زاد النار اشتعالا والداء استفحالا هو مكسيمين دازا ذلك الشكس الشرس والفظ المتوحش الذي اضر بمصر كثيراً كما ان مكسينتيوس ابن الامبراطور مكسيميان اشعل مثل هذه

النيران في اوروبا واوقع فيها اضطهاداً يهول

وحدث في سنة ٣١١ ان الله ابتلى غاليريوس بمرض عضال عزّ دواؤه وعسر شفاؤه . فلما ازداد به الالم ولم يجد طبيباً يريحه من عذابه او الهاً يشفيه من اوصابه وينقذه مما اصابه سعى سعي الياس القانط في ايجاد سلام وصلح بينه وبين اله المسيحيين الذي صرف غاليريوس هذا كل ما في وسعه وقضى العمر في مقاومته ومحاربته واضطهاد شعبه فاصدر امراً يقضي بعقد هدنة مع المسيحيين وكف الاضطهاد عنهم للسبب المار ذكره وقد ورد نص هذا الامر في تاريخ يوسيبوس وهو مطول مسهب الا ان خضوع غاليريوس وتوبته التي جاءت مداوانها لم تفده شيئاً لان الله لا تجوز عليه الحيل ولا يخفى عليه الغش والخداع . فان خبر ارتداد غاليريوس الى الديانة المسيحية عرفه الناس في اخر يوم من شهر ابريل سنة ٣١١ وفي اواخر شهر مايو ذاع خبر موته في جميع انحاء المملكة ولا بد ان يكون مات قبل اذاعة الخبر في المملكة بايام كما هو معلوم فتكون توبة غاليريوس وندامته جاءت وهو على حافة القبر فلم تنفعه شيئاً

قلنا ان غاليريوس اصدر أمراً يقضي بايقاف الاضطهاد وقد ذيل هذا الامر بامضاء قسطنطين وليسينيوس التابعين عنه ولكنه لم ينفع ولم يوقف سير الاضطهاد فان مكسيمين دازا ابن اخيه لم يكف عن بغيه وعناده بل بقي يحمي وطيس الاضطهاد حتى ان اهم شهداء مصر وكثيرين من اماجدهم نالوا الشهادة في آخر سنة من سنيه وكان في

مقدمة هؤلاء الشهداء البطريرك نفسه الذي قطعت رأسه فجأة وعلى غرة من شعبه خوفاً من ان يقوم هذا الشعب الذي كان يحب البطريرك حباً مفرطاً ويعمل على خلاصه من يد الحكومة بالقوة والقسر . ومما يدلك على تفاقم الخطب في هذا الاضطهاد ان انطونيوس اب الرهبنة شعر به وحس بثقل وطأته بينما كان منكمشاً في ديره في الصعيد مدة عشرين عاماً او تزيد تخرج من مكمنه كانه من أهل الكهف المزعومين وسار يحث الخطى الى الاسكندرية لكي يعزي الشعب الذي حزن واكتأب لموت البطريرك وقيل بل ان غرضه كان ان ينال الشهادة في الاسكندرية ما دام لم ينلها في الصعيد حيث كان بعيداً عن الاضطهاد في ديره الا ان هذه الامنية لم تتحقق له ولم يستشهد لايقاف حركة الاضطهاد وذلك لان قسطنطين وليسينيوس كانا قد تظاهرا بالعدوان ضد مكسيمين الخامل عديم الشهرة فتحولت انظار هذا من اضطهاد الاخرين الى الدفاع عن نفسه ولكن خانه حظه فهزم في سنة ٣١٢ شر هزيمة امام عدويه وبعد ان قضى بضعة ايام في حالة النيبوبة شرب كاس الحمام بان تجرع شيئاً من السم الزعاف

فالى هنا انتهت مدة العشر سنين التي كانت ملاءى بمصائب وبلايا لم تذق مثلها كنيسة مسيحية في العالم . صحيح ان كل امة مسيحية في الارض يمكنها ان تسرد لك حكايات مؤلمة عن اضطهاد وقع عليها قد يكون قاسياً صارماً مثل هذا الاضطهاد الذي وصفناه لك في ما سبق

وصحيح ايضا ان بعد هذه الحوادث بنحو اثني عشر قرنا قام ملك مسيحي (هو فيليب الثاني ملك اسبانيا) وحكم على جميع سكان مملكة أخرى مسيحية (هولاندا) بالموت لاجل ديانتهم ولم يستثن رجلا او امرأة صغيراً أو كبيراً حتى انه انفذ جيشا لتنفيذ حكمه هذا. نعم كل هذا حدث وصحيح ولكن منذ ما ظهرت الديانة المسيحية في عالم الوجود لم تر عين ولم تسمع اذن باضطهاد شنيع فظيع مثل ذلك الاضطهاد الذي وصفناه لك وهو الاضطهاد الذي من وقته والمسيحيون المصريون يؤرخون تاريخهم الخاص به وهم يذكرونه الآن والقلب مفعم بعوامل الاسف والتفجع على تلك الازمنة القاسية. وهذا التاريخ هو تاريخ الشهداء (١) المعروف عند القاصي والداني

الفصل الثالث عشر

جدال اريوس سنة ٣١٢ للمسيح و٢٨ للشهداء

بعد موت مكسيمين بسنتين وبعد استشهاد البطريرك بطرس بسنة تقريباً شرع المصريون في انتخاب بطريرك جديد لهم فوقع اختيارهم على أخيلاس الذي كان قبلا رئيساً للمدرسة اللاهوتية. أما انطونيوس الذي قلنا انه جاء الاسكندرية لينال الشهادة كغيره ولم يتمكن من نوالها فقد برح الاسكندرية في هذا لوقت ولكنه لم يذهب تواً

(١) ان تاريخ الشهداء — او هو التاريخ القبطي — لابتدي، من سنة ٣٠٣ كما يزعم البعض بل من سنة ٢٨٤ ب . م وهي اول سنة من ملك ديوكليتيانوس

الى الصعيد حيثما كان قبلا بل سار الى الانحاء الجبلية الواقعة بين البحر الاحمر والنيل حيث بني بعد موته ديرا مار انطونيوس ومار بولص ولا يزالان موجودين الى الآن في المكان المشار اليه. ولما حط انطونيوس رحاله في هذه البقعة غرس بيده زرعاً في الاراضي البراح الواقعة هناك لكي يقتات منها وكان يشتغل في عمل الحصر وذلك ليكفي تلامذته وأتباعه مؤونة احضار الطعام له وهم على مسافة بعيدة منه. ويظهر ان العناء زاد عليه بعدئذ وكثرت أشغاله كثيراً لانه فضلا عن تعبه في تعليم التلاميذ الذين التفوا حوله في مدة قصيرة فانه لم يدع فرصة تمر دون أن يفيد أهالي الريف ويتحفهم بمآثره كل آونة وأخرى مع عدم وجود رابطة متينة بينه وبينهم وقد كان يبعث برسائل ارشاد ونصح الى الامبراطرة والولاة لعلمه انهم في حاجة شديدة الى نصائحه. ومع انه لم تكن لديه كتب أو اسفار كما انه لم يكن عارفا بلغة غير لغته كما مرّ القول ولكنه كان رجلا يفكر كثيراً ويعلم تعليماً حسناً شأن أهل الغيرة الذين يعرفون انهم خلقوا ليفيدوا العالم وينفعوا بني جنسهم. أما تاريخ حياة انطونيوس الذي كتبه اثناسيوس فقد دخلت عليه زيادات واضافات كثيرة قلبت معناه حتى ظنّ البعض ان اثناسيوس براء منه وانه لم يكتب كلمة واحدة فيه. وقد ظهر كثيرون في هذا القرن التاسع عشر من المنتقدين المدققين الذين زعم بعضهم ان انطونيوس لم يكن له في عالم الوجود وجود وان حياته محض خرافة لا أصل لها وقد تعمق بعض

الباحثين وقال ان ما كتب عنه انما هو رواية تاريخية خلق الروائي مار انطونيوس بطلا لها وليس هي ترجمة حال شخص حقيقي . ولكن المنصف الذي ينظر الى الحقائق بفكر ثاقب ويطرح ظهرياً ما علق بذكر هذا الرجل العظيم من الخرافات والحكايات الغريبة التي تقترن عادة بتواريخ نوابغ العالم — ان الذي يفتكر هكذا لا يجد ندحة لافكار هذا الرجل أو عدم الاقرار باعماله العظيمة التي أتاها في حياته

أما اخيلاس الذي قلنا انه انتخب بطريركا في الاسكندرية فلم يستمر منصبه سوى سنة واحدة حدثت في اثنائها حادثة تستحق الذكر هي قبوله آريوس الهرطوقي الذي كان قد حرمه بطرس سلفه مرة ثانية وظل تحت طائلة هذا الحكم الى ان توفي بطرس فرده اخيلاس الى عضوية الكنيسة بناء على طلبه وزاد ان عهد اليه رعوية كنيسة بوكاليس وهي أقدم كنيسة في الاسكندرية قيل انها بنيت على مقبرة مارمرقس. ولما توفي اخيلاس رشح اريوس نفسه لمركز البطريركية ولكن الاكليروس والشعب اتفقوا معاً على انتخاب اسكندر صديق اخيلاس

وكان اسكندر هذا قد بلغ من الكبر عتياً عند ماسيم بطريركاً وكان اثناسيوس تلميذه المحبوب في السابعة عشرة من عمره. أما الحكاية التي اوردها روفينوس المؤرخ عن كيفية تعلق اسكندر باثناسيوس وسبب ميله له فلا يمكن تصديقها على علاتها الا انه يقرب من العقل ان حادثاً حدث قبل ارتقاء اسكندر اوجد علاقة بينه وبين صديقه

اثناسيوس نلخصه لك فيما يلي :

قيل ان اسكندر كان مرة ينتظر مجيء بعض رجال الاكليروس لتناول الطعام وكان جالساً في شرفة تطل على البحر الذي كان يجري تحت منزله وهو يتفرج على جماعة من الغلمان يلعبون هنالك . وقد احدق بنظره فيهم طويلاً فاتضح له انهم في لعبهم يمارسون الطقوس الكنائسية على انم اشكالها . وقد ظن انهم ربما يطيلون لعبتهم ولا ينتهون منها حالاً ولذلك استدعاهم من على الشاطىء فمثلوا بين يديه بحضور جماعة الاكليروس الذين كانوا قد جاؤا في هذه الاثناء . فلما استقصى البطريرك حقيقة أمرهم زاد استغرابه كثيراً عند ماظهر له انهم أتوا عملاً فوق ما كان يخمّن ذلك لان واحداً من هؤلاء الصبية اسمه اثناسيوس عمّد بعض الاولاد رفاقه الذين لم يسبق لهم عماد حسب الطريقة القانونية المستعملة في الكنيسة . وبعد ان تناقش القسوس مع بعضهم في أمر هذا العماد قرّ رأيهم اخيراً على الاعتراف بصحته ثم صمموا على ترشيح اثناسيوس وواحد أو اثنين من الصبيان الذين ساعدوه في اتمام هذه الفريضة لرتبة الكهنوت

وسواء صدقت هذه القصة أو لم تصدق فلا مشاحة في ان اثناسيوس كان منذ نعومة اظفاره صديقاً لاسكندر وانه تعين سكرتيراً له عند ماصار بطريركاً . ولم يمض على ارتقاء اسكندر السدة البطريركية خمس سنين حتى عم السلام كل الكنيسة في ارض مصر برمتها بعد هاتيك

البلايا والمصائب التي اقتحمتها. أما ميليتيوس اسقف اسيوط فقد يستدل من الحوادث التالية انه ظل مدة في شقاقه وعناده ولكن لما كانت اسيوط في ذلك الحين بعيدة عن الاسكندرية بسفر أيام كثيرة فكان يخال للناس انه ساكن في ابروشيته لا يعمل شيئاً يدل على الشقاق . وقد عاد الناس الى منازلهم بعد الفرار وأخذ الشعب يهتم في ترميم الكنائس المنهدمة مع انه لم تكن توجد عائلة واحدة في مصر الاّ وكانت تندب عزيزاً أو قريباً لها ذهب فريسة الاضطهاد فتكلّمت القلوب لفقده وكثيرون كانوا يعدّونه في عداد الاموات اما لان عظامهم سحقت لكثرة ماقاسوه من الامات الاضطهاد فاصبحوا كالعدم أو لان عيونهم فقئت تعذيباً لهم ولكن الديانة المسيحية امتدت اغصانها كثيراً في البلاد زيادة عن ذي قبل حتى ان عدداً يذكر من الوثنيين دخلوا الى حظيرة المسيح لما شاهدوه فى الديانة المسيحية من الحق الذي لا ينقض والقوة الروحية التي لا تغلب . ومع كل هذا التقدم كان الشقاق قد بداء يستفحل حتى صار صفة ملازمة للمصريين على توالي الايام واصبح تعريفاً لهم دون غيرهم الى الآن وما سبب هذا الا لان الدم النقي الذي كان يجري في عروق الامة اهرق وكاد ان يستأصل وذلك عند ما قامت تطلب الاستقلال في مدة حكم اخيلوس وعند ما كانت تجاهد لحفظ كيان الديانة المسيحية اثناء العشر سنين الاخيرة لما قام اعداؤها يطلبون اضمحلالها ولذلك لم يبق من المصريين الاحرار الا النذر اليسير لان الذين عاشوا

بعد تلك المحن والاحن وعمروا البلاد انما نجوا من الموت بالمكر والخداع أو بالجبن والخوف وهي صفات تدلك على حيثية هذا الشعب ولم يبق من الكرام سوى جماعة تشوهت اجسامهم ظلوا مطروحين بين اهليهم لا منفعة منهم أو فئة من العمال الذين أستعبدوا ليشتغلوا في المناجم القاصية وقد كانوا يميلون للحصول على مغفرة من الكنيسة لاجل هفوة تصور البعض انهم ارتكبوها ضد الدين الذي بذلوا لاجله دماءهم ولكنهم قضوا حياتهم يقاسون مر الاسر والذل ـ أما الشقاق الذي أشرنا اليه فقد مضت عليه عشر سنوات اخرى قبلما يتسنى لقسطنطين ان يتداخل لحسمه وفض الخلاف الذي كان قائما بين اساقفة الكنائس بعد ان اشتدت بينهم الشحناء والبغضاء وذلك لان هذا الامبراطور لم يكن قد صار مسيحياً بعد ولم يكن قد تعمد لانه كان سادس الستة امبراطرة الذين اقتسموا المملكة بينهم بعد تنازل ديوكلتيانوس عن سرير الملك

اما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع نيقية وما تمّ في هذا المجمع فمعروفة عند الكثيرين اذ أتى على ذكرها جماعة من علماء اللاهوت وشرحوها بالاسهاب فلا حاجة لسردها الآن . ولم تأت سنة ٣١٩ حتى زاد تذمر الاسكندريين وكثر لغطهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها للآخرين مما دعى البطريرك اسكندر ان يهتم لاخذ الاحتياط اللازم لصدّها . وكان لما شعر هذا البطريرك بتفاقم الشقاق واتساع حلقة الخلاف في الكنيسة صرف كل عنايته بغاية

ما يكون من الصبر والحكمة ليستميل اليه تلك الجماعة التي انشقت ويعمل على اقناعها بخطائها وضمها الى الكنيسة وذلك بعد ان ينزع من العقول ما علق بها من الاوهام والاضاليل كما فعل البطريرك ديونيشيوس قبله في مسألة الفيوم فعقد اجتماعين حافلين للمناقشة في هذا الموضوع وفضّ الخلاف بالحسنى ولكنه لم يفلح ولم يأت عمله بثمرة وأخيراً كتب البطريرك رسالة رعوية الى آريوس واتباعه ينذرهم بترك طريق الضلالة التي ساروا فيها والرجوع الى الطريق السويّ ولكنه عبثاً حاول إقناعهم ولا بد ان بعض الباحثين يعرفون ان نقطة الخلاف هذه كانت فيما يختص بألوهية المسيح وهي مسألة لم يسبق لها مثيل في الجدل واللدد ولم تكن الكنيسة تعرفها ولا تهتم بها قبل الآن حتى انها اشغلت الاذهان واوجدت احزاباً انحاز اليها الكثيرون وبينهم أولئك الذين كانوا يجنحون الى السلام ويميلون الى الابتعاد عن كل شقاق وخصام . والذي درس بدعة آريوس هذه درساً مدققاً ووقف على كنهها لا يجزم بان هذا الرجل انكر ألوهية المسيح انكاراً حقيقياً صريحاً ولو انه كان يحاول كثيراً في أزمنة مختلفة ان يدخل معتقده في العقول بكلمات وعبارات كان يمكن ان تصادف قبولاً عند اعضاء الكنيسة . اذاً فالذنب ليس على آريوس بل على فئآت اخرى سبقته في ايجاد هذه البدع فاخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الفئآت لم يكن شديداً كما كان تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الالوهية حتى انتشر

هذا التعليم وعمّ ولعل سبب هذا هو ردّ الفعل الناتج من شدة تمسك القوم بالامور الروحية واحتفاظهم على معانيها وقوّتها احتفاظاً لم يدعهم يسقطون في أزمنة الاضطهادات المرّة بل كانوا يضحون انفسهم لاجل هذا المعتقد الذي اصبحوا الآن يرفضونه لا لسبب سوى اثبات قاعدة الافراط والتفريط

وكانت نتيجة هذا كله ان البطريرك اسكندر شكل مجمعاً في سنة ٣٢٠ حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة وهو ثالث حكم صدر ضده في حياته . اما آريوس فلم يرضخ لهذا الحكم ولم يعبأ به بل غادر الاسكندرية قاصداً فلسطين حيثما جمع اليه اصدقاء اثر فيهم تأثيراً شديداً اذ انضمّوا اليه بكليتهم حتى ان يوساب اسقف نيكوميديا الذي كان رفيقاً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو ومن ثمّ سعى بعد ذلك في استمالة الامبراطور قسطنطين الى هذا المذهب وقد كان الامبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل اليه كثيراً

ولما غرس آريوس غرسه هذا في يوساب اسقف نيكوميديا آب الى فلسطين حيث سمح له يوسيبوس اسقف قيصرية واساقفة آخرون بان يعقد جمعيات دينية في ابروشيات مختلفة ليعظ فيها . فلما احسّ البطريرك اسكندر بذلك ساءه كثيراً فسعى في اتخاذ طريقة فعالة لايقافه عند حدّه ومنع سريان بدعته وهرطقته وعليه كتب رسالة انجيلية محضة الى اساقفة كل الكنائس اوضح فيها الاسباب التي حملته

على حرمان آريوس وقطعه من عضوية الكنيسة وكيف انه يأبى قبوله مرة أخرى في حضن الكنيسة ما دام هو لا يزال يتمادى في غيه وضلاله . ولم تستمر هذه المناظرة طويلاً لان اذهان المتناظرين كانت قد انصرفت الى رعب جديد واضطهاد حديث بدأ حالاً بواسطة ليسينوس النائب الامبراطوري الذي امات دوناتوس اسقف ثميوس في مصر مع اثنين من قسوسه كما ان فيلاس سلف دوناتوس كان قد استشهد قبل هذا الوقت ببضع سنوات . فلسبب هذا الاضطهاد الجديد ولاسباب اخرى حمل قسطنطين على ليسينوس حملة مرة وهزمه في واقعتين عظيمتين حدثتا في يوليو وسبتمبر سنة ٣٢٣ وحينئذ خلا الجو لقسطنطين فنادى بانه اصبح الملك الوحيد للمسكونة كلها وجعل مقر ملكه مدينة بيزانتيوم (وهي اسطمبول او القسطنطينية) وفي هذا الوقت رفع اليه يوساب اسقف نيكوميديا مسألة آريوس فاغتنم هذا الامبراطور فرصة في وسط مشاغله الكثيرة بتدبير مهام الملك كتب فيها مكتوباً ارسله الى البطريرك اسكندر وآريوس معاً وهذا المكتوب اشتهر بما تضمنه من قول سداه المحبة المسيحية الحقيقية ولحمته الاخلاص والولاء

ولكن رغماً عما حواه هذا الخطاب من اللهجة المعتدلة والكلام المؤثر فان الامبراطور لم يفلح قط في ايقاف هذا الشقاق عند حده لعدم معرفته حقيقة أمره . وكان الامبراطور قد أرسل رجلا اسمه هوسيوس

من كردوفا يحمل ذلك الجواب الى اسكندر فلما آب هذا الرسول من مصر قص على مولاه حقيقة الخبر وأوقفه على جلية هذه المعضلة وعليه أصدر قسطنطين أوامره باجتماع جميع الاساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المشكل ويبتوا فيه حكما قاطعاً بكل تبصر وامعان . وبناء على ذلك التأم هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥ وفيه كتب أول نسخة من قانون الايمان النقاوي (١) اعضاءها جميع الاساقفة الحاضرين الاخمسة منهم رفضوا التوقيع عليها . وقد ختم هذا القانون بالحرمان الآتي الذي يسرنا انه امحى من زمن طويل : ـ « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه وانه لم يوجد قبل ان يولد وانه وجد من لا شيء او من يقول ان الابن وجد من مادة او جوهر غير جوهر الله الآب وكل من يؤمن انه خلق أو من يقول انه قابل للتغير ويتريه ظل دوران »

وعلى ذلك حرم المجمع آريوس حرما باتا واصدر قراراً بنفسه ونفي الاساقفة الذين ابوا التوقيع على هذا القانون . ثم أخذ هؤلاء الاساقفة يبحثون في أمر الشقاق الذي احدثه ميليتيوس وفي مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقرروا رأيهم على ما يأتي في النبذة التالية التي بعث بها المجمع الى المصريين وهاك هي :

« اننا اذا راعينا الحقيقة نجدان ميليتيوس لا يستحق اكراما اوصفحاً

(١) ان القانون الذي صادق عليه المجمع النيقاوي ينتهي بهذه العبارات « نؤمن بالروح القدس » اما العبارات الاخرى التي تتلو هذه الجملة فقد اضيف اليه في زمن بعد هذا

على ما اقترفه من أمر الشقاق الذي احدثه الا ان الشفقة والحنان يحتمان علينا أن نعامله بالرأفة واللطف ولذلك أذن له المجمع بالاقامة في بلدته مسقط رأسه وأمره ان لا يمارس أي وظيفة كهنوتية سواء كانت رسامة أحد او ترشيح أحد للرسامة ويحتم عليه عدم الظهور في أسيه اقليم او مدينة بهذا المظهر ولا ان يدعي شيئاً حرمه عليه المجمع بل تبقى له صفته الشخصية فقط. اما الذين عينهم هو في وظائف وتثبتوا فيها بواسطة رسامة قانونية فيجب قبولهم في عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهي: ان تبقى لهم وظائفهم ورتبهم ولكنهم يعتبرون اقل درجه في كل شيء من الاخرين الذين عينهم رئيسنا المحترم البطريرك اسكندر واقامتهم الكنائس الاخرى. كذا لاسلطة لهم على تعيين أو ترشيح من يشاؤن ولا ان يعملوا عملا ما بدون تصديق أحد أساقفة الكنيسة الجامعة الذين يعدون من أنصار اسكندر ومساعديه. وعند موت أحد هؤلاء القسوس الذين سامهم ميليتيوس سابقاً ينبغي تعيين واحد بدله من الذين تنطبق حالتهم على النظامات الحديثة على شرط ان يكون ذا أهلية واستحقاق فيختاره الشعب ويصدق اسقف الاسكندرية على انتخابه. فهذا الامتياز يمنح لجميع الاساقفة على السواء الا ميليتيوس فلا يعطى هذه السلطة نظراً لسلوكه السابق المغاير للصواب والتعقل بل يجرد من كل سلطة وسطوة لاجل طباشته وخيلائه ولانه رجل لا يبعد عليه ان يحدث شقاقاً جديداً مثل الذي اتاه قبلا. فهذه المسائل تهم مصر وكنيستها الرفيعة الشأن على

الخصوص وعليه فاذا سن قانون آخر غير هذا أو حدث رسامة كاهن ليست قانونية فيكون لغبطة الحبر المفضال البطريرك اسكندر حق التداخل في هذا الامر وان يفحصه فحصاً دقيقاً ويبت حكمه فيه لانه ليس بصاحب صوت فقط في الذي يحدث ولكن له الرئاسة العليا والسلطة التامة في تنفيذ أي عمل يريده. ولقد يسرنا أيضاً في هذا المقام ان نخبركم بما قر عليه الرأي في مسألة تحديد يوم عيد القيامة المبارك فان هذه المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الاخوة المسيحيين في الشرق الذين كانوا يعيدون هذا العيد مع اليهود تماما يسيرون من الآن فصاعداً على الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية وهي التي نجري عليها نحن أيضا ومن جرى مجرانا من قديم الزمان (١) »

وقد يظن البعض ان شقاق آريوس قد انتهى عند هذا الحد والحقيقة انه بداء يستفحل الآن

وحدث ان البطريرك اسكندر تنيح بعد عودته من نيقية الى مصر باشهر قلائل وخلفه اثناسيوس الشاب التقي المملوء غيرة ونعمة وكان آريوس يعده خصما لدودا له ولذلك استحكمت عوامل الشحناء بينهما مدة عشر سنوات متوالية بسبب بدعة آريوس وبعد وفاة هذا صار العداء

(١) قد سعي بعض اعضاء المجمع النيقاوي بان يفرضوا الرهبنة على كل الاكليروس ولكن طلبهم هذا صادف استخفافا ولم يحز القبول مطلقاً حتى ان بافنوتيوس الراهب وهو اسقف مصري دافع دفاعاً مفحماً ضد هذا الاقتراح واقام الحجج القوية على كل من يعمل للتداخل في مسيحية الديانة المسيحية خصوصاً فيما يتعلق بالزواج والرهبنة

شديداً للسبب عينه بين الامبراطور وهذا البطريرك الاسكندري كما سترى (١)

الفصل الرابع عشر

البدعة والانشقاق . سنة ٣٢٦ للمسيح و٤٢ للشهداء

لما رأى الامبراطور قسطنطين ان السلام قد مدّ رواقه على الكنيسة والمملكة صرف همه الى اصلاح الشرائع الرومانية وبناء عاصمة جديدة له . وحيث ان اصلاح هذه الشرائع لم يكن له تأثير في مصر فهو لا يهمنا ولا حاجة بنا للكلام عنه اما نقل عاصمة المملكة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) فقد احدث تغييراً في حالة الامة المصرية وقد سبق القول ان المصريين كانوا دائماً يحتقرون السلطة الرومانية وينفرون منها كما انهم كانوا يهزأون بالجنس اللاتيني ويعدونه شعباً جاهلاً وثني الاصل غبياً ولكن المصريين كانوا يرضخون لهؤلاء واؤلئك لسبب القوة العسكرية المتحكمة فيهم . والذي زاد كره المصريين

(١) جاء في القانون الذي وضعه المجمع النيقاوي هذه الجملة حيث ان البعض يصلون وهم راكعين في أيام الآحاد وفي الاعياد الكبرى فقد قرر هذا المجمع المقدس ضرورة الوقوف على الاقدام حين تأدية الصلاة لكي يكون كل شيء بلياقة وترتيب »

للرومانيين حتى صار هذا الكره ضرباً من الجنون (١) هو اعمال بعض الامبراطرة التي كانت وحشية تنفر منها النفس وتستحلي الموت عن البقاء في مثل هذا الذل وهذا ما حدى بالمصريين الى النزوع للثورات وطلب الحرية والاستقلال في مدة حكم ديوكلتيانوس اما قسطنطين فمع انه كان من عائلة ملوكية الا انه لم يكن رومانياً ولا ميالا لرومية بل كان من بلاد السرب التي هي مسقط رأسه . اما امياله فكانت يونانية صرفة يدلّ لك ذلك الى ان المدينتين الواقعتين على جانبي قنطرة هلاس وهما بيزانتيوم وخلكدونية كانتا قبلا مأهولتين باليونان . ولما عزم قسطنطين على بناء مدينة جديدة اختار المكان الذي اسمه « بيزانتيوم » قاعدة لها فعند ما تم بناؤها احتفل بتدشينها احتفالا باهراً وذلك في ١١ مايو سنة ٣٣٠ م ثم امر امراً جائراً هو ان جميع الذين يقصدون استيطان هذه العاصمة الجديدة يجب ان يكونوا من اصل يوناني او مكدوني وكان ذلك بتحريض واغراء من الآخرين الذين استمالوه الى حب اليونان والانعطاف نحوهم كما مر القول . ومعلوم ان مصر كانت تؤدي جزية من الحنطة سنوياً الى رومية فلما بنيت

(١) في مدة حكم لزه مان كان من العار على المصري ان يؤدي الجزية الا بعد ان يدمي جسمه من الجلد بالسياط ويحز جلده من شدة الضرب . وقد صار المصريون على هذه الحطة في عصرنا هذا حين كانوا يعصون الاتراك ويقاومون اعمالهم فلا يرضخون الا للكرباج الذي لم يرفع عنهم الا في سنة ١٨٨٠ كما هو معلوم

القسطنطينية صارت هذه السيادة ترحل اليها لا الى رومية . وبالاجمال نقول انه لم يبق في مصر ما يدل على وجود أثر لتلك السيادة الرومانية التي استمرت مدة طويلة مستحكمة في رقاب اهليها سوى طلل واحد خرب وكلمة واحدة بقيت من آثار الكلام الروماني . اما هذا الطلل البالي فهو القلعة الرومانية السامقة التي كانت لا تزال دمنها قائمة في بابيلون ومع ذلك فلم يكن المصريون يعتقدون بان هذه القلعة رومانية بل كانوا يصدقون بانها الحصن القوي الخاص بالمسيحيين في ارض مصر وظلوا على اعتقادهم هذا اجيالا كثيرة . اما الكلمة التي كانت تدل على وجود الرومانيين في مصر فلم تكن الا اسم روماني فقط لا يعرف المصريون شيئاً عنه ولا يظنون انه روماني . ومعنى ذلك انه لما بنى قسطنطين الحاضرة الجديدة مزج اسمها باسم رومية فدعى العاصمتين رومية الجديدة ورومية القديمة ولم يتخذ لمدينته اسما خاصاً بها ولكن لم يقتف احد أثره في ذلك واطلق الناس على بيزانتيوم كلمة القسطنطينية واسطمبول وهو تصحيف في اللفظ اوجده الاجانب الا ان اسم رومية ظلّ دارجاً في الجزء الشرقي من المملكة ولم يكن يستعمل للدلالة على الرومانيين بل على اليونان والبيزانتيين وزال اسم اليونان القديم من الكلام الدارج وصاروا يلقبون بالاروام ولكن الامة اليونانية حفظت وحدتها وسلطتها في علمها ولغتها فلم يعتورها نقص ثم تدرجت الى ان عادت اليها عظمتها التي كانت لها قبل التاريخ المسيحي فمدت ظل سطوتها على

المشرق لا سيما مصر ولكن باسم « الروم » او الرومانيين وهم أولئك القوم العتاة الوثنيون الذين كان المصريون يحتقرونهم لتوحشهم وهمجيتهم ويخافون قوتهم العسكرية وبطشهم الحربي لان هذه القوة لم ير العالم مثيلا لها قبل الرومان في ابان مجدهم وعظمتهم . ولا يزال المصريون في وقتنا الحاضر ومن قبله يطلقون كلمة (روم واروام) على اليونان لا على الرومان فهم يقولون (حارة الروم) في القاهرة يقصدون بها الشارع الذي اكثر سكانه من اليونان وكذلك يسمون بطريرك اليونان (البطريرك الرومي) (١)

وبعد تاريخ المجمع النيقاوي بقليل حدث أمر محزن مريع لهذا الامبراطور الروماني اوجد فيه نوعا من الوساوس جعلته متقلب الطبع شارد الفكر طول حياته وهذا الحادث هو قتل ابنه كريسبوس وزوجته فوسطا ولهما حكاية بذيئة شنيعة نعرض عن سردها تأدبا ولكننا نأتي على النتيجة فقط وهي ان فوسطا اتهمت ابن زوجها زوراً بتهمة تنفر منها النفس الابية ثم رفعت امره الى ابيه فاحتد وحنق وتولاه مس من الجنون حتى انه أصدر امره في الحال باعدام ابنه فاعدم . فلما عاد اليه رشده قام ضميره يبكته على هذا التسرع في قتل ابنه ثم ما لبث حتى وقف على

(١) ان هذا الخلط بين اليونان والرومان لم يقتصر على مصر فقط بل تعداها الى كل القسم الشرقي من المملكة الرومانية بذات الاسباب التي شاع بها في مصر . وقد اصبح هذا الخلط عاما الان بين جميع الناطقين بالضاد كما اسلفنا

جلية الخبر وظهر له امر الخيانة التي ارتكبتها زوجته طوعا لدعي الميل الحيواني فامر بقتلها حالا لتنال جزاء ما جنته يداها فاماتها مع انها كانت زوجة له من سنين طويلة . اما اولادها فصاروا ورثة للعرش الملوكي بعد موت صنوهم (اخوهم من ابيهم)

والذي يتتبع سيرة قسطنطين فيما بقي من حياته يرى وجود ميل عنده لاضعاف الضمير وانحطاط في المبادئ.. قيل انه التمس حلا ومغفرة من الكنيسة ولعل كثرة زيارة هيلانة امه للاماكن المقدسة مرات عديدة وبناءها كنائس متعددة وتأجيلها اعماده هذا الامبراطور كلها عوامل للتوبة والحاح في طلب المغفرة عما اقترفه من الذنوب التي كانت نقطة سوداء في تاريخ حياته

ومما يجدر ذكره هنا انه لم يرد في التواريخ التي كتبت في ذلك العهد شيء عن العجائب التي قال مؤرخو هذا الزمان انها حدثت عندما كانت هيلانة تبحث وتنقب في المدينة المقدسة (اورشليم) فقد ذهب جماعة الكتاب الى ان قسطنطين بنى كنيسة ضمن كنائس اخرى في اورشليم في المكان الذي دفن فيه المسيح وان موضعها معلوم عند كل باحث ولكن لا يوجد برهان على انهم وجدوا صليباً في ذلك المكان . وقد عزى بعضهم الى هيلانة بناء عدة كنائس في القطر المصري اخصها كنائس الدير الاحمر والدير الابيض الواقعين على مقربة من سوهاج ولا ريب في ان اكثر هذه الكنائس التي شادتها هيلانة بني على اطلال كنائس قديمة العهد أودى بها الدهر اثناء الاضطهاد الاخير

وفي نحو هذا الزمن تأسست الكنيسة الحبشية وهي تعد ربيبة للكنيسة المصرية ومازالت خاضعة لها خضوعا دينياً لحد الآن . وقبل هذا العهد لم يكن للديانة المسيحية أثر في بلاد الحبشة ولو ان الحبشان يقولون بوجود صلة قديمة بينهم وبين اليهود حتى انهم كانوا يمارسون كثيراً من الطقوس والفرائض الموسوية (١) وحدث انه بينما كان البطريرك اثناسيوس جالساً في مجمع مع زمرة من الاساقفة قيل له ان رجلا غريباً وفد حالا من بلاد الحبشة يرغب في مقابلتهم فأذنوا للرجل بالدخول ولما استقر به المقام أخبره بان اسمه فرومنتيوس ومن ثم اخذ يسرد حكايته على جماعة الاراخنة الموجودين قائلا :ـ

منذ بضع سنوات مضت شرع ولي امري ـ وهو فيلسوف من صور اسمه ميروبيوس ـ في رحلة رياضية لبلاد الهند مستصحباً معه شابين من اقاربه هما فرومنتيوس (المتكلم) واخاه الاصغر واسمه ايديسيوس . وعند أوبتنا من هذه السياحة القينا عصا الترحال في احدى المواني الحبشية لكي نتزود ماء فلم نشعر الا وهجم علينا اهالي تلك البلاد لينتقموا لانفسهم

(١) توجد رواية قبطية غريبة جداً ورد فيها تفصيل الظروف التي فيها ملكة سبا (اي الحبشة) زارت سليمان الحكيم ، ماتلاها من زيارة ابنها الذي حبلت به منه لابيه سليمان . قيل انه في اثناء الزيارة الثانية انتهز ابن ملكة سبا تغافل سليمان واختلس تابوت العهد بمساعدة اربعة من الكهنة كان قد رشاهم ثم اخذه معه الى بلاد الحبشة . قال روى هذا الخبر على هذه الكيفية اخذ تابوت العهد الى بلاد الحبشة وبقي فيها الى وقت ميلاد ربنا يسوع المسيح

من بحارة في احدى السفن كان قد اساؤا اليهم فانقضوا علينا كالصواعق وذبحوا جميع الاجانب ولم ينج من يدهم الا انا واخي باعونا عبيداً للملك فلما صرنا في حوزته عين اخي نديماً له وجعلني انا كاتم سره ولبثنا عنده على هذه الحالة الى ان اعتقنا ساعة احتضاره وهو على فراش الموت . فالتمست منا ارملة الملك ان نمكث في بلادها لنساعدها على تربية اولادها الصغار فرضينا واقمنا عندهم الى ان اصبحت كل حكومة الحبشة في قبضة يدنا على توالي الايام ولذلك استعملنا كل نفوذنا في رفع شأن الديانة المسيحية في هذه البلاد . ولما جاء الزمن الذي صار فيه ولي العهد راشداً وقادراً على ادارة حكومة بلاده بنفسه فلم يبق لنا حينئذ وجه للاقامة هنالك فرحلنا من عندهم قاصدين وطننا ومسقط رأسنا اما اخي ايديسيوس فسبقني الى صور وانا عرجت على مصر لاسرد هذا الخبر على مسامع جناب البابا (لان بطريرك الاسكندرية كان يلقب في ذلك الحين بابا المشرق ولم يكن بابا رومية معروفا بهذا اللقب حينئذ) ثم التمس فرومنتيوس من البطريرك ارسال اسقف اليهم ليؤسس الارسالية في هاتيك البلاد (١)

فبعد ان استشار اثناسيوس الاساقفة في هذا الامر قر رأيهم على

(١) جاء في الرواية المصرية المشار اليها ان مار مرقس نادى بالديانة المسيحية في الحبشة كما في مصر . ويظهر من حكاية فرومنتيوس هذه انه وجد اثراً للديانة المسيحية في هاتيك البلاد عند ذهابه اليها مع الفيلسوف الصوري واخيه

تحريض فرومنتيوس بالرجوع الى الحبشة وأخذ هذا العمل على عاتقه وعليه أعطيت له رتبة كهنوتية وأعيد الى بلاد الحبشة حيثما امضى بقية حياته فيها . ولا يزال الحبشان يحترمونه ويكرمونه وهم يسمونه « ابو سلامه » او اب السلام (١)

كذلك البطريرك اثناسيوس انتز فرصة السلام والهدو هذه فجل يفتقد رعاياه ويسأل عنهم الى ان وصل في سياحته هذه لحد اصوان وكان في اصوان راهب مشهور اسمه باخوميوس هو مؤلف كتاب « قانون الرهبنة » القديم كان ضابطاً في الجيش فترك وظيفته ليصير مسيحياً بناء على الغيرة والحمية التي فيه . ففي هذه البلدة اجتمع باخوميوس هذا على راهب أقدم منه اسمه بلامون اشتهر بالتقوى والورع في البلاد المجاورة لاصوان . وكان هذان الراهبان يتحصلان على قوتهما الضروري بواسطة صنع ملابس من الشعر كان لبسها عاماً في مصر . ولم يمض زمن طويل حتى التف حولهما جمهور من العزاب وكارهي الزواج حتى صاروا فئة كبرى جاءت لمقابلة اثناسيوس عند زيارته لاصوان واحتفلت باستقباله احتفالا باهراً وتلوا فيه ترنيمات من مزامير داوود

اما ميليتيوس وآريوس فلم يكونا يرضخان لحكم المجمع النيقاوي ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية . وقام

(١) قال رومينوس المؤلف انه لم يأخذ هذا الخبر بالسماع بل تلقاه من فم ايديسيوس شقيق فرومنتيوس الذي كان قساً في صور بعد عودته من الحبشة

ميليوس الاسقف المنشق وآريوس الكاهن المبتدع يناصبان البطريرك العداء ويقاومانه بكل جهدهما حتى صار لقب ميليتي وآريوس وصمة عار في مصر يتصم بها كل من سار على رأي هذين العاصيين . والذي ساعدهما على التمادي في غيهما ميل قسطنطين الملك لمذهب آريوس وهذا الميل نشاء فيه من تأثير اتباع آريوس على ذهنه واستمالته اليهم حتى انهم اغروه ان يكتب مكتوباً لاثناسيوس يطلب فيه اعادة آريوس الى الكنيسة كما كان فرفض اثناسيوس هذا الطلب بتاتاً بحجة ان آريوس لا يزال متمسكاً ببدعته ولم يرجع عنها . فاتخذ اتباع آريوس هذا الرفض الذي كانوا يتوقعونه حجة ضد اثناسيوس واهاجوا سخط الامبراطور نحوه حتى مال لسماع التهم التي سمى يوساب اسقف نيكوميديا وانصاره لاثباتها عليه . اما التهمات التي اتهموا بها اثناسيوس فكانت تنحصر في أمرين : اولها ان هذا البطريرك شرع في ضرب ضريبة على مصر يتحصل منها على حلل بيضاء من الكتان (تواني) للاكليروس . والثانية انه مد احد ارباب الفتن والمحرضين على الثورات بدراهم . فهاتان التهمتان نقضهما اثناسيوس نقضاً وبرهن كذبهما فلم يؤثرا قط في سمعته الا ان التهمة الثالثة التي سيجيء ذكرها قد ضايقته كثيراً اذ كان يظهر عليها مسحة من الحقيقة فلم يكن من السهل دحضها حتى بالبرهان العقلي

ومبدأ هذه التهمة الثالثة هو ان قساً من الاسكندرية اسمه

كولوثس انشق من الكنيسة قبل هذه الحوادث ببضع سنوات . وسبب انشقاقه غير معروف تماماً . ثم أخذ يعين قسوساً من العلمانيين وحيث انه لم يكن هو سوى قس بسيط لاحق له في رسامة قسيسين نظيره تحاكم امام مجمع الاسكندرية فحكم عليه بالحرمان وعلى الذين رسمهم بتجريدهم من وظائفهم وصيرورتهم علمانيين كما كانوا . فقام احد هؤلاء الرجال واسمه اسخيراس واستخف بحكم المجمع ولكنه لم يمكث في الاسكندرية ليمارس وظيفته الموهومة بل سار الى قريته في اقليم مريوط وصار يجمع جمعية صغيرة في غرفة حيث لم تكن توجد كنيسة هناك . وقد بلام اثناسيوس لانه لم يرسم هذا الرجل كاهناً رسمياً ولم يعضده في بناء كنيسة مع علمه باحواله وأعماله عند زيارته لتلك الجهة في سنة ٣٢٩ تقريباً

ومع ان اثناسيوس كان عظيما كبيراً الا انه لم يعرف باتساع المدارك ورقة الاحساس كما عرف بهما البطريرك ديونيشيوس . ومما يذكر في هذا السياق أن بعض الباحثين ذهب الى ان اسخيراس المذكور كان رديء السمعة فاذا صح هذا القول كان اللوم على اثناسيوس شديداً لانه تركه وشأنه في باديء الامر ولكنه ارسل بعدئذ قساً اسمه مكاريوس يدعو اسخيراس للمثول بين يديه ويؤنب اباه على الجرم الذي اقترفه ابنه فلما وصل مكاريوس وجد اسخيراس طريح الفراش فلم يعمل معه شيئاً ولكن اباه وعده بصده عن فعله الناشذ وايقافه عند حده . فلما تماثل

اسخيراس للصحة تبع مذهب ميليتيوس وصار آلة صماء يديرونه كيف شاؤا . فالتهمة التي اتهموا بها اثناسيوس في هذا الشأن هي انه بذاته أو بايعازه الى مكاريوس هدم كنيسة اسخيراس عنوة واحرق كتبها وحطم كأس العشاء الرباني . اما اثناسيوس فبرهن على عدم وجود كنيسة هناك وانه لم يتلف شيئاً من الاشياء التي نسبوا اليه اتلافها وان ماقيل من ان اسخيراس كان يؤدي خدمة دينية عند ذهاب مكاريوس اليه فوهم باطل لان اسخيراس هذا كان مريضاً في ذلك الوقت . وبعد مضي وقت على هذه المسألة مثل اسخيراس امام مجمع حيث أقر في محضر امضاه ثلاثة عشر قساً من الاسكندرية ومريوط بان التهمة التي اتهم بها البطريرك لا اساس لها وان اليمين التي حلفها لاثباتها كاذبة وهاك نص اعترافه في المحضر المذكور : (يشهد الله أن لاعلم لي بما تقولون عن هذه التهمة التي لفقها بعضهم بل انني صرح جهاراً بعدم وجود كأس كسره احدهما أو أن شخصاً ما مد يده بسوء نحو شيء من متاع كنيسة لا معرفة لي بوجودها ولكنني أقول الحق وهو ان بعضهم اضطرني اضطراراً للاقرار بتلك التهمة الملفقة) ولما رفض اثناسيوس مسامحة اسخيراس وحله أنكر هذا الاعتراف المسطر ولم يعد يعترف به ثانية

ولم يخلص اثناسيوس من التهمات الموجهة اليه حتى قامت ضده شبهة جديدة هي انهم اتهموه باستعمال السحر والتنجيم وهي تهمة خطيرة يهتم لامرها عامة الشعب منذ القرن الرابع لحد يومنا هذا . وقد شاع

بين الناس ان اثناسيوس دس السم لاسقف من اتباع ميليتيوس اسمه ارسنيوس فاماته واستخدم جثته لغرض سحري ذني . فانتشار مثل هذه الخرافة وسهولة تصديقها عند الناس دليل على انحطاط الاخلاق وفساد الآداب في الامة من بعد ان كف عنها الاضطهاد. أما الذين ادعوا هذه الدعوى فجاؤا بدليل على اثباتها وهو يد مبتورة من جثة قالوا انها يد ارسنيوس التي فصلها اثناسيوس من جسمه . فذهل اثناسيوس عند سماعه هذا القول ورأى ان عدم دحضه هذه التهمة بالبينة القاطعة يوجد ريبة في النفوس من نحوه ولذلك انفذ شماساً الى الصعيد للبحث عن ارسنيوس وكشف جلاء الحقيقة

وقد ثبت لهذا الشماس ان الاسقف الذي قيل انه قتل لا يزال حياً يرزق وهو مقيم في احد الاديرة هناك وقبل وصول الشماس الى المكان الذي كان ارسنيوس يقيم فيه اسرع بينس رئيس الدير وارسل ارسنيوس الى صور حتى لا يعلم مقره احد الا ان الشماس تربص في طريق الدير والقى القبض على بينس وراهب آخر اسمه هلياس كان قد ذهب ليشيعا ارسنيوس ويهدياه الى الطريق التي يسير فيها ثم احضرهما هذا الشماس أمام حاكم الاقليم حيث اعترفا بما فعلاه (١)

(١) ان بينس هذا كتب الى يوحنا اركاف كتاباً غريباً في بابه يبثه فيه بان هذه التهمة لا يمكن اثباتها ضد اثناسيوس لانه معروف في كل القطر المصري ان ارسنيوس لم يزل حياً ولم يصبه مكروه من احد

أما الشماس المذكور فسار تواً الى صور للبحث عن ارسنيوس ولم يستطع العثور عليه في بادىء الامر واخيراً التقى باحد خدام حاكم الولاية وأخبره بانه سمع بطريق الصدفة في احد النوادي ان ارسنيوس مختبىء في احد منازل هذه المدينة فاقتفى الشماس آثار مخبره الذي تمكن من ارشاده الى المكان الذي كان ارسنيوس مختبئاً فيه فانكر هذا نفسه عندما رآه الشماس ولكن بولس اسقف صور عرفه به وقال انه ارسنيوس بعينه واذنه فلم يسع ارسنيوس هذا الا ان كتب مكتوباً الى اثناسيوس يلقبه فيه (بالبابا المحترم) ويظهر اسفه من الذي حدث ويسأله أن يصفح عنه ويقبله في عضوية الكنيسة

ومع أن براءة اثناسيوس ظهرت كشمس الظهيرة الا ان يوساب اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور بضرورة تحقيق التهمات الموجهة ضده أمام مجمع كنائسي وعلى رؤوس الاشهاد . وعليه تشكل مجمع في قيصرية تحت رئاسة يوسيبوس المؤرخ اسقف هذه المدينة وطلب اثناسيوس مراراً للحضور أمام المجمع فلم يعبأ بهذا الطلب ولم يذهب قط بل ظل يشتغل في تدبير مهام البلاد التي يرأسها آملا بتسوية هذه المسائل طبيعياً بدون بحث أو جدال منشأه الحمق والعناد

ولكن في سنة ٣٣٥ التأم مجمع آخر في صور وارسل الامبراطور امراً مشدداً الى اثناسيوس يدعوه للحضور فاذعن للحال وسار في موكب حافل يحيط به ثمانية واربعين من اساقفته . أما اساقفة المجمع

فقابلوه مقابلة تدلي الى الاهانة وعدم الاحترام وكانوا كلهم تقريباً من انصار آريوس واتباع مذهبه فلم يسع بوتامون احد اساقفة اثناسيوس الا استهجان هذا العمل والقاءعب هذا الخجل والخزي على كاهل يوساب اسقف صور رئيس المجمع لانه سمح للاعضاء باتيان مثل هذه الاعمال المعيبة ثم بداء يسأله قائلا (أجالس انت هنا لتحاكم اثناسيوس؟ ألا تذكر اذ كنت انا وأنت سجينين معاً لاجل الايمان فاقتلعوا عيني واما انت فنجوت من الخطر دون ان يلحقك ضرّ)

فانتهر يوساب هذا الاسقف الذي ظهرت نفحات ايمانه قديماً ووبخه على ما بدا منه من الحدة في الكلام ثم اخذ القوم في محاكمة اثناسيوس ولكنهم كانوا متفقين قبلا على الحكم عليه وكانت أول تهمة بدأوا بفحصها هي قتله ارسنيوس

فابتدرهم اثناسيوس بالسؤال قائلا (أيعرف احد منكم ارسنيوس)؟

فقال كثير من الحاضرين انهم يعرفونه من قبل . وحينئذ احضر لهم اثناسيوس رجلا ملثما بلثام يغطي كل رأسه وأمره ان يحسر عن وجهه أمام المجمع وكان هذا الرجل ارسنيوس . ثم رفع اثناسيوس طرف رداء ارسنيوس واظهر لهم يده اليمنى وانها لم تزل صحيحة موضوعة في مكانها الذي خلقت فيه ثم كشف لهم اليد الاخرى بكل سكون وتأن وخاطبهم وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير وقال : (انظروا ان للرجل يدين فاين اليد التي بترتها أنا ؛ ومعلوم ان الله خلق للانسان يدين فقط

لا ثالثة لهما)

فلما قال اثناسيوس هذا هاج الجمع وماج فانتهز يوحنا اركان هذه الفرصة وسعى للهرب لانه كان المسؤول رأساً عن صحة هذه التهمة وكذبها ولكنه عدل عن الفرار والتفت نحو أعضاء المجمع وافهمهم أن ما عمله اثناسيوس الآن انما هو دليل جديد على كونه ساحراً ماكراً ولذلك اشتد سخط القوم وزاد حنقهم على هذا البطريرك البائس الذي كان قد برهن لهم على جرأته وكادوا يفتكون به لولا ان الاميرديونيثيوس الذي كان قد انفذه الامبراطور لمراقبة هذه المضحكات المبكيات خلصه من ايديهم وانقذ حياته من العطب

أما مسألة اسخيراس فلم تزل على ما كانت عليه ولذلك تجدد البحث فيها فجاء مصر ستة من اعضاء المجمع ليعملوا تحقيقاً في هذه الحكاية الثانية وكانوا من اتباع آريوس المتطرفين وبالتالي اعداء الداء للبطريرك اثناسيوس . وكان مكاريوس قد طرح في سجن صور ولذلك عول اثناسيوس على رفع دعواه الى الامبراطور شخصياً فاستصحب معه خمسة من اساقفته وسافروا في أول سفينة اقلعت من صور قاصدين القسطنطينية والتقوا فيها بالامبراطور فجأة عندما كان خارجاً للنزهة في موكبه الحافل اما الامبراطور قسطنطين فلم يعرف اثناسيوس في أول الامر فلما عرفه هذا بنفسه رفض الامبراطور سماع دعواه متذرعاً بحجة واهية هي ان هذه المسائل كانت موضوع البحث في مجمع نظرها وحكم فيها . ولكن

اثناسيوس لم تقنعه هذه الحجة بل اعترض الامبراطور في طريقه قائلا: إما ان تأمر بتشكيل مجمع مسكوني شرعي أو ان تسمح لي بالاجتماع مع خصومي امامك ونتناقش معاً) فاقتنع الامبراطور اخيراً وكتب رسالة يدعو بها المجمع للالتئام في القسطنطينية . فلما علم الاضداد هذا اهتزوا وانزعجوا وعادوا الى ابروشياتهم خائفين وجلين ولم يلبوا دعوة الامبراطور الا يوساب اسقف نيكوميديا ورهط من الاساقفة اتباع آريوس الذين جاؤا الى الامبراطور فلم يذكروا كلمة واحدة من مسألتي ارسنيوس واسخيراس بل ابتدعوا تهمة جديدة زادت في حيرة اثناسيوس واذهلته أما هذه التهمة الجديدة فمفادها ان اثناسيوس كان يقصد منع سفر المراكب التي تأتي القسطنطينية حاملة ضريبة الحنطة وهو عمل يشبه اشهار حرب عوان ضد الامبراطور

فأنكر اثناسيوس هذه التهمة انكاراً قطعياً ولكنها كانت ملفقة ضده تلفيقاً يلبسها مسحة الحقيقة ومعلوم ان هذا الامبراطور كان شديد الغيرة على سلطته لا يطيق ما يحط بها أو يقاومها ولذلك قاطع اثناسيوس بينما كان يدافع عن نفسه ولم يتركه يتم كلامه وانتهى الامر بان نفاه نفياً موقتاً الى المكان الذي يقيم فيه ابنه الاكبر قسطنطين في تريفس شمالي جرمانيا . فظل اثناسيوس سنتين ونصفاً في بلاد لم تكتحل عينه بمرآها من ذي قبل ولم يكن بينها وبين مصر وجه شبه قط بل انه كان يتصور جرمانيا الشمالية كانها منتهى الارض وآخرها

وانها اقصى الاقاصي . وكان يصحبه في منفاه هذا واحد أو اثنان من رفاقه المصريين فلم يصرف وقته عبثاً في هذا المكان بل كان يوالي كتابة الرسائل المفيدة الى رعيته التي لعبت بها ايدي الدهر من بعده لان مدة نفيه لم يكن للسلام اثر في مصر ولم تكن مصر تعرف الراحة والوئام وسبب ذلك آريوس وحكايته الذي انكر ما عزي اليه في المجمع الاورشليمي المقدس وعاد لايمانه الاول فضم الى الكنيسة ثانية وأمر بالبقاء في الاسكندرية ولكنه لم يكف عن سعيه المعتاد من ايجاد انقسام وشقاق في هذه المدينة التي لم يهدأ لها بال فأعيد منها ولم يسمح له بالبقاء فيها طويلا . ومن الاسباب التي أوجدت الكدر والقلق في مصر هو تهيج المصريين وتحرك عواطفهم الوطنية لاجل نقل عادياتهم القديمة العديمة المثال الى مدينة قسطنطين الجديدة (القسطنطينية) واخذ مسلاتهم السامقة لتزيين هذه العاصمة وتجلية رونقها وزيادة عظمتها بواسطة الآثار المصرية . كذا العنصر الوثني من سكان مصر غضب وسخط عند نقل مقياس النيل من هيكل سيرابيس الى احدى الكنائس المسيحية ومن عهد نقله صار القسوس المسيحيون يؤدون خدمة عيد وفاء النيل بدلا من كهنة الوثنيين . وكان من بين الذين التمسوا من الامبراطور التداخل في مسألة اثناسيوس وحسم مشكلة مار انطونيوس الذي ترك ديره بناء على طلب اثناثيوس له وقدم الى الاسكندرية ليكرز فيها ضد بدعة آريوس ويحذر الناس من اقتفاء اثره فلما توسل الى الامبراطور ليفض الخلاف

الذي بينه وبين اثناسيوس لم يرض هذا الامبراطور وذهب سعي انطونيوس ادراج الرياح . وكانت النتيجة ان يوساب اسقف نيكوميديا اقنع الامبراطور بقبول آريوس جهاراً في كنيسة القسطنطينية في يوم احد يعين لهذه الغاية وان يحتفل بدخوله فيها احتفالا باهراً يدل على فوزه على خصومه وان يبتدئ سير موكبه من قصر الامبراطور الى كنيسة الرسل . فعارض اسكندر اسقف القسطنطينية هذا الرأي واحتج عليه ولكن معارضته لم يكن لها تأثير فان القوم استعدوا لهذا الاحتفال استعداداً باهراً لم يسبق له مثيل ولكن السعد لم يخدمهم هذه المرة ولم يتمتعوا بهذا الفرح ذلك لانه في يوم السبت السابق ليوم الاحد المعين للاحتفال ركب آريوس مع رهط من اخصائه وخرج بموكبه من القصر الملوكي وسار في اهم شوارع المدينة يميس خلالها ويستلفت انظار الشعب الى الاحتفال العظيم الذي سيقام له في الغد وكان بعمله هذا كمن يدعو الناس لحضور ذلك الاحتفال فلما وصل الى الميدان المعروف بميدان قسطنطين باغته مرض عضال يشبه اعراض الكوليرا الشديدة الوطأة عند ما تكون في اقوى حالاتها فجيئة فقل راجعاً وانزوى خلف هذا الميدان بينما كان ذلك الجمهور المزدحم ينتظره بفروغ صبر وقد كثرت بينه الاقاويل والاراجيف عنه ولم يكن كليح البصر حتى شاع خبر موته الفجائي وتناقلته الالسن واثبته واحد أو اثنان من الذين شهدوه شهادة العين وذعرا من ذلك المنظر المفزع الذي وقع امامهما وما رأياه من آريوس ساعة الحشرجة من الضيق والكرب

فعلى هذه الكيفية المريعة قضى آريوس نحبه وهو زعيم تلك الفئة التي كانت تلقب نفسها آريوسية وكان الاحرى بها ان تقول انها ناكرة الوهية المسيح مقاومة لمن يؤمن به كاله - مات هذا الرجل ميتة الاشرار مع انه كان متصفاً باحسن الصفات الادبية الا انه بالنسبة لظروف ذلك الزمان واهواله كان قادراً ان يلحق بالديانة المسيحية ضرراً عظيما لا يستطيع اتيانه اكثر الناس شراً وخبثاً . وقد امتاز اتباعه بمزية ممقوتة هي انهم كانوا أول مسيحيين اضطهدوا المسيحيين اخوانهم

وفي سنة ٣٣٧ اتم قسطنطين بناء الكنيسة الكبرى في القسطنطينية التي دعاها كنيسة الرسل الاطهار ودشنها وكان يقصد ان يلحد فيها بعد موته . وكأنه شعر بدنو اجله فانه كاد يتم بناء هذه الكنيسة حتى خارت قواه وأخذت صحته تنحط انحطاطاً ظاهراً فعمد الى العماد من يوساب اسقف نيكوميديا ثم فاضت روحه في يوم احد العنصرة من سنة ٣٣٧ . وكان قبل موته اقام خمسة قياصرة تحت امرته وهم اولاده الثلاثة وابني أخيه وقسم المملكة بينهم كما يأتي : قسطنطين ابنه الاكبر اخذ بريطانيا واسبانيا وفرنسا وقسطنطينوس اسيا وسوريا ومصر وقسطنس ايطاليا وبلاد المغرب (افريقيا) ودلماطيوس ايليريكوم (بلاد اليونان) وهنيبال ارمينا وبنطس الا أن هنيبال هذا لم ينل لقب قيصر بل لقب ملك فقط

وبعد موت الامبراطور قسطنطين هرع قسطنطينوس ابنه الثاني

وجاء القسطنطينية سراعاً وكانت له يد قوية في جمع الحوادث التي وقعت فيما بعد . وكانت الجيوش قد أعلنت صراحاً بعدم قبول ملك عليهم من غير ابناء قسطنطين ولذلك حدثت مذبحة عظيمة ذبح فيها كثيرون من ذرية قسطنطينوس الاول الذين ولدوا له من امرأته الثانية تيوضورا . وكان بين الذين اكلهم السيف دلماطيوس وهنيبال وخمسة آخرين من ابناء اخوة قسطنطين وحنواه (ابنا ابيه) ووزيره الخاص ابلاقيوس وواحد أو اثنان من المقربين اليه ولم يبق من العائلة المالكة سوى ابناء الامبراطور وابني حنوه يوليوس قسطنطينوس وهما غالوس الذي قيل وقتئذ انه مشرف على الموت والصبي يوليان الذي نجاه من العطب اسقف مسيحي

وبعد هذه الحوادث المريعة التقى ابناء قسطنطين الثاني في سيرميوم واعادوا تقسيم المملكة فيما بينهم فاستولى قسطنطين الثاني على الجزء الغربي من المملكة أو هو شمالي اوروبا واخذ قسطنطس الاجزاء المتوسطة وهي جنوبي اوروبا اما قسطنطينوس الثاني فصار امبراطور مصر وباقي الشرق برمته

فلما استتب الامر لقسطنطين الثاني طلب الى أثناسيوس البطريرك ان يعود الى كرسيه وكان قد اخذه معه الى فيميناشيوم وهو مكان حدده الثلاثة امبراطرة ليجتمعوا فيه فقرر رأيهم على ارجاعه الى بلاده فعاد هذا البطريرك الى الاسكندرية في شهر نوفبر سنة ٣٣٨ حينما قابله الشعب باحتفال حافل ابدى فيه من السرور والشكر مالا يوصف

ولما رأى الاساقفة الذين من شيعة آريوس ان اثناسيوس قد عاد واستقر في مكانه كما كان لم يهدأ بالهم بل قاموا يدبرون طريقة أخرى ينزعونه بها من على كرسيه ما دام ان التهمات السابقة لم تؤثر فيه الا كما يفعل الماء في الصخر المتين . وقد ساعدهم على ذلك ميل الامبراطور قسطنطينوس اليهم لانه كان آريوسياً فجّاً حتى انه عين يوساب اسقف نيكوميديا (١) بطريركاً في القسطنطينية رغماً عن هياج الشعب وعدم رضاه بهذا البطريرك . وكان اعتراض جماعة آريوس على رجوع اثناسيوس هو ان في عودته خدشاً للقوانين الكنائسية واهتضاماً للمباديء الكهنوتية لانه عاد الى كرسيه بدون تصديق قانوني يصدر من مجمع كنائسي عام يشكل لهذا الغرض وقالوا ان الكرسي الاسكندري يعتبر بدون بطريرك طبقاً لهذا المبدإ ثم اخذوا يبثون الدسائس ليتخبوا رجلاً اسمه بسطس بطريركاً للاسكندرية مع انه كان من ضمن القسوس الذين حرمهم البطريرك اسكندر عند ما حرم آريوس لاجل بدعته وقد ارتأى هذا الحزب الآريوسي رأياً هو انهم اذا اغووا اسقف رومية الذي لا يعرف شيئاً عن بسطس على التداخل في هذا الامر والسير خلف غرضهم قد يقوى جانبهم ويشتد ازرهم به وعليه انفذوا

(١) ان يوساب هذا نقل من مركزه مرتين — الاولى من بيروت الى نيكوميديا والثانية من نيكوميديا الى القسطنطينية مع ان نقل الاساقفة في ذلك الوقت كان ضد القانون الكنائسي

ثلاثة قسوس الى رومية كبعثة للغاية السالفة الذكر . فلما وصل الخبر الى توليوس اسقف رومية كتب خطاباً سلس العبارة الى اثناسيوس يخطره فيه بهذا الامر فارسل اثناسيوس رسلاً من قبله الى يوليوس مزوّدين بادلة تثبت ان سعي القوم في ترشيح بسطس للبطريركية لم يصادف نجاحاً ولم يلق قبولاً حتى عند اصدقائه الاخصاء. وكان رسل اثناسيوس قد حملوا معهم الى رومية قراراً مجمعياً من كنيسة مصر امضاه اكثر من مائة أسقف مصري برهنوا فيه على براءة اثناسيوس وطهارة ذيله وقالوا في رسالتهم هذه ان الغرض الوحيد الذي يرمي اليه اتباع يوساب هو تعميم بدعة آريوس ونشرها في مصر .

وبناء على ذلك اقترح يوليوس اسقف رومية تشكيل مجلس للنظر في هذه المشكلة فصادق الطرفان على هذا الاقتراح وقبلوا به . ولكن حدث في سنة ٣٤٠ ان قسطنطين الثاني الذي كان نصيراً لاثناسيوس وظهيراً قوياً له قتل في مناوشة حربية وبعد موته اصدر الوالي فيلاغريوس امراً رسمياً اوضح فيه لكنيسة الاسكندرية خبراً ساءها وهو ان بسطس لا يعين بطريركاً بل ان رجلا اسمه غريغوريوس من معية الملك قسطنطينوس اختير ليكون بطريركا للاسكندرية بدل اثناسيوس اما غريغوريوس هذا فسقط رأسه مدينة كبدوكية ولكنه رضع البان العلوم في كلية الاسكندرية ولاقى من اثناسيوس كل عناية واكرام وقت تلمذته . ولم يكن هذا الرجل قد حرم كغيره لاجل بدعة

آريوس ولكن كاتم سره آمون كان قد حرمه البطريرك اسكندر لذات السبب الذي حرم لاجله بسطس .فلما تعين غريغوريوس بطريركاً بدأت الاضطرابات تسري في الاسكندرية وقامت المشاكل والزعازع وكثرت جمعيات التحريض وكان منها جمعية كبرى التأمت لتحتج على هذه المعاملة التي عومل بها اثناسيوس وكان التآمها في كنيسة القديس قورينوس (١)

فلما راى فيلاغريوس الوالي هذا وكان صديقاً لغريغوريوس ومواطناً له حرّض قوماً من سفلة الوثنيين وحرافيشهم - وقيل انه قادهم بنفسه - لكي يهجموا على الكنيسة التي اجتمعت فيها هذه الجمعية .فاندفع هؤلاء الزعانف الى اقدس الاماكن واجلها واحرقوا كتب الكنيسة وطردوا منها تلك الجمعية بعد ان اوسعوها سباً وشتماً تأبي الآذان سماعه ثم نهبوا خزائن الكنيسة وامتعتها وقتلوا بعض الرهبان بينما كانوا يذودون عن حوض الكنيسة ويدافعون عن اشياءها

اما اثناسيوس فكان في ذلك الحين يأوى الى صومعة في كنيسة القديس ثيوناس فلما علم انه هو المقصود بالذات خاف على الكنيسة من وجوده داخلها لئلا يلحق بها ضرر من الاعداء فانسحب من الاسكندرية وخلا الجو لغريغريوس فدخلها بعد اربعة ايام من سفر اثناسيوس دون ان يلق مقاومة من احد كل هذه الحوادث وقعت في الصوم الكبير

(١) يحتمل ان يكون هذا القديس هو قورينوس اسقف سيثيا التابعة لمقاطعة ايابربكوم وكان قد نال الشهادة في ايام ديوكليانوس

وفيه اصاب اهالي الاسكندرية المساكين اضطهاد شديد من هذا الاسقف الذي اهتضم حق غيره قسراً

أما قسوس الاسكندرية فحجر عليهم تعميد احد أو زيارة مريض أو ممارسة أي عمل من وظائفهم . ولم يأت يوم الجمعة الكبيرة حتى حدث هياج جديد وذلك عند دخول غريغوريوس الكنيسة بموكبه الحافل اذ تصدى له هذا الشعب المحتدم غيظاً وابتدره بعبارات السب والاهانة فرفع غريغوريوس دعواه الى صديقه الوالي الذي اهتم بالامر كثيراً والقى القبض على نحو اربعة وثلاثين وجيهاً من الذين كانوا حاضرين في الكنيسة وجلدهم بالسياط جلداً عنيفاً وكان منهم اصحاب الحيثيات والاعتبار واكثرهم نساء مكسورات الجناح بلا عضد ولا سند وفي هذه الاثناء برز محضر آخر امضاه الوثنيون واتباع آريوس فقط وفيه يتهمون اثناسيوس تهمات تمسه لاهميتها فصمم هذا البطريرك الاسيف على الذهاب الى رومية آملا بانعقاد ذلك المجمع الكنائسي الذي اقترحه يوليوس . فلما وصل اثناسيوس رومية تلقاه يوليوس بكل تجلة واكرام وانفذ كاهنين من قبله يدعوان المجمع للالتئام وحدد له شهر دسمبر من تلك السنة . وكان يوليوس في ذلك الوقت يلاطف اثناسيوس ويرجوه البقاء عنده فقبل اثناسيوس ذلك لعلمه بان وجوده بالاسكندرية في هذه الظروف لا ينتج عنه خير واخذ يبذل قواه في ابعاد الافكار الشريرة عنه التي كانت تساوره وتقلقه وقد قال عن نفسه في ذلك الوقت « لما

عرضت مسألتي على الكنيسة وهي بغيتي التي كنت ابتغيها لم اترك في ذهني شيئاً يشغلني عن خدمة هذه الكنيسة التي هي جلّ مرامي» وكان بمعيته في رومية كاهنان من مصر وهما آمونيوس احد رهبان دير النطرون وايسداروس . وقد أثرت اقامة آمونيوس في رومية تأثيراً سيئاً في احساساته الاصلية فقد قيل انه لم يعجبه بناء في ابنية رومية الذائعة الصيت سوى بناء كنيستي مار بطرس وبولس (١) الذي شرح صدره كثيراً وحول نظره من مصر الى رومية . ولكن بقاء اثناسيوس - بابا الاسكندرية في رومية اوجد مبداء في الكنيسة اللاتينية (الكاثوليكية) لا يزال فيها الى الآن

وبيان ذلك ان القوم هنالك كانوا يصغون بكل ارتياح الى كلام اثناسيوس عن الرهبنة ونظامها في مصر فصادف هذا القول منزعاً في نفوس الغربيين فزاد شوقهم الى الرهبنة ورغبتهم في العزوبية . قال جيبون المؤرخ « ان اثناسيوس ادخل الى رومية مبدإ الرهبنة ونظامها ولكن يصعب على العقل ان يتصوّر صحة هذا القول حرفياً او ن يصدق عدم وجود رهبان في رومية قبل مجيء اثناسيوس اليها اما اثناسيوس فقد ظل في رومية ثمانية عشر شهراً وهو ينتظر الفرج القريب من الله ويترقب وجود مخرج له من كربته التي كان فيها

(١) ان آمونيوس هذا هو اكبر الاخوة الذين اشتهروا بطول قامتهم وسيأتي الكلام عنهم عند ذكر ما جرى في مدة حكم ثاوفيلوس

الفصل الخامس عشر

غريغوريوس وجورجيوس من كبدوكية

سنة ٣٤٠ للمسيح و٥٦ للشهداء

في نحو الزمن الذي قتل فيه قسطنطين الثاني - وربما قبله ببضعة شهور - مات اشهر رجال ذلك العصر واحد المؤرخين العظام وهو يوسيبوس اسقف قيصرية الذي اخذنا عنه كما نعرفه الآن عن الثلاثة قرون الاولى للكنيسة المسيحية . وكان الرجل في بادىء امره ميالاً للانحياز الى جانب آريوس عند استفحال ذلك الانشقاق المحزن الذي اتينا لك على شرحه في ما مرّ ولكنه عاد فاقتنع بحكم المجمع النيقاوي وسار على جادّة الصواب التي قرّرها هذا المجمع سيراً مرضياً . وقد كان يوسيبوس هذا صديقاً حميماً لقسطنطين الكبير ومحبوباً عنده حباً يقرب من العبادة فكان يثق بعلمه وفضله وعهد اليه في آخر سنيه بعمل تآليف ادبية ذات شأن . ومما يستحق الذكر من اعمال هذا العلامة ان النساخ الاسكندريين كتبوا تحت مراقبته خمسين نسخة من الكتاب المقدّس اخذها قسطنطين ووزعها على الكنائس الكبرى التي كان قد بناها وكرّسها كما عرفت . ولم تبق ولا نسخة واحدة من هذه الكتب الثمينة لحد الآن ولكننا لا نيأس فقد يأتي يوم فيه تظهر ولو واحدة منها في أحد القبور المصرية او في كهف او جحر نسج عليه العنكبوت خيوطه فتزيلها ايدي الباحثين المجتهدين

كذلك علماء الوثنيين في مصر كانوا في ذلك العهد من اكثر الناس اجتهاداً في تحصيل العلوم واشتغالا بالتأليف والتصنيف ولم يزل بين ايدي علماء هذا العصر كتاب من تأليف عالم وثني مشهور هو اليبيوس الذي وضع مصنفاً في فن الموسيقى تتداوله الايدي الى الآن ولا تزال تطرب من نغماته الآذان وكذلك زميله ايمبليكوس الذي عدّ مع اليبوس من اشهر انصار الفلسفة الافلاطونية وناشري تعاليمها في الاسكندرية . وقد وضع اخيليوس طاطيوس كتاباً نفيساً في علم الفلك وهو علم كان يعشقه المصريون ويرغبون فيه كثيراً هذا عدا عن روايات اخرى خيالية صنفها هذا الرجل تلذ قراءتها جداً وقد صار اخيليوس مسيحياً فيما بعد وزعم كثيرون انه تعين أسقفاً . ومن الكتاب الذين نبغوا في علم الهيئة (التنجيم) هيفستن من طيبة (الاقصر) كتب نبذة اظهر فيها تأثير عدة كواكب في منطقة البروج على امزجة الناس . وتقسيمه لمنطقة البروج يطابق التقسيم المرسوم على سقف هيكل دندرة (قنا)

وقد عرفنا فيما سبق ان غريغوريوس جلس على السدة البطريركية بالاسكندرية ونقول الآن ان مافتىء يعيث فساداً في هذه المدينة ويعمل أموراً تنفر منها الطباع الشريفة حتى انه اضطهد عمة لاثناسيوس الى ان ماتت وعند موتها سعى جهده ليحرمها من الدفن في مقبرة المسيحيين . وقد اتهمه بعضهم بالتهام صدقات الارامل وهي تهمة رمي

اثناسيوس بها ولذلك لم يعبأ بها احد. وحدث ان غريغوريوس هذا برح الاسكندرية ليسوح في داخلية البلاد فما كاد يظعن ركبه حتى تفاقم الشر وازداد الخطب استفحالا وكان من افظع المسائل ان الاساقفة الذين ابوا الاعتراف برئاسته عوملوا معاملة خشنة قاسية . خذ لذلك مثلا الراهب بوتامون الذي عرفنا انه كان مع اثناسيوس في صور وكان بين الثلثمائة وثمانية عشر عضواً في المجمع النيقاوي وهو رجل تشوّه جسمه وتحطمت اضلعه في اضطهاد ديوكلتيانوس — هذا الراهب الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً جلده شخص يقول انه أسقف مسيحي جلداً عنيفاً حتى مات بعد ضربه بايام قليلة وعدّ بين الشهداء الاطهار . ولما طرقت هذه الامور مسامع مار انطونيوس وهو منزو في ديره بالجبل كتب كتاباً شديد العبارة وبعث به الي غريغوريوس يعنفه فيه ويلومه على تعطرسه فعند ما أخذ غريغوريوس الجواب ضرب به عرض الحائط بعد ان مزقه

وقد مضى شهر دسمبر الذي حدده يوليوس اسقف رومية لالتئام المجمع ولم يلتئم وفي شهر يناير عاد الكاهنان اللذان ارسلهما الاسقف المذكور ليدعيا اعضاء المجمع وبيدهما مكتوب من الاساقفة الآريوسيين فيه كل عبارات الاساءة والطعن فطلب الكاهنان من اسقف رومية بروح المحبة المسيحية التي تأمر باحتمال الاساءة حباً في صالح الآخرين — ان لا يقرأه ولا يعلم بما حواه فرضي الرجل وظل ينتظر حضور بعض الاساقفة اليه والامل

مل نؤاده بفض هذا المشكل . ولكن جماعة آريوس عكسوا الغرض فانهم
بدل ان يذهبوا الى رومية لعقد المجمع هناك عقدوه في انطاكية عندما ذهبوا
ليها لحضور الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت فيها وكان عددهم نحو
سعة وسبعين اسقفاً التأموا في هذه المدينة وقرروا بعض امور منها تأييد الحكم
بحرمان اثناسيوس وتجريده من وظيفته . فلم يكتف يوليوس بحكم هذا المجمع
لا اقتنع به بل شكل مجمعاً آخر في شهر نوفمبر من السنة ذاتها مؤلفاً من
يف وخمسين اسقفاً ففحص التهمات الموجهة ضد اثناسيوس فحصاً دقيقاً
وأخيراً حكم ببراءته جهاراً عندما اتضحت له تماماً . ولكن هذين المجمعين
ختلفا في وجهتهما فلم يهتم احدهما بما قرره الآخر وعليه مكث اثناسيوس
ي رومية ولم يؤثر الرجوع الى الاسكندرية خوفاً من حدوث قلاقل
جديدة تنشأ من عودته اليها مادام غريغوريوس موجوداً فيها . وفي سنة ٣٤٣
نشرح صدر اثناسيوس عندما بلغه ان الامبراطور قسطنطين عزم على تشكيل
مجمع كبير يجمع اليه اساقفة الشرق والغرب معاً فذهب اثناسيوس الى ميلان
بايطاليا) حيث تقابل مع قسطنس مقابلة خصوصية وحينئذ سار ليرى
لاب الجليل هوسيوس اسقف كردوفا . أما المجمع فانتظم عقده في جزيرة
سرديكا في اواخر سنة ٣٤٣ وبعد حجاج ولجاج طالا واستطالا انسحب منه
الاساقفة الآريوسيون مغضبين دون ان يبدوا رأيهم في هذه المسألة . وكان
أهم مبداء قرره هذا المجمع هو ذلك القانون المشهور القاضي برفع المشاكل
المعضلة الى كرسي رومية للنظر فيها ومن ذلك الحين ورومية تدعي الاسبقية

والاولوية على باقي الكراسي الاخرى وهي دعوى لم يقر بها البطاركة ولا
قباتها أهم الكنائس في القسطنطينية والاسكندرية

أما قسطنطينوس فهاج غضبه وحنق كثيراً لسبب الفشل الذي لحق
بحزبه ولم يرضخ لحكم المجمع قط ولذلك عول على ايجاد مصائب جديدة
في ارض مصر فاصدر اوامره الى حكام الاسكندرية بقطع رأس اثناسيوس
اذا هو تجاسر وعاد الى كرسيه ثم نفى خمسة من القسوس الذين ينتمون
اليه وكثيرون منهم اختبأوا في البراري والقفار فراراً من اضطهاد اتباع
آريوس لهم . اخيراً في سنة ٣٤٤ ظهرت دسيسة دنيئة دبرها البطريرك
الاريوسي الانطاكي ضد احد القسوس الابرياء فساء اعتقاد قسطنطينوس
في هؤلاء المبتدعين وشاح بوجهه اعراضاً عنهم بل بداء يميل نحو اثناسيوس
ويعطف عليه . وفي شهر فبراير سنة ٣٤٥ مات غريغوريوس في الاسكندرية
فتمهد السبيل امام اثناسيوس للعودة الى مكانه ولكن لعدم ثقته في
قسطنطينوس تمهل اكثر من اللازم وبقي الى شهر اكتوبر سنة ٣٤٦ حتى
عاد الى وطنه بعد كل هذا الغياب الطويل . وقد اسهب غريغوريوس
النزينذي في وصف الاحتفال الذي اقامه الشعب عند استقبال بطريركه
المحبوب وكيف ان القوم توافدوا من جميع انحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم
للقائه وكانوا يتسلقون الجدران ليمتعوا انظارهم برؤيته وقد عبق الهواء برائحة
البخور العطرية الذي كان يتصاعد من المجامر فيزري بنشر الخزام . وعندما
جن الظلام صارت المدينة شعلة من نار اكراماً لتشريفه وفرحاً بعودته البهية

وقد استهل هذا البطريرك رسالته التي نشرها في عيد القيامة لسنة ٣٤٧ بتقديم الشكر لله والحمد لاسمه تعالى لانه من عليه بالرجوع من هاتيك البلاد القاصية ثم ختمها ببيان عن الاساقفة الذين رسمهم حديثاً والاماكن التي عينوا فيها

مرت على اثناسيوس ومصر ثلاث سنوات ذاقوا فيها طعم الراحة والسلام وكان لدى هذا الحبر عمل كثير لرعيته التي لعبت بها ايدي الشتات من بعده فعين ديديموس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بعد ان رسم عدة اساقفة كانت رسامتهم أول عمل بداء به . وكان ديديموس هذا كفيف البصر وذلك لانه اصيب بمرض في عينه - ربما رمد صديدي حاد - وهو في الرابعة من عمره ويستنتج من ذلك انه لم يتعلم كغيره من الاطفال حتى ولا مبادىء القراءة البسيطة الا ان رغبته في الحصول على العلم كانت شديدة جداً ازالت من امامه كل حائل في هذا السبيل فلم يثن عزمه الفقر والعوز ولا صده اغضاء الغير عنه واهمالهم أمر تربيته بل اخذ يهذب عقله ويقوي ذاكرته الى ان اتسعت مداركه وصارت قريحته وقادة تحير الالباب . وكانت عنده الحروف الابجدية محفورة على الواح من الخشب وبواسطتها تعلم القراءة بواسطة اللمس وبرع فيها . قال سقراط عنه انه بهذه الطريقة تعلم النحو والمعاني والبيان والفلسفة والمنطق والرياضة وفن الموسيقي - استوعب كل هذه العلوم استيعاباً كاملا متيناً حتى انه كان يستظهر على مناظريه الذين درسوا هذه العلوم نفسها من الكتب الخاصة بها وكان يفحمهم بالادلة القاطعة ويقهرهم اذا حمي

وطيس الجدال بينهم في امر غامض . فطار صيته في الافاق وبلغت شهرته السبع الطباق قبل ايام اثناسيوس بكثير حتى ان مارانطونيوس الناسك بحث عليه كثيراً عند مازار الاسكندرية عقيب الاضطهاد وقيل انه خاطبه بالعبارة الآتية : (اسمع يا ديديموس . لا تكن خسارة بصرك الجسدي سبباً في احراج صدرك . فانك ولو حرمت من حاسة البصر التي منحت حتى للبعوض والذباب كواسطة للشعور بها ما دام لا شعور عندها غير البصر فحري بك ان تفرح لان لك عينين كأعين الملائكة تبصر بها الروحيات بل بواسطتهما ادركت الاله نفسه وسطع نوره امامك فازاح دياجير الظلام عن عيني قلبك فاستنرت) . قال سقراط ايضاً ان ديديموس كان يعتبره الناس حصناً متيناً وسنداً قوياً للديانة المسيحية حتى قبل ان يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يعد خصماً عنيداً كسر شوكة اتباع آريوس واذلهم في مناظراته معهم . وله مصنفات عديدة لم يبق منها في عالم الوجود سوى اربعة فقط . ولقد قلنا في الذي سبق ان اخلاق الامة انحطت وآدابها تغيرت من بعد اضطهاد ديوكليتيانوس ولك دليل جديد على ذلك هو اعتقاد الكنيسة في اوريجانوس العظيم بانه كان منحرفاً عن جادة الحق لا يمتاز عن اهل البدع والهرطقة الا قليلا وهذا برهان على سوء الفهم وضعف الادراك لا برهان بعده . فلما رأى العلامة ديديموس ان هذا الاعتقاد شاع بين الكنيسة نشر شرحاً ضافياً لكتاب اوريجانوس المسمى « المبادي المهمة » ابان فيه خطأ الذين يعتقدون هذا الاعتقاد في اوريجانوس وان ظنونهم هذه انما هي تخرفات

اوهام لا طائل تحتها ثم قال · «ان الذين يتهمون اوريجانوس بالابتداع هم عديموا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الغامضة التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من النوابغ المشهورين» · اما هذا الكتاب الذي وضعه ديديموس فلم يبق له اثر · ولما رأس ديديموس المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع انحاء العالم المتمدن وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيروم الشهيران وكانا حينئذ في شرخ الشباب ليتلقيا العلوم والمعارف في الاسكندرية على يد هذا النابغة الخطير الذي كان يلقب «بالاعمى البصير»

وغريب في مصر أم العجائب ان الراحة والسلام لايدومان طويلا فيها وهذا شأنها من قديم الزمان · ففي فبراير سنة ٣٥٠ قتل قسطنس في ثورة بداء بها مغنطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة كلها بعد اخويه · ومعلوم ان قسطنطينوس هذا كان ينفر من اثناسيوس ويعرض بانفه عنه ولذلك داخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات هذا خصوصاً وان الواشين ضده اخذوا يمنون عليه ويدسون له الدسائس بعزم جديد · ففي شهر مايو سنة ٣٥٣ استحسن ارسال خمسة اساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه مما عزي اليه سابقاً · وكان مع هؤلاء الاساقفة سيرابيون اسقف ثمويس(١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لايغرب عن الاذهان وجود مدينتين قديماً بهذا الاسم في مصر ويؤخذ من بعض استدلالات ان هاتين المدينتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

وقد قال بعض المؤرخين ان سيرابيون هذا كان رئيساً للمدرسة اللاهوتية اما قبل ايام البطريرك بطرس او بعده فاذا صح ذلك فيكون الرجل قد مات شيخاً وشبعان من الايام · اما رئاسته للمدرسة فلا يبعد ان تكون صحيحة ولو انه كان شاباً فتياً في ذلك الوقت فانهم كانوا يسندون هذه الرئاسة في اوقات الاضطهاد حتى الى الشبان بصفة موقتة كما كان الحال مع اوريجانوس الذي وجد في هذا المنصب وهو في سن المراهقة كما علمت · وقد كان سيرابيون هذا عالماً متضلعاً وكاتباً ماهراً وصديقاً وفياً لاثناسيوس ولذلك ارسله مع من ارسله في هذه البعثة الى قسطنطينوس التي لم تصادف نجاحاً فان هذا الامبراطور احتال في اوّل الامر على اثناسيوس ليعيده الى اوروبا ثانية فلما خاب مسعاه شكل مجمعاً في اراس فاصدر هذا المجمع احكاماً ضد اثناسيوس · ولذي يحصي المجامع التي عقدت في مدة حكم قسطنطينوس يجدها اكثر من عشرة عدا عن مجلسين في ريمي وسلوشيا وكان سبب التئام هذه المجامع كلها المناقشات والمجادلات بين اثناسيوس وجماعة آريوس · وكان قسطنطينوس يعد نفسه رأس الكنيسة في الامور الروحية كما هو رئيسها في الامور الزمنية وانتحل لذاته حق السلطة على باباوات واساقفة المملكة بامرها وهي دعوى لم يدّعيها ابوه الاكبر ولا فكر فيها · وقد كتب اميانوس مرسيلينوس المؤرخ الوثني شذرة عن هذا الامبراطور يقول فيها

ان الديانة المسيحية واضحة بسيطة سهلة المأخذ ليس فيها شيء من

الاعجاز الا ان قسطنطينوس شوّه جمالها بخرافات عجائزية واوجد فيها شقاقاً بواسطة احزاب متعددة وُجدت لتبحث ابحاث غريبة لا طائل تحتها وقوّى عزمها هذا الامبراطور على الاختلاف بدلا من التوفيق بينها بماله من السلطة والنفوذ فعمت هذه الاختلافات جميع الاصقاع وزادانتشارها تلك المجادلات الشفاهية التي كانوا يتناقشون فيها باغراء الامبراطور نفسه حتى انه ابطل البريد واعطى خيوله لجماعة الاساقفة يذهبون بها الى المجامع ويجيئون بناء على دعوته اليهم ليصادقوا له على توحيد السلطة ووضعها تحت يده »

وفي مدة الصوم الكبير لسنة ٣٥٤ كانت كنائس الاسكندرية تزدحم بجمهور المعلمين ازدحاماً شديداً ضجر منه الشعب وعليه التمس اهالي الاسكندرية من اثناسيوس ان يؤدي خدمات العيد الكبير في كنيسة سيزاريوم الكبرى (اي كنيسة القيصر) وكان قد تمّ بناءها فقط ولم تدشن فتردد اثناسيوس في الامر لعلمه انه اذا عمل هكذا يفتح لاعدائه باباً جديداً للاعتراض عليه لان كنيسة سيزاريوم هذه كانت مبنية على اطلال القصر المسيحي سيزاريوم (اي قصر القيصر) وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانيين وكان لم يزل ملكا خاصاً بالامبراطور ما لم يسلم نهائياً الى الكنيسة ويصير تحت تصرفها فاذا صلى اثناسيوس في هذه الكنيسة فيكون قد اهان مليكه واحتقره اذا هو وضع يده على الكنيسة قبلما تعطى له زد على ذلك ان تأدية

خدمة العيد الكبير في بناء غير مكرّس يعدّ مغايراً للقوانين الكنائسية واخيراً قبل اثناسيوس على غير رضى منه وضد ضميرة وصلى في هذه الكنيسة فأعتبر هذا ذنباً جديداً له . وفي سنة ٣٥٥ أعيدت محاكمة اثناسيوس في مجمع شكل في ميلان وذلك بعد لدد وخصام شديد بين اربعة اساقفة قاموا للدفاع عنه وبين الامبراطور الذي اشتد غضبه لان القوم انكروا عليه سلطته الشخصية ومقدرته على معاقبة اسقف رأى ان يعاقبه بنفسه بدون قانون . وقد ردّ عليه الاساقفة واغلظوا له في المقال حتى قالوا له انهم لم يكونوا هنالك ليدرأوا له غلطته التي ارتكبها ثم اخبروه بصريح اللفظ قائلين « ان اثناسيوس بصفته بطريركاً لايحاكمه الامبراطور بل الاساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنائسية والاوامر الامبراطورية »

فاجابهم الامبراطور وهو ممتلىء غيظا (ان ارادتي هي القانون)

وفي شهر اغسطس من هذه السنة جاء احد كتبة الامبراطور الى الاسكندرية وحاول ان يخرج اثناسيوس منها بصفة غير رسمية ولكنه لم يفلح . وفي يناير سنة ٣٥٦ وفد سريانوس وهو قائد اسطمبولي ومعه احد رجال الامبراطور المسمى هيلاريوس وطلبا من اثناسيوس شفاهياً ان يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود امر رسمي من الامبراطور بيدهما وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الاكليروس والشعب له تعضيداً تاماً ولذلك اقسم سيرنافوس برأس الامبراطور امام والي مصر ومحافظ

الاسكندرية بان لا يعمل شيئاً ضد اثناسيوس ما لم يصله امر من مولاه

وبعد مضي ثلاثة اسابيع بينما كان البطريرك اثناسيوس في كنيسة مارتيوناس يؤدي صلاة نصف الليل وهي صلاة يتحتم على المصريين آداؤها دائماً ـ حدث هرج ومرج خارج الكنيسة عندما سمع وقع اقدام عساكر احتاطت بها تحت قيادة الجنرال سيرنانوس وهيلاريوس وغورغونيوس رئيس الشرطة . فلما علم اثناسيوس هذا خاطب جماعة الحاضرين ورجاهم ان لا يهربوا هرباً يوجب الخجل والريبة ولا ان يقاوموا هذه القوة بالقوة

وقد كتب اثناسيوس بعد ذلك يصف هذه الحادثة قائلا (اما انا فجلست على الكرسي (١) الخاص لي واوعزت الى الشماس ان يتلو المزمور ١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قائلين (لان رحمته تدوم للآباد) وحينئذ حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا

ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جداً طرق العساكر جميع

(١) كان كرسي البطريرك يوضع دائماً خلف المذبح متجهاً نحو الشعب وذلك في الكنائس المصرية وهذا الكرسي عبارة عن فتحة في الحائط ـ مثل القبلة في الجامع ـ وفي هذه الفتحة حجر مرتفع يجعل الشعب قادراً ان ينظر الجالس عليه بسهولة

الابواب (١) طرقاً عنيفاً عند ما كان الشماس يرتل مزمور الحمد والشكر هذا حتى ان دق الابواب كان يعرف في آذان الشعب الذين كانوا مشتغلين بالصلاة والعبادة وكانوا يعجبون لهذا الطارق ليلا . ولما كان الشعب يرد على الشماس بهذه العبارة (لان رحمته تدوم للآباد) فتحت الابواب قهراً ودخلها الجيش الروماني وهو يصيح صياح النصرة والفوز كمن افتتح مدينة قوية وكانت سيوفهم مشهورة في ايديهم تلمع في شعاع سرج الكنيسة المنعكسة عليها . فاندفع العساكر في الكنيسة كالسيل الجارف وهرعوا قاصدين البطريرك الذي وقف وامر الشعب بالفرار بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد ان يعترض العساكر في طريقهم فذبحهم العسكر وداسوهم تحت اقدامهم عند ما كانوا يركضون نحو ردهة الكنيسة للقبض على الفارين . وقد الح القسوس على اثناسيوس بالفرار ولكنه أبى ذلك لعلمه الاكيد بانه ما دام موجوداً امام أولئك الذين يسعون خلفه ليقتلوه فهم يكتفون به ولا يبحثون عن الآخرين بل يتركونهم وشأنهم حيث ان لا علاقة لهم معهم . وقد كتب اثناسيوس فقرة في هذا الصدد يقول فيها : (قلت في نفسي اني لا اهرب حتى ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور ان يصلوا الصلاة الاخيرة وحينئذ اشرت اليهم بالانصراف حالا . ولما انصرف اكثر الشعب جاء

(١) كانت جميع الكنائس المصرية في ذلك الحين كانها حصون ومعاقل وفيها كلما يحتاج اليه في وقت الضيق

الرهبان مع الذين تخلفوا من القسوس وحملوني خارجاً)

وبينما كان جماعة الاكليروس يحملون اثناسيوس هجم العساكر هجمة قوية على الكنيسة حتى أغمي على اثناسيوس من شدة الخوف ولكن القسوس تمكنوا من اخراجه خلسة لان النور كان قد ضعف وكاد يطفي وكان الجند يضج ويرغي ثم حاصر كرسي البطريرك الموجود بالهيكل ولكنه كان خالياً لان البطريرك هرب والتجأ الى مكان امين اختبأ فيه قبل ان يعرف اعداؤه بفراره من ايديهم . ففاز اثناسيوس بالنجاة في الظلام الحالك ولطالما كان الظلام ستراً تجري خلفه خير الاعمال وشرها

وقد ظل اثناسيوس في كمينه مدة ست سنوات وهو ينتقل من مكان الى آخر لان رجال الامبراطور كانوا يبحثون عنه ويبثون العيون والارصاد عليه في انحاء القطر المصري . والذي يتصور حالته وقت فراره حين اكفهرّ وجهه واغبرّ لونه واسترسل شعره منسدلا على ظهره يجده شبيهاً بابطال الروايات الخيالية التي نقرأها الا ان اثناسيوس هذا كان بطريركا ورعاً شرد من وجه اعدائه وليس مجباً وامقاً هائم يبحث عن من يحبه . وكان يقتات بخبز الفلاحين الناشف الغير مختمر واذا عطش اغترف من ماء النيل براحتيه واذا انهكه التعب واخناه السفر جلس على قطعة حصيرة رثة أو افترش الثرى وتوسد التراب

وكانت أحسن الايام عنده ان يجلس مع جماعة النساك البسطاء

في دير وادي النطرون او في طيبة (الاقصر) حيث يتمتع قليلا بضوء الشمس لانه كان يصرف اكثر اوقاته مختبئاً في نفق مظلم في الارض او منزويا في احد القبور القديمة المهجورة ولم يترك مغارة او وهدة الا وانكمش فيها ولم يدع غاراً او ديراً او قرية الا وشرفها بزيارته وصرف فيها وقتاً ثميناً من اوقاته هارباً من اعدائه ومبغضيه . ولا يوجد برهان يدل على عظمة هذا الرجل وحسن نواياه مثل حبه في افادة الآخرين اثناء هذه السنوات الست التي ذاق فيها من الصعوبات مالا يحده العقل وقاسى فيها من الاتعاب والمصائب ما تنوء تحته اعناق الرجال ولكنه مع كل ذلك لم يقطع علاقته مع الكنيسة يوماً واحداً ولا اغفل امرها طرفة عين . ولو انه لم يظهر لاحد كل هذه المدة الطويلة الا للذين كانوا يعتنون به الا انه ما فتيء يكاتب الاساقفة ويبعث بالرسائل والاوامر الى كنيسته التي كانت تعتبر اوامره نافذة المفعول كما لو كانت صادرة منه وهو جالس على السدة البطريركية في الاسكندرية وقد كتب عدة خطابات اما لمؤمن حزين يحتاج الى التعزية او لحائر مرتبك تعوزه النصيحة والارشاد عدا عن تآليف ادبية في أهم المباحث افاد بها ابناء ذلك العصر الذين كانوا في حاجة شديدة الى مثل هذه الابحاث المفيدة . وكان عمره في ذلك الحين ستين سنة ولذلك لم يكن له رجاء في العودة الى حالة الراحة والامن كما ان الاخبار التي تصله من البلاد كانت مما تنقبض منها الصدور وتتقصم لسماعها الظهور ولكنه

كان دائماً يظهر علائم الفرح والسرور . ومن المؤكد انه في مدة فراره هذه كتب دفاعاً (١) عن نفسه بعث به الى قسطنطينوس وكتب ايضاً يعتذر عن هروبه والاسباب التي الجأته اليه . ثم انه وضع منشوراً ارسله للرهبان في مبادي، هامة وسطر خطاباً لصديقه الحميم سيرابيون اسقف سيوس واعظم عمل أتاه في هذه المدة كان ذلك الكتاب المهم المتضمن مقالات سابغة الذيول ضد آريوس واتباعه

ولما ضاقت الحيل باثناسيوس خطر على باله ان يرفع دعواه بنفسه الى الامبراطور قسطنطينوس ولكنه عاد فرأى ان هذا الرأي سقيم لا ينتج فائدة . فانه بعد ان شرع القوم في قتل اثناسيوس داخل اسوار كنيسة ماريثوناس ولما لم يفوزوا بغرضهم اشاعوا في الاسكندرية بان اسقفاً من المتمذهبين بمذهب آريوس كبدوكي المولد قادم ليتولى مسند الرئاسة على كنيسة مصر بدل اثناسيوس وكان اسم هذا الاسقف جورجيوس (٢) وقد قيل عنه انه قبل تعيينه في الوظائف الكهنوتية

(١) ليعلم القاري، الكريم ان كلمة «دفاع» هذه لا تؤخذ حسب معناها الدارج الآن في انها خطابات تتضمن المدافعة او الاعتذار عن الخطأ . بل ان لهذه الكلمة معنى آخر هو انها كانت تستعمل للدلالة على نبذات محكمة الوضع محتوية على حكم وامثال ومواعظ شتى

(٢) ان تشابه اسمي غريغوريوس وجورجيوس ولانهما من كبدوكية اوجد خلطاً بينهما حتى لم يقدر البعض على تمييز هذا من ذاك . اما الاخبار المسطورة عن جورجيوس في هذا المتن فلم تكتب هنا الا بعد فحص دقيق في مؤلفات كثيرة اثبت صحتها تماماً

كان سمساراً خادعاً ومقاولاً محتالاً في القسطنطينية ولكنه كان أيضاً عالماً معدوداً . وقد جرت عادة رجال الكنيسة المصرية ان يجعلوا تعيين البطريرك في الصوم الكبير فقط ولذلك عينوا هذا الصوم المقدس لوسامة هذا الرجل الذي جاء ليغتصب الكرسي البطريركي اغتصاباً حتى انه بعد وصوله للاسكندرية بقليل بدأت نار الاضطهاد تحتدم فيها لتحرق كل من يسير على غير رأي هؤلاء المتاة وكان بين الذين ذاقوا مرارة هذا الاضطهاد سبعة عشر اسقفاً قال عنهم اثناسيوس انهم نفيوا نفياً وعوملوا معاملة قاسية شديدة حتى ان بعضهم مات في الطريق قبل ان يصل الى منفاه وبعضهم مات بعد وصوله بقليل وبالاجمال فان اكثر من ثلاثين اسقفاً مصرياً صار طردهم ونفيهم من البلاد حتى اختفت آثارهم بالمرة ولم يقف لهم أحد على خبر . وقد لمح اثناسيوس الى الاعمال التي اتاها جورجيوس فقال : —

« لم ينته اسبوع العيد حتى كنت ترى العذارى الفتيات يطرحن في السجون اضطهاداً وتعذيباً وكان العساكر يربطون الاساقفة بسلاسل واغلال ويجرّونهم في الشوارع وكان اعوان جورجيوس يدخلون مساكن الايتام والارامل عنوة واقتداراً ويسلبون مافيها . وكانوا يدفنون المسيحيين احياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا اصبح الصباح نهبوا مافيها بدون مقاوم . ولم يقتصر هذا الشر على الاكليروس فقط بل ان اقاربهم كانوا في خطر لا لذنب بل لانهم

اقربائهم . ولم يقتصر هؤلاء المضطهدين على هذه الفظائع بل تجاوزوها كثيراً وتمادوا في غيهم وعتوهم لدرجة اوجبت نفور الشعب واشمئزازه من هذه الحالة حتى ان أعضاء الكنيسة لم يطيقوا تأدية الصلاة فيها بعد عيد الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لانهم كرهوا الصلاة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم الغاشم بكره الشعب له حرّض خدمه ضابطاً من الشيعة المانوية اسمه سباسيان فسار نحوهم في نفر من الجند مسلّح بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا الشعب العفيف في يوم الرب المبارك الذي قدّسه لعبادته لا لقتل الانفس البريئة . فلما وصل الى المقبرة لم يجد الاّ رجالاً يعدون على الاصابع لان اكثر الناس كانوا قد عادوا الى منازلهم عند ما مال النهار فلم يرحم هؤلاء البائسين الابرياء بل أعمل فيهم الصارم البتار وبرهن بعمله هذا على قسوة وعتو وجدا في مثل هذا المتوحش اللئيم . وبعد ان أودى بالرجال حوّل نظره نحو اولئك العذارى الطاهرات فاضرم ناراً تأجج سعيرها وأدناهنّ منها وهددهن بالاعتراف بمذهب آريوس والانحياز اليه اماهنّ فلم يلنَ عن اعتقادهن ورفضنَ طلبه هذا كما انهن احتقرن النار وحسبنها اماء زلالاً فلذلك اشتد حنق هذا الوحش الضاري عليهنّ فجردهن من ثيابهن وظل يضربهن على الوجوه حتى تغيرت سحنتهن ولم يكن أحد يعرفهن فيما بعد . فلقد القى هذا الضابط القبض على نحو أربعين رجلاً وجلدهم بالسياط جلداً تقشعر منه الابدان وترتعد

لهوله القرائص وذلك بان مزق ظهورهم بمصي خضراء قطعت من النخل بشوكها حتى ان بعضهم عملت له عملية جراحية لاخراج الشوك من لحمه وبعضهم لم يحتمل العذاب والالم فمات من شدة الضرب أما الذين عاشوا بعد هذه المصائب فنفيوا الى الواحات الكبرى البحرية بما فيهم واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العاتي يسمح لاقارب الموتى باخذ جثث موتاهم ولكن لما تعهد له هؤلاء الاقارب بعدم الاحتفال بموتاهم والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المعتادة لهم اذن لهم أولئك القساة بدفنهم كما وافق اغراضهم حتى يخفوا عن أعين العالم دلائل قسوتهم وغلاظتهم التي لم تخف بل ظلت ظاهرة في بطون التواريخ الى الآن . وعلى خطة الجهل والعمه هذه سار أولئك المجانين سيراً لم يؤثر في أهل الايمان الصحيح تأثيراً يذكر لان أصدقاء وأقارب الذين ماتوا في هذا الاضطهاد كانوا يفرحون ويطربون لان اخوانهم بقوا محافظين على ايمانهم الى ساعة موتهم ولو انهم أسفوا واستأوا لعدم التصريح لهم بدفن جثثهم وهو عمل يدل على منتهى الفظاظة والخشونة في صدور الفجار الذين تجردوا من الانسانية فاصبحت أعمالهم واضحة عند جميع الناس

وكانت السنون تمر سراعاً وهذا البطريرك اثناسيوس هائم على وجهه لا يقر له قرار وهو كل يوم يتصدع خاطره بسماع الاخبار المحزنة منها ان هوسيوس أسقف كردوفا صديقه المحبوب صادق في سنة ٣٥٧ على مذهب آريوس وأقر على بدعته وذلك لانه كان قد اضناه اضطهاد

ثقيل اضعف عقله وكاد يفقده الادراك والشعور ولكنه لم يلبث حتى عاد اليه رشده وسطع نجم حذقه قبل موته فاسترد ما عمل وتاب عن هذه الهفوة التي ارتكبها في ظروف صعبة الا ان اثناسيوس تأثر وانفعل من هذا الفعل حتى كان كأن سهما حاداً نفذ كبده خصوصاً اذ تلاه فرار ليبريوس اسقف روميه في سنة ٣٥٨ وكان هذا صديقه أيضاً . وفي سنة ٣٥٨ و٣٥٩ و٣٦٠ انعقدت ثلاثة مجالس آريوسية اسهب اثناسيوس في كيفيتها وأعمالها اسهاباً مفصلا وذلك في نبذة له عن مجامع ارمينيا وسلوشيا أظهر في كتابتها ما عهد فيه من الصبر عند اشتداد الاذمة واحتمال الضيق بنفس راضية وسلاسة الطبع ورقة الجانب التي فاق بها الاوائل والاواخر ومن الاسباب التي احزنت قلب اثناسيوس وأحرجت صدره وصول نباء اليه بنعي مارانطونيوس الناسك الذي كان من أحسن الاصدقاء له وأقوى سنيد يشتد به أزره . والذي زاد غمه وكدره انه في سنة ٣٦١ بلغه ان وثنياً أصبح حاكماً للعالم المتمدن بعد ان اختفت آثار هؤلاء الموحشين ومعنى ذلك ان قسطنطينيوس مات وعقبه يوليانوس الكافر الملحد

أما يوليانوس هذا فلم يكن مسيحياً مع انه تربى تربية مسيحية والذنب في ذلك كله على الذين كانوا مسؤلين عن الكنيسة التي صارت بواسطة اهمالهم وشقاقهم مهملة حتى كادت تبعد عن الصبغة المسيحية كثيراً ومعلوم ان قسطنطينيوس ابن عم يوليانوس هذا كان امبراطوراً مسيحياً

ومع ذلك فقد بدأ حكمه بان ذبح جميع أقاربه كلهم ولم يبق منهم الا يوليانوس نجى من الموت رغماً عن ارادة قسطنطينيوس الذي لم يكن يعرف انه سيخلفه على سرير المملكة . ومع ان يوليانوس هذا كان قد تعين قيصراً في سنة ٣٥٥ وهو في الرابعة والعشرين من عمره الا انه لم تكن له سلطة قط في هذه الاثناء بل كان كسجين تحت تصرف الحكومة وسبب ذلك أن أوغسطس زميله كان ذا نفوذ وسلطة بواسطة تحريضه الجيش على تعضيده والسير خلفه وهذا عمل لم يكن يعرفه قسطنطينيوس في حياته ولذلك ظل يوليانوس ينكر الديانة المسيحية مدة من الزمن ولكنه لم يجاهر بارائه هذه الا قبيل موت ابن عمه قسطنطينيوس حينما اطرح برقع الحياء واذاع بانه وثني قح وأشهر ذلك جهاراً حتى انه ادى رسوم الديانة الوثنية من ذبح الذبائح للاصنام واجراء باقي فرائضها وتقاليدها وكانت المدينة التي يهواها قلبه ويجنح لسكناها مدينة باريس التي لم تكن معروفة قبل ايامه بل هذا أول عهدها بالتاريخ . وهو رجل عزب ماتت امرأته بدون عقب فلم يكن له بنون أيضاً . وقد رقي يوليانوس العرش الامبراطوري في شهر نوفمبر سنة ٣٦١ وصرف أول ايامه في اتمام بعض نظامات ضرورية في القسطنطينية . وفي عشية عيد الميلاد حدث شغب عنيف في مدينة الاسكندرية أوجده الوثنيون الذين كانوا في ذلك الحين معتزين بقوتهم مغترين بجاههم وكان قصدهم من هذا الشغب الايقاع بثلاثة رجال تكرههم العامة وتنفر منهم الخاصة وهم جورجيوس

وديودورس ودرا كونتيوس وذلك لان جماعة الوثنيين ظلوا مدة طويلة وهم حانقين ومتغيظين من هؤلاء الثلاثة . أما ديودورس هذا فكان مسيحياً ذا ثروة طائلة ومركز خطير في الاسكندرية وحائزاً لرتبة (كونت) من لدن المملكة الرومانية ويحتمل انه يوناني النزعة ولو انه مصري الموطن وكانت وظيفته في ذلك الحين مراقبة البناء في كنيسة سيزاريوم الكبرى التي لم تكن قد تمت بعد ولكنه كان قد جرح احساسات المصريين واغاظهم في انه قطع خصلة الشعر الطويلة المدلاة على جوانبها اما بشخصه أو ربما استعمل سلطته ونفوذه في اجبار تلامذة الاسكندرية على هذا العمل . اما غديرة الشعر هذه فكانت تستعمل في أيام حكم الفراعنة وعند ابان صولتهم ومجدهم للدلالة على ابن الملك او ابنته واستعملها البطالسة اشارة الى ان حاملها من أصحاب المراتب العالية والرتب الرفيعة وفي ذلك العهد كان يلبسها كل من يفاخر بنسبته الى المصريين ويقول بانه من سلالة اولئك العظام المشهورين

اما درا كونتيوس فاغاظ الوثنيين عند ما كان مديراً للضربخانة المصرية وذلك لانه نقل مذبحاً وثنياً وجده في دار صك النقود . وقد زادت التهمات ضد البطريرك جورجيوس اكثر من كل الذين سبقوه كما انها كانت غريبة في مبناها ومعناها فضلا عن كونه شدد النكير على جميع المسيحيين الذين يؤمنون الايمان الصحيح ويبتعدون عن كل بدعة حتى انه ضايقهم ضيقاً شديداً – كذلك ابعد عنه قلوب الاحزاب

الاخرى بواسطة طمعه الاشعبي وجوره الذي لا يطاق . من ذلك انه اسخط جماعة الاسكندريين في انه اغرى الامبراطور بفرض عوائد املاك على جميع منازل المدينة كما انه احتكر لنفسه استخراج النطرون والملح وسعى في نفي زينو وهو طبيب وثني طائر الصيت في الاسكندرية ثم انه اغوى ارطميوس (١) والي مصر على مهاجمة هيكل سيرابيس العظيم وهو اقوى حصن وثني بواسطة ثلة من الجند شاكي السلاح ثم جرد هذا الهيكل من التماثيل الموجودة فيه ونزع عنه كل حلية وزينة ازدان بها . واخيراً فكر في احتكار وظيفة « الحانوتية » حتى انه لم يكن يسمح بدفن جثة مالم يحملها رجال عينهم هو لحمل الموتى لغرض الربح القبيح . وكان قبيل ذلك في شهر اغسطس سنة ٣٥٨ ان عامة الناس في الاسكندرية هجموا على كنيسة مار ديونشيوس حينما كان يسكن جورجيوس في احدى قبابها وكانوا يقصدون اغتياله فاسرع الحرس الامبراطوري لانقاذه من ايديهم وبعد معركة شعواء بين الطرفين انقذوه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ولذلك اضطر ان يترك الاسكندرية في شهر اكتوبر من السنة نفسها لان خطر الموت كان يتهدد حياته فيها ولم يعد الى هذه المدينة الا بعد ارفضاض مجمعي ريميني وسلوشيا (٢)

(١) لاجل هذا السبب ولاسباب أخرى مهمة قطع بوليانوس رأس ارطميوس هذا

(٢) قرر مجمع سلوشيا باغلبية الاراء ابعاد جورجيوس وكثيرين من الاساقفة الى اماكن بعيدة عن مراكزهم ولكن هذا الحكم لم ينفذ ولم يعبأ اولئك به

في نحو شهر نوفمبر سنة ٣٥٩ . وقد ذكر اميانوس المؤرخ الوثني ان جورجيوس هذا كان يتهدد الناس بقوله لهم انه قادر ان يؤذيهم بالنفي والابعاد عن الوطن وبعد مضي سنة أخرى من عودته الى الاسكندرية بلغ هذا البطريرك الجبار منتهى السطوة والقوة ووصل به من الغطرسة والخيلاء الى اهانة الحزب الوثني اهانة قاسية نلخصها لك فيما يأتي : —

ذلك انه كان يوجد مكان في الاسكندرية أهمل أمره وتغاضى القوم عنه مرة من الزمن حتى اصبح بؤرة اقذار مع انه كان قبلا هيكلا للوثنيين حيثما قدمت فيه الذبائح البشرية ونحر ابن آدم على مذبحه اكراماً للاله متراس أحد آلهة المصريين القدماء وكان الامبراطور قسطنطينيوس قد وهب هذا المكان الخرب الى كنيسة الاسكندرية ولذلك صمم اوديوس حينئذ على بناء كنيسة فيه فكان لا بد له من ازالة ما فيه من الاوساخ والاتربة المتراكمة في ساحته فلما شرع في ذلك اكتشف العمال هوة عميقة جداً ملاى بجماجم البشر ورفات الادميين مما أظهر للناس فظاعة الطقوس الوثنية وشناعة هذه الديانة التي كان المتدينون بها يؤدون فرائضها في هذا الموضع . وقد اغتنم جورجيوس هذه الفرصة لتشهير الوثنية وتقبيح أعمال الوثنيين وعليه رتب موكباً حافلا بالمسيحيين طاف به كل المدينة وهو رافع الجماجم والرموز الوثنية التي وجدها في ذلك المكان . فزاد ضجيج القوم وعلا صياحهم سيما وهم من ثمالة المورد وزعانف الشعب الذين كانوا يهرعون الى الشوارع للتفرج على هذا الموكب

ومما زاد الخطب تفاقماً ان عقلاء الوثنيين استاؤا جداً من هذا العمل ولذلك لم يوقفوا اولئك الرعاع عند حدهم أو يمنعوهم عن الاعتداء والهياج . وقد ضاق الخناق عند مابلغ القوم فجأة ان سفينة قدمت من القسطنطينية تنعي الامبراطور قسطنطينيوس وتنبيء بتبؤ يوليانوس الكافر كرسي المملكة . فانتشرت هذه الاخبار في الاسكندرية انتشار النار في الهشيم فانفجرت حدة الوثنيين كالبركان الهائج وجعلوا يرغون ويزبدون كمن بهم مسة من الجنون ثم هجموا على موكب المسيحيين بسرعة البرق الخاطف وجعلوا يصيحون بصوت واحد قائلين « تباً لك ياجورجيوس » ثم امسكوه هو وديودورس ودراكونتيوس وكادوا يعدمونهم الحياة في تلك النقطة لولا ان بعض متشرعي الوطنيين تداخل في الامر فمنهم من قتلهم واكتفوا فقط بطرح ذلك البطريرك الشقي في السجن مع رفيقيه وتأخر انفاذ الحكم عليهم بضعة أيام . وكان خبر ارتقاء يوليانوس قد عرفه الناس في نحو ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١ ولذلك بقي البطريرك والاثنان اللذان معه في السجن مدة اسبوع أو اسبوعين دون ان يحاكموا لان القضية لم تكن قد رفعت عليهم ولأن جلوس امبراطور جديد قد يؤخر سير القضايا ويؤجلها اكثر ولكن هياج الوثنيين وازدياد سخطهم لم يعرف له اول من آخر . فلما جاءت عشية عيد الميلاد المار ذكرها عظم هذا السخط وصار شغباً يعسر اخماده فهجم على السجن جماعة من سفلة القوم وهم يهرون كالكلاب وجرّوا الثلاثة رجال واخرجوهم خارجاً وهم

يضربونهم بالعصى ويرفسونهم بارجلهم رفساً عنيفاً. وقد وصف يوليانوس نفسه هذا العمل بقوله « ان الشعب مزّق أحد الرجال الثلاثة ارباً ارباً في اقل من لمح البصر ففعلوا في هذا فعل الكلاب في الجثث » . وقد خلطوا لحم جورجيوس بعظمه ثم وضعوه على جمل وربطوا جثتي رفيقيه بحبال وطافوا بهم في انحاء المدينة ليعكسوا الاحتفال الذي عمله المسيحيون ضدهم ويحقرون نتيجته واخيراً احرقوا الجثث على شاطىء النهر وذرّوا رمادها في الماء وهذا العمل بعد نهاية الاهانة التي يهين بها المصري جثة الميت

وعلى هذه الصورة المعكوسة انتهت حياة جورجيوس بطريرك الاسكندرية وهو الذي خلطه جيبون المؤرخ بعد أربعة عشر قرناً مع مار جرجس زعيم الكنيسة الانكليزية واعظم شهيد في المشرق . وقد اتضح في فصل سبق ان هذا الخلط بعيد عن التصور لا يحتمله العقل ولا يقام عليه دليل بل ان الصحيح هو الذي ذكرناه لك دون غيره . ومع ذلك يحتمل ان تكون شيعة آريوس قد اكرمت جورجيوس هذا بعد موته وشادت له كنائس كرّستها باسمه ولكن هذا لا يثبت كونه مار جرجس بطل الشهداء وعميد القديسين

الفصل السادس عشر

أوبة اثناسيوس ووفاته . سنة ٣٦١ للمسيح و١٧ للشهداء

لما بلغ يوليانوس خبر قتل جورجيوس أرسل هذا الامبراطور جواباً

غريب المعنى الى الجمعية الوثنية في الاسكندرية يدل ظاهره على انه يؤنبهم ويلومهم لاجل الجرم الذي ارتكبوه بقتل جورجيوس ورفاقه ولكن يفهم من باطنه أنه يشجعهم على هذا العمل بدل أن يفرض قصاصاً عليهم يكون رادعاً لهم عن غيهم والدليل على ذلك العبارة الآتية التي ختم بها يوليانوس جوابه هذا حيث قال: —

« لقد كان من حسن حظكم أيها الاسكندريون ان ارتكبتم هذا الذنب القبيح في مدة حكمنا فعاملناكم معاملة ودية أخوية حتمها علينا حبنا واحترامنا لجماعة الآلهة واكرامنا واجلالنا لاسمي جدنا وعمنا اللذين دعي بهما علينا وهما اللذان حكما مصر بما فيها مدينتكم الزاهرة . ولكن لا يغرب عن افهامكم ان سلطتنا لا تحتمل الضيم لنفسها وان حكومتنا هذه التي لها مالها من الحول والطول لا يمكنها أن تتغاضى عن مثل هذه الدعارة الفائقة الحد ولا تسمح بسريانها بين رعاياها الآمنين ولكنها تداوي سوء الخلق هذا بكل طرق العنف والقسوة بواسطة أدوية ناجعة فعالة . ولكننا بناء على الاسباب التي ذكرناها آنفاً نتصرف في مسألتكم الحاضرة تصرف الطبيب العاقل الدمث الطباع بان نكتفي بتوبيخكم على ما ارتكبتموه وتحذيركم من العودة لمثله مرة أخرى كما اننا نستعمل معكم أنواع العلاج التي نعرف انها ملائمة لطبيعتكم لعلمنا انكم لستم فقط ابناء أولئك اليونانيين العظام بل انكم ما زال يتمثل امامكم ما كان لاسلافكم من صفات المجد وآثار السؤود . وعليه ارجو اذاعة هذه المبادىء

والافكار بين اخوتنا سكان الاسكندرية »

ولا ريب في ان يوليانوس كان شديد التمسك بدينه الوثني غيوراً على عقيدته غيرة كادت أن تقوده الى اثارة اضطهاد ضد المسيحيين لو لا انه شعر ان مثل هذا الاضطهاد قد يوجد رباطاً متيناً بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم وتعدد مذاهبهم فيقومون ضده مرة واحدة وان هذه العصبة القوية في ظروفه الحرجة تلك قد تفقده ملكه بل حياته اذ لا قدرة له على مقاومتها ومناجزتها وعليه اكتفى باصدار أوامر كثيرة التضايق في سبل التربية والتعليم والضغط الشديد على العقول مما أعاق عمل الكنيسة وعطل سيرها عطلة تدعو الى الاسف كما انه من الجهة الاخرى ضرب شيعة آريوس التي كانت قد قويت ضربة قاضية كادت تجهز عليها وذلك لانه أصدر أمراً بارجاع جميع الاساقفة الذين نفاهم قسطنطينيوس الى كراسيهم واعادة أملاكهم التي سلبتها الحكومة اليهم. ومن أحسن المآثر في تاريخ هذا الامبراطور الوثني رد اثناسيوس وكثيرين معه ومنحه ما كان له قبلا من السلطة والمكانة وكان ذلك في شهر فبراير سنة ٣٦٢ وعاد معه اسقفا فرسيلي وكالاريس من أوروبا وكانا قد نفيا الى طيبة. أما أسقف كالاريس فسار تواً الى انطاكية ولكن أسقف فرسيلي بقي في الاسكندرية ليحضر انعقاد المجمع الذي شكله اثناسيوس عقيب عودته من منفاه ولم يحضر هذا المجمع سوى عشرين أسقفاً من بين كثيرين كانوا تحت رئاسة اثناسيوس في أيامه الاولى قبل

أن تتوالى عليه المصائب والنكبات. وقد قرر هذا المجمع أن يقبل في عضوية الكنيسة كل الذين يقبلون قانون الايمان الذي قرره المجمع النقاوي وذكرناه قبلا وذلك منعاً لما عساه ان يحدث من شقاق قديم مر وانقضى وايقافاً لسير شحناء تتولد من مباحثات ومماحكات فارغة لاطائل تحتها. أما هذا البطريرك فلم يكد يتنفس الصعداء من هول النفي والاضطهاد حتى عادت الاهوال تترى عليه وتنصب المصائب تباعاً فوق أم رأسه فان يوليانوس الذي أعادة من منفاه عاد فغير رأيه من نحوه ونوى الشر لاثناسيوس (١) لعلمه بان الديانة الوثنية كادت تطمس آثارها وتعفو رسومها ما دام هذا البطريرك موجوداً في الاسكندرية. وقد بلغ من نخوة يوليانوس انه لم يعتبر اثناسيوس نداً له يناصبه العدوان بل انه احتقره وازدرى به ولكنه ما لبث حتى حنق وسخط سخطا شديداً لما علم ان البطريرك المذكور لم يكد يلقى عصا الترحال في الاسكندريه حتى أقدم على تعميد بعض السيدات اليونانيات اللائي كن وثنيات واعتنقن الديانة المسيحية وعليه أصدر أمراً قاطعاً بنفي اثناسيوس من الاسكندرية حالا بحجة ان

(١) كتب يوليانوس مرة الى والي الاسكندرية يقول: مع انك تهمل كثيرا في ان تكتب لي عن مسائل متعددة وانا اغضي عن هذا الاهمال الا انه كان يتحتم عليك ان تخبرني عن تصرفاتك مع اثناسيوس عدو الآلهة وكاره الاوثان وانت تعلم حقيقة مقاصدي ضد هذا الرجل التي اخبرتك عنها من زمن مضى. وعليه فانني اقسم بالاله سيرابيس العظيم انه ان لم يبرح اثناسيوس الاسكندرية — بل القطر المصري في اوائل شهر دسمبر فاني اغرم جميع موظفي حكومتك غرامة قدرها ١٠٠ رطل ذهب قصاصاً لهم. واعلم اني بطيء العقاب ولكني بطيء العفو والصفح

العفو الامبراطوري لم يشمله أو ان حالته لا تنطبق على منطوق هذا العفو

فسمع اثناسيوس هذا الامر في شهر اكتوبر سنة ٣٦٢ وحينئذ أسرع لمقابلة أصدقائه وتعزيتهم على فراقه لهم وكانت عيونهم تهمع بالدموع وكادت قلوبهم تتمزق من هول الوداع الذي لم يعرفوا نهايته ومن ثم ابحر اثناسيوس في النيل قاصداً الانحاء القبلية . وقبلما ابتعد كثيراً جاءه خبر بطريقة سرية ينبئه ان عمال الحكومة يقتفون أثره ويجدون في طلبه للايقاع به وهم على مقربة منهم ولو انهم غير ظاهرين له لانهم كانوا في منعطف من النهر يخفيهم عن العيون . فلما علم اثناسيوس بذلك أوعز الى رجاله وهو بغاية الرصانة والتعقل ان يديروا دفة القارب الذي كان فيه ويرجعوا الى الوراء ثم سار تواً لملاقاة السفينة التي أنفذتها الحكومة خلفه فلما اقترب منها ناداه الرجال الذين فيها وطلبوا معرفة ما اذا كان اثناسيوس في هذا القارب أم لا فاجابهم هو بنفسه قائلا (هو ذا اثناسيوس قريب منكم) وفي أقل من لمح البصر غاب قاربه عن أعينهم فسار الى شيرو حيث القى مرساه فيها ومنها قصد منفيس (جيزة) براً ومكث فيها ريثما كتب الرسالة السنوية التي كانت تكتب في العيد وترسل الى جميع الكنائس وحينئذ سافر قاصداً طيبة ليختبيء فيها مرة أخرى . وبقرب مدينة هرموبوليس التقى اثناسيوس بثيودورس رئيس دير طنبسى (١)

(١) ان دير طنبسى (ومعناه مدينة ايزيس) هو غالباً الدير المعروف الآن بالدير الابيض على مقربة من سوهاج

وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالا باهراً اضاء فيه السرج الوهاجة والمصابيح المضيئة كانه يستقبل ملكا ظافراً لا بطريركا منفياً بائساً . فمكث اثناسيوس مدة من الزمن في هرموبوليس وانطينو واعظاً بكلمة الخلاص متمما واجباته بغاية النشاط والامانة كما لو كان سائحاً يفتقد رعية لا هاربا من وجه أعدائه . ولما انتصف فصل الصيف بلغ اثناسيوس ان الخطر أصبح محدقاً به بتهدده في كل لحظة فعول على الهرب الا ان ثيودورس وأحد رؤساء الاديرة الاخرى توسل اليه ان يمكث عندهم ويختبيء في دير قريب من تلك الجهة اسمه ديرتانيا ولكن اثناسيوس رفض الاقامة ورحل في قارب مغطى ومعه الراهبان اللذان كانا يرافقانه دائماً فماكستهم الرياح ولم تجر معهم بما تشتهي السفينة فذاقوا أشكال التعب والعناء في جرها ببطء كثير . وقد ظل اثناسيوس يصلي طول اليوم حتى انه لم ينظر في وجهي رفيقيه وأخيراً أفاق كمن كان مغشياً عليه والتفت نحوهما قائلا (هبوا انى قتلت) ..... ثم كف عن الكلام لما رأى الراهبين يبتسمان في وجهه ابتسامة الفرح العجيب وحينئذ أخبراه انهما بينما كان هو غارقاً في صلاته علما بطريق الالهام الالهي أن يوليانوس فارق هذا العالم ولم يبق له أثر فيه وكان كلامهما صحيحاً فان يوليانوس مات قتيلا بمعترك الطعن والضرب في ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ ولا يعلم شيء عن كيفية قتله ولكن المؤرخين الوثنيين في ذلك العصر لم يشكوا في أن أحد عساكره المسيحيين أخذه غيلة وقتله بطريق الخيانة والغدر وقد حمل

العسكري على ذلك تعصبه وكرهه ليوليانوس الذي ساقه الى التصور الى انه أوحى اليه ليقتل عدو الرب ويخفي آثاره. ولكن هذا الزعم لم يقم أدنى دليل على اثبات صحته بل ان كاليستوس أحد رجال حرسه زعم ان شيطانا مارداً أودى بحياته كما أن المسيحيين قالوا انه قتل بسر الهي لا يدركه أحد . وليس حلم الراهبين اللذين كانا مع اثناسيوس من الامور الغريبة فقد شاع في ذلك الحين ان أناساً كثيرين في انحاء مختلفة من المملكة جاءهم الهام روحي عن موت يوليانوس في ذات اللحظة التي فيها فارقت روحه جسمه . وقد قلنا فيما سبق ان حلم ثيودورس الذي رآه في القارب كان السبب الوحيد الذي صد اثناسيوس عن الفرار ونذكر الآن حلما آخر رآه ديديموس العلامة الاسكندري الشهير الذي عرفنا عنه انه كان كفيف البصر حاد البصيرة فانه حلم حلما يشبه حلم ثيودوس وتفصيل ذلك أن هذا العالم الذي كان قد بلغ من الكبر اشده شعر شعوراً عميقاً بالضيق الذي استولى على الكنيسة وحزن لما رأى تقدم الوثنيين وانتصارهم عليها فصرف يوما كاملا في الصوم والصلاة والابتهال الى الله الى ان أضناه التعب والسغب فاستلقى على منضدته في منتصف الليل واستولى عليه النعاس فنام . وفي الساعة الاولى بعد نصف الليل قام من نومه مذعوراً اذ سمع صوتا جهوريا يناديه قائلا :- (لقد مات يوليانوس فقم وكل وبشر اثناسيوس بذلك) . اما ديديموس فكتب تاريخ اليوم والساعة اللذين رأى فيهما هذه الرؤيا بغاية الدقة فاتضح

له فيما بعد ان يوليانوس مات من الجروح التي اصابته في ذات اللحظة التي حلم فيها

ومن اشهر الاحلام في هذا المعنى واكثرها شيوعا في مصر حلم باسيليوس الذي صار فيما بعد اسقفاً لقيصرية كبدوكيه . وقبل ان يشتهر يوليانوس بالكفر والالحاد كان باسيليوس صديقه الشخصي الذي يركن اليه ولذلك استدعاه يوليانوس عند جلوسه على العرش الامبراطوري ورجاه ان يقيم عنده ويكون من رجال بطانته خصوصاً وان باسيليوس كان قد تربى تربية حسنة وعرف بالتقوى والتدين بين الناس . ولما كان باسيليوس على وشك اجابة الدعوة التي دعاه بها يوليانوس سمع عن ارتداده وكفره ولذلك رفض طلبه رفضا باتا وعدل عن الذهاب اليه والاقامة عنده . فهاج سخط يوليانوس لسبب رفضه دعوته واغتاظ غيظاً شديداً فقصد الانتقام من باسيليوس باضطهاد قيصرية التي كان قد عين كاهناً فيها في ذلك الوقت وكتب اليه كتابا للتحكك وطلب منه مائة رطل من الذهب الوهاج ليصرفها على الحملة التي جردها ضد الفرس وتوعده بدك قيصرية دكا وهدمها من اساساتها ان لم يرسل الذهب حالا فحار باسيليوس في امره واستولى عليه اليأس ولم يدر ماذا يفعل في طلب يوليانوس هذا ولكنه عاد فهدىء روعه عند ما رأى هذه الرؤيا العجيبة وهي انه ظهر له في حلمه ان السموات انفتحت ثم سمع الرب يسوع المسيح يدعو عبده مركوريوس ان يذهب حالا ويقتل يوليانوس عدو

خدامه الامناء. فامتشق مركوريوس سلاحا صقيلا يخطف الابصار بضوء لمعانه. غاب مرتين اختفى فيهما عن الاعين ثم عاد في المرة الثالثة وقال هاتفاً (ها قد قتلت الامبراطور يوليانوس كما امرتني يارباه فقضى نحبه) فلما ظهرت لباسيليوس هذه لرؤيا استيقظ من نومه خائفا وجلا وسار مسرعا الى الكنيسة حيث كان الكهنة وجماعة المؤمنين مجتمعين فيها يؤدون صلاة نصف الليل فقص عليهم الرؤيا التي رآها فلما سمعوها طلبوا اليه ان يكتم الخبر ريثما يتأكد صحته ولكن باسيليوس لم يقبل مشورتهم بل اذاع امر حلمه في كل صقع وناد ولم يمض زمن حتى وردت الانباء تترى بما يثبت صدق حلمه وموت يوليانوس ففرح الشعب لذلك وطربوا (١) واذا انت نظرت صورة القديس مركوريوس الموجودة في بر مصر تجده مرسوما وبيده سيفان متقاطعان فوق رأسه وتر تحت سنابك جواده صورة يوليانوس الشاحبة عليها تاجه مطروحين على الحضيض

ولما مات يوليانوس اختار الجيش العامل رئيس الحرس الامبراطوري امبراطوراً بدله وكان اسمه يوفيانوس وهو ككثيرين غيره من امبراطرة الروم سربي الجنس من عائلة عريقة في النسب. وقد كان مسيحياً يعتقد الاعتقاد الصحيح ولذلك كانت مدة حكمه القصيرة سلاماً وراحة للكنيسة

(١) قد اوردنا هذه الحكاية هنا كما رواها يوحنا النيقاوي الذي يذهب الى ان باسيليوس كان في ذلك الوقت اسقفاً لقيصرية

كما ان اكثر رجال الجيش الذين كانوا قد زاغوا عن الايمان في أيام يوليانوس عادوا الى معتقدهم الاول في أيام هذا الامبراطور فعم السرور جميع الرعايا وانشرحت أفئدتهم كثيراً الا الوثنيين الذين لما شاهدوا خراب هياكلهم واقفرار معابدهم بالاهلين علموا أن دياناتهم لا تؤثر في القلب الا أثيراً سطحياً يعود عليهم بالضرر والشر اذا بطل الضغط واطلقت الحرية الدينية. وقد ذكر بعض المؤرخين ان يوفيانوس أصدر أمراً اباح فيه حرية الضمير المطلقة لجميع رعاياه على السوء ولكنه نهى عن ممارسة الاعمال السحرية الباطلة ثم كتب خطاباً الى اثناسيوس يدل على شريف احساسه واعجابه به وفيه يلتمس منه ان يشرح له المعتقد الصحيح شرحاً وافياً. فصدع اثناسيوس بالامر وكتب هذا الشرح على نسق رسالة رعوية صادرة من مجمع ديني وبعدها أبحر يوفيانوس قاصداً انطاكية حيث استقبل فيها باحتفال باهر

وفي هذه الاثناء لم تغمض اجفان اتباع آريوس في الاسكندرية ولم يفتأوا في عملهم فان واحداً منهم اسمه لوشيوس الذي كان جورجيوس قد سامه قساً قبل وفاته عقد النية على مقابلة هذا الامبراطور الجديد في انطاكية والالتماس منه بان يعينه في وظيفة البطريرك الخالية وذلك لعلم هذه الفئة انهم لا يمكنهم الحصول على غرضهم بالطرق القانونية اذا هم بقوا في الاسكندرية وعليه سار رهط آريوس للمثول بين يدي يوفيانوس في انطاكية وبيدهم طلب عزموا على رفعه اليه. فلما التقوا به عند ما كان

خارجاً في موكبه للنزهة سألهم ان من أنتم وماذا تريدون فاجابوه انهم مسيحيون من الاسكندرية يطلبون تعيين بطريرك لهم فاخبرهم الامبراطور بانه سبق وكتب لاثناسيوس ليرجع الى وظيفته . فقالوا له ان اثناسيوس صار من المغضوب عليهم واصبح منفياً من سنين مضت وان رجوعه لوظيفته لم يكن غرضهم الذي جاءوا لاجله . فلما قالوا هذا تقدم أحد العساكر وقاطعهم الحديث اذ اخبر الامبراطور بان هؤلاء القوم هم النفاية التي خلفها جورجيوس المحروم وعليه سار يوفيانوس في سبيله دون ان يلتفت الى طلبهم ولكنهم اكثروا من الالحاح ورجوه ان يسمع لهم ما يلقونه عن اثناسيوس ثم تبعوه في طريقه حتى اضطروه ان يسخط على البحارة الذين لم ينتهزوا فرصة يطرحون فيها لوشيوس في اليم عند سفره معهم من الاسكندرية الى انطاكية

وفي شهر فبراير سنة ٣٦٤ قفل اثناسيوس راجعاً الى الاسكندرية ولم يكد الدهر يبتسم للمصريين بعودته حتى كشر لهم عن انيابه وصدع خاطرهم بموت يوفيانوس الذي كانوا يرجون منه كل خير وبركة . أما سبب موته فهو انه طلب ان يؤتى له بوجاق فيه فحم ليدفئ غرفته لان البرد كان قارصاً ثم عمد الى فراشه ونام وفي الصباح وجدوه جثة بلا روح

وقد خلفه فالنتيان الاول على سرير المملكة وهو لاعلاقة له بمصر لانه كان قد عهد بالشرق الى أخيه فالنس الذي يهمنا أمره وكان آريوسي

المذهب وهي الصفة التي تضمه مع المسيحيين ولو انه لم يكن على شيء من الديانة المسيحية قط. أما اذا أردت ان تعرف صفته الحقيقية فهي مضطهد المسيحيين ليس الا . والدليل على ذلك انه في سنة ٣٦٥ أصدر أمراً بنفي جميع الاساقفة القويمي المذهب وهم الذين أعادهم يوليانوس نفسه . ولما بلغت هذه الاخبار مدينة الاسكندرية في نحو شهر مايو من هذه السنة هاج القوم كثيراً دفاعاً عن اثناسيوس حتى ان والي مصر لم يتجاسر وينفذ أمر النفي اليه

وفي شهر اكتوبر بينما كان اثناسيوس مقيماً في زاوية بكنيسة القديس ديونيشيوس علم ان الوالي مصمم على مقاومته والقبض عليه ولذلك اسرع بالفرار حتى ان جنود الامبراطور لما هجموا على الكنيسة في ذات الليلة التي هرب فيها اثناسيوس بحثوا عنه كثيراً حتى في السقوف والجدران فلم يقفوا له على أثر . وقد قال سقراطس المؤرخ ان اثناسيوس مكث اربعة شهور مختبأ في مقبرة آبائه . ولما رأى الامبراطور ان السلام لا يستتب في مصر والحالة هذه أجل انفاذ اوامره الى فرصة أخرى وسمح لاثناسيوس بالعودة الى كرسيه وظلت مصر بعد ذلك سنتين من الزمان آمنة مطمئنة تمارس فرائض الديانة المسيحية وتسعى في انتشارها تحت رعاية بطريركها اثناسيوس وفي خلال هذه المدة حدث شغب من الوثنيين في الاسكندرية في غرة يوليو سنة ٣٦٦ حرقت بواسطته كنيسة سيزاريوم الكبرى التي كان قد تم بناؤها في سنة ٣٦١ كما علمت في الذي مرّ بك

وفي سنة ٣٦٧ لما رسم لوسيوس الاريوسي رسامة غير قانونية خارج القطر المصري قصد ان يستحوذ على كرسي الاسكندرية بغير حق فطمعت انظاره لمسند البطريركية الذي طالما اشرأبت نحوه الاعناق وحاول الطامعون الوصول لسدته العالية وظن لوسيوس هذا انه لابد وان يأخذ هذه الوظيفة قسراً او بتصديق من الامبراطور . فلما وفد لوسيوس الى الاسكندرية سار قاصداً منزل أمه التي كانت لا تزال على قيد الحياة ، لم يكد خبر وصوله يطرق الآذان حتى احتاط بالبيت جمهور غزير كالبحر الزاخر فلم يسع الوالي الا ان ارسل بعض الموظفين يأمرونه بالخروج من القطر المصري حالا ولكن هؤلاء الموظفين عادوا واخبروا الوالي بانه اذا أصر على اخراجه من منزله فهو يعرضه للقتل بايدي جماعة الثائرين اكثرهم من حرافيش الوثنيين وعليه انفذ الوالي كوكبة من الفرسان حملته على الاكف بين ضجيج القوم وهديرهم ثم وضعوه في اليوم التالي في سفينة واخرجوه خارج القطر لينقذوا حياته من الموت الذي شاهده بعينه

وفي سنة ٣٦٨ بدأ اثناسيوس بترميم كنيسة سيزاريوم التي حرقت وفي السنة التالية وضع اساسات كنيسة اخرى دعيت باسمه فيما بعد . وفي هذا الوقت طلب اهالي مدينتين في مقاطعة بنتابوليس تعيين اسقف لهم يختص بالنظر في شؤونهم ثم ألحوا على اسقف الابروشية التابعين لها ان يرسم لهم شاباً عالمانياً اسمه سيداروس . فعنفهم اثناسيوس بروح الوداعة على نشوذهم هذا لانهم لم يطلبوا الطلب منه رأساً وبعد ان فحص الامر

اتضحت له اهلية سيداروس واستحقاقه فرقاه الى ابروشية مهمة جداً وبعد هذا العهد حرم اثناسيوس رجلا قاسياً عاتياً هو حاكم ليبيا « المغرب » ثم ارسل منشوراً الى رؤساء الكنائس على اختلاف انواعها يذكر فيه هذه الامر ويفصح عن الاسباب التي دعته الى ذلك . وقد صرف اثناسيوس الخمس سنوات الاخيرة من عمره وهو يؤدي واجباته بكل تأنٍ وتوضع وكان لا يفتاء يخاطب اساقفة جميع الكنائس الخارجة عن دائرة سلطته ويتوادُّ معهم خصوصاً مع باسيليوس اسقف قيصرية كبدوكية وصاحب الرؤوس المشهورة . فكانت اكثر خطاباته تختص بالشيع المختلفة وتقاوم مبتدعيها سيما بدعة ابوليناريس ومرسلوس من عنكيرة « في اوروبا »

وفي سنة ٣٧٣ انتهت حياة هذا البطريرك العظيم وهي حياة طويلة نافعة قضاها في اهم الاعمال واكثرها منفعة لتقدم الديانة المسيحية ونشر بشرى الخلاص بين الكثيرين . وبعد ان عين بطرس خليفة له نام في الرب بسلام وقد جلس على السدة البطريركية القبطية سنتاً واربعين سنة

الفصل السابع عشر

انتحار الامة المصرية . سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ من الشهداء

اشرنا في فصل سبق الى النتائج السيئة التي نتجت من حروب المصريين في سبيل الحرية والخلاص من ربقة الذل وذكرنا ايضاً عاقبة الاضطهاد اثارة ديوكلتيانوس في بداية القرن الرابع وكيف ان هذين العاملين اثرا

تأثيراً مذموماً في صفات الامة المصرية وطباعها حتى أوجدوا فيها نوعان الملوس والسوداء غيرا اطوارها وقلبا سجاياها . واتماماً للفائدة وتكملة لهذا البحث نأتي الآن على شرح الموضوع الذي جعلناه عنواناً لهذا الفصل وسميناه انحطار الامة المصرية او هو انحطاطها وتقهقرها وهو عنوان قاس مؤلم ولكن لا مندوحة لنا من تسطيره اذا كنا نتوخى الحقيقة ونجد في طلبها ولو وخزتنا وأدمت القلوب . فهذه الحقيقة المؤلمة هي ان الخلل الذي تطرق في طباع المصريين وصفاتهم لم يزل موجوداً الى يومنا هذا بل انه زاد وتفاقم شره عما كان عليه في هاتيك الايام الاولى . ومما يجمل ذكره في هذا المقام ان الاقباط ـ كما يسميهم العرب الآن لعدم رغبتهم في اطلاق كلة مصري عليهم ـ كانوا في ذلك العهد لا ينظرون الى جامعتهم ككنيسة او كأمة ولم يكونوا يفترقون بين مذهب وآخر حباً منهم في حفظ الرابطة القومية ومحافظة على الوحدة الجنسية لا المذهبية . ولكن لما اشعلوا جذوة حرب يرجون من ورائها استقلال وحرية فافقدتهم كل شجاع مقدام ومحب لوطنه غيور . ثم ان الاضطهاد الذي بدأ به تاريخ الشهداء اضاع من هذه الامة ما بقي لها بعد ذلك الحرب من روح التقوى والعفة بواسطة الندابات المريعة التي وقعت عليها . ولما ان ختمت هذه الفصول المحزنة بظهور شيعة آريوس وانتشارها وهي التي اجهزت على ما بقي فيها من شمم المعاطس والحزم الشديد وابدلته بيأس وقنوط من هذا العالم الحاضر حتى صار الاقباط حينئذ يظنون ان نهاية العالم قد اقتربت منذ ظهر المسيخ الدجال « وكان المسيخ الدجال

عندهم هو آريوس » ـ لما ان ثقل عليهم عبء هذه العوامل والمؤثرات التي اوضحناها هنا اوجد في هذه الامة جنوحاً الى العزلة والابتعاد عن هذا العالم بدون اهتمام في امر الآخرين ولذلك هرع خيار القوم تباً تباً وفرادى فرادى الى الاديرة ومغائر الارض طلباً للوحدة والانفراد ولم يبق في البلاد الا الذين لا يهمهم سوء كان المسيح الهاً ام انساناً سواء كانت مصر ذليلة مهانة ام عزيزة حرة ما داموا قادرين على زرع ارضهم وتفليحها وتصريف تجارتهم وترويجها والسلام

وليس غرضنا مما تقدم اثبات ان كل الذين شادوا الاديرة وبنوا الصوامع والمناسك في الاراضي الجدباء بين سنة ٣٢٠ و ٣٩٠ كانوا مدفوعين بمبادئ عالية شريفة ولا هم كانوا من خيرة الرجال و احسنهم في مصر بل كان بينهم نفر من ذوي الامانة والايمان كاثناسيوس الكبير مثلا كما كان بينهم كثيرون غابت عنا اسماؤهم الآن كانوا يتراوحون بين الدين والدنيا اذ بقوا في الاديرة كرهبان ولكنهم كانوا يهتمون ايضاً بواجبات الحياة وضروراتها حتى وتوافلها وكمالياتها . انما الحقيقة التي نريد ايضاحها الآن هي ان اكثر الذين صاروا رهباناً وراهبات واكثر الذين فعلوا مثل اثناسيوس في انهم لم يتخلوا عن وظائفهم بل استحسنوا عدم الزواج لسبب ضيق ذلك الوقت ومصائبه ـ ان معظم هؤلاء المتبتلين كانوا من احسن المصريين طباعاً واوسعهم عقلا واغزرهم مادة وهم الذين سلبهم هذا الانحطاط الى نذر بتوليتهم فلم يخلفوا اولاداً بعدهم يدافعون عن بلادهم او على الاقل

يحفظون ذكرى والديهم ويحتفظون على المجد والسؤدد الذي ورثوه عن اجدادهم . واذا اردت معرفة مقدار اهمية هذا العمل وخطارته على الامة المصرية فعليك بالرجوع الى التاريخ المصري القديم وتقليب بعض صفحاته تجد نتيجته المشؤمة ظاهرة مكبرة . فانه من المسائل المقررة في الاذهان ان مبدأ الرهبنة كان موجوداً في مصر من قديم الزمان ولو انه سار فيها سيراً بطيئاً حتى كاد يبطل بالمرة عند دخول الديانة المسيحية هذه البلاد . ومعلوم انه قبل التاريخ المسيحي باجيال ترهبن كثيرون من المصريين الوثنيين حينئذ ويحتمل ان رهبنتهم لم تكن بحرية ارادتهم بل ان الامة كانت تنتخب العجزة وارباب العاهات وترسلهم الى الجبال لهذا الغرض لانها كانت تعتقد ان الصفات الطبيعية كحسن الخلق والخلق انما هي وراثية يتوارثها الابناء عن الآباء فلذلك لم تكن ترضى بوجود هؤلاء المشوهين في وسطها لئلا يتناسلوا ويكثر نسلهم فيفقد رونق الامة ويحط من قدرها . كذا كان المصريون القدماء يزعمون ان الرهبنة لا تحتاج لرجال من أولي الحصافة والكياسة او من الذين عرفوا بعلو المبادي والصفات الادبية العظمى فلذلك لم يكن يوجد بين رهبانهم من يستحق الذكر فضلا عن ان أولئك الرهبان الاقدمين امتازوا عن الرهبان المسيحيين بالنظافة التامة التي كانت من اهم الواجبات التي يتحتم على الراهب المصري الوثني آداؤها فانهم كانوا يغسلون اجسامهم ثلاث مرات يومياً — قبل صلاة الصبح وفي الظهر وفي المساء وكانوا لا

يأكلون اللحم مطلقاً وكانوا ينكبون على الدرس واستيعاب العلوم والمعارف ولكن لما بدأ المصريون المسيحيون في القرن الثاني باقتفاء آثار آبائهم الاولين وادخال مبدأ الرهبنة في الديانة المسيحية لم ينسجوا على منوال الآباء والاجداد بل ساروا على غير خطتهم في انهم كثيراً ما احتقروا اجسادهم وحسبوها ادنى من اجسام الحيوانات وأفظع . خذ لذلك مثلا مار آمون الذي أسس دير وادي النطرون كان يزعم انه عيب وخجل ان ينظر الرجل التقي جسمه عارياً من الملابس وعار ان يخلع ثيابه عنه ولو وقت الاستحمام . كذا اثناسيوس كان يقول ان الاستحمام عادة قبيحة مستهجنة لا توافق الآداب (ما دام الانسان يقف مجرداً من الملابس كما قال آمون) فلذلك صارت اجسام أولئك الرهبان السذج في حالة من القذارة والوساخة تشمئز منها نفوذ صبيان الاذقة في البلاد المتمدنة وهم كانوا يحسبون هذه الوساخة علامة على الزهد والتقوى واشارة للبر والقداسة . وعلى هذا القياس صارت النظافة التي كان يعبدها المصري او يعبد جسمه بها ترفهاً وتنعماً مع انه كان قبلا ينفر من القذارة ويستعيذ بالله منها . ولو اقتصر الامر على وساخة الجسم لكان الضرر سهلا هيناً بل تعداه الى وساخة العقول ايضاً فان اكثر الرهبان انكروا على انفسهم الدرس والمطالعة وامتنعوا عن مزاولة العلم والمعرفة وكانت النتيجة ان النباهة والحذق وحدة الذهن التي كانت طبيعية في الامة يتوارثها الاحفاد عن الاجداد ضاعت منها بواسطة نظام الرهبنة ولم

يبق لها شيء من المزايا العقلية السامية . نعم قالوا ان بعض الاديرة صار في القرون الوسطى مدارس للعلم ولكن اذا شئت الحقيقة التي لا مرية فيها انها كانت منسخاً يتعلم فيه الرهبان نسخ الكتب التي بقيت لهم من الاعصر الاولى وكانوا يصرفون اوقاتهم وهم يكدون ويكدحون في الكتابة باليد وقل ان يستفيدوا مما كانوا يكتبون

أما الاسباب التي حملت الكثيرين من أخيار المصريين وأشرارهم الى نذر أنفسهم للرهبنة فهي كثيرة متعددة نذكر لك بعضها ومنها يتضح ان الذين حافظوا على مبادىء هذا النذر هم زهرة رجال الامة بينما السفلة منهم نكثوا بعهدهم وكذبوا فيما وعدوا ولكن نتيجة الفريقين كانت واحدة هي ضرر الامة والتنكيل بها واول باعث على هذه الرهبنة هو القانون الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠ وفيه يعفى العزاب والذين بلا نسل من دفع الضرائب المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثيرين من محبي النفس والمال الى الامتناع عن الزواج بل ساعدهم على الشر والفساد اذ جاء في فقرة اخرى منه ان الاقطاء يرون على مصاريف الحكومة ومنها ان الرهبان كانوا يعفون من الخدمة العسكرية في مدة حكم قسطنطين. ولكن السبب الاكبر الذي يعزى اليه انحطاط الامة المصرية هو تقهرها او هو سيرها للخلف مع يأس استولى عليها اوجد عندها استسلاماً واستماتة

والنتيجة ان هذه الامة ذاقت من المصائب وقاست من عوامل التأخر ما كان يكفي لملاشاتها . وليقرأ القاريء الكريم بعضاً من نكباتها

ولا يسأم : — قامت هذه الامة فيما مضى وأوقفت نفسها ونفائسها للجهاد في سبيل الحرية تحت راية اخيليوس سنوات متوالية ولكنها لم تنجح . وعقب ذلك ان الرومانيين الذين كان المصريون يبغضونهم شددوا عليهم وضايقوهم اكثر من ذي قبل . ثم لما قنطوا من استقلال وطنهم التفتوا الى امور دينهم الذي اهرقوا دماءهم في سبيله للمحافظة على معتقدهم الاصلي ولكن هذا لم ينفعهم شيئاً ولم يبعد عنهم الشقاق والخناق اذ لم تمض عليهم عشر سنوات في حالة السلام والراحة ليعملوا على اعلاء شأن الكنيسة حتى ظهرت لهم شيعة آريوس بمظهر القوى المنتصر وانتشرت بسرعة زائدة وكانت نتيجتها ان الكنيسة المصرية وقع عليها الاضطهاد واصابها الضيق الشديد من قوم يدعون انفسهم مسيحيين وهم لا يعرفون المسيح . وبينما كان المسيحيون يظنون ان كل هذه المصائب انما هي سحابة صيف عن قليل تنقشع خاب ظنهم عند ما علموا ان وارث العرش بعد قسطنطين واولاده هو يوليانوس الوثني عدو جميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وهو الذي اذاقهم اشكال العذاب والعناء . ومما يدعو الى العجب والاستغراب اكثر من الذي سردناه كله افتكارهم ان نهاية العالم قد اقتربت وهو فكر يطرق على بال كل امة تساورها الاحزان وتنتابها الحيرة والذهول ولذلك استولى عليهم الفساد وفشى بينهم الشر وصار كل منهم يقول في نفسه (لنأكل ونشرب فاننا غداً نموت) وقد تكاثر هؤلاء المفسدون وملأ

تسلهم البلاد (١) في الوقت الذي كان فيه الاتقياء الصالحون يفرون هاربين من عالم الشرور هذا لئلا يصيبهم البلاء فيهلكهم وظلوا يصلون بلا انقطاع وقد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات انتظاراً لمجيء المسيح .

في هذا القرن الرابع الذي فشا فيه داء الرهبنة اصاب بسببه مصر ضرر لم يصبها من قبل وذلك للجهل والغفلة اللذين كانا يستويان في الصالح والطالح معاً . فلو ذكرنا للقارئ مقدار الرهبان والراهبات الذين تنسكوا فلا يكاد يصدقه لولا ان المؤرخين قد اثبتوه بانفسهم لانهم شهدوه شهادة العين عندما جابوا خلال الديار المصرية ليقفوا على هذا الامر الغريب بانفسهم

وحدث في السنة التي توفى فيها البطريرك اثناسيوس ان جماعة من الطليان الذين كانوا مجتمعين في اكويليا ليعيشوا كرهبان لم ترق لهم هذه المعيشة ولم يروا فيها شيئاً من الصواب فقضوا جمعيتهم هذه وتفرقوا في جهات مختلفة . ومن اشهر هؤلاء الشان دوفينوس وجيروم وقد كانا صديقين حميمين منذ نعومة اظفارهما كذلك عرفت هذه الجمعية بعقيلة اسمها ميلانيا كانت ترأس اعمالها وتدبر حركتها وهذه

(١) ان اداب الذين لم يصيروا رهباناً في ذلك العصر قد فسدت فساداً سيئاً حتى تناقص عدد الاهالي لسبب الفسق والعهر الذي عم بينهم كما ان الاغنياء كانوا يجمعون ثروتهم بطرق النصب والاحتيال بدل الجد والاجتهاد حتى ان الغني كان يعرف بانه اما ماكر غشاش او وريث خبيث محتال

اسبانية النزعة طيبة الأرومة . وكان عمر هذه السيدة اثنتين وعشرين سنة رزقت في خلالها بثلاثة اولاد اصيبت فيهم بمصيبة جلى كادت تودي بحياتها ذلك ان زوجها واثنين من ابنائها ماتوا بمرض عضال معد فاعتبرت هذه السيدة الاسيفة تلك المصيبة قصاصاً لها لانها تزوجت ولم تترهبن فعقدت النية من ذلك الحين على ان تعيش عيشة الزهد والعزلة ولم يكفها ذلك فقط بل قامت تنادي ضد الزواج وتحذر من عواقبه وتشن غارة صماء على كل من يقول به . وقد التقت بروفينوس وكان له من العمر حينئذ سبعة وعشرون سنة فوجدته مصمماً على الذهاب الى مصر لدرس احوال الرهبنة واستطلاع جلية امرها فيها فتركت ابنها الوحيد في ايطاليا تحت رعاية وصي اقامه له وجاءت مع روفينوس واقامت في مصر بينما كان روفينوس ومعه اثنان او ثلاثة من رفقائه يجولون في وادي النيل مفتقدين آثاره الغريبة وزائرين جميع الاديرة والمناسك لمعرفة حقيقتها ودرس نظاماتها واحوالها واوفد روفينوس على اوكسيرينخوس وهي المدينة التي قلنا في اول هذا الكتاب ان السمك كان الهها ومعبودها وجد جمع اهاليها قد اختطوا خطة الرهبنة فيها وان كثيرين من الرجال تركوا هذه المدينة واعتزلوا الاديرة والمغائر المنفردة . وقد قال اسقفها لروفينوس انه يوجد في هذه المدينة اكثر من عشرة آلاف راهب وعشرين الف راهبة . ومن غير الزمان ان الهيا كل السامقة والمعابد الفسيحة التي كانت مختصة بكهنة الاوثان في عهد المصريين القدماء اصبحت الآن

ادرة ومناسك الرهبان المسيحيين عدا عن اثنتي عشرة كنيسة اخرى بنيت في هذه المدينة لهذا الغرض . وعند مجيء روفينوس ورفقائه الى اقليم الفيوم رأى ان جل سكانه يعيشون رهباناً ولكنهم كانوا يختلفون عن الآخرين في انهم اشتغلوا كفلاحين لزرع الحنطة وكانوا يرسلون محصول ارضيهم رأساً الى الاسكندرية . وعلى هذه الحالة سار اهالي منفيس وبابليون

وفي دير طبنسي (سوهاج) كان ثلاثة الاف راهب يعيشون كالاموات تحت رئاسة آمور الذي خلف ثيودورس في زعامة هذا الدير وقد رسمه اثناسيوس اسقفاً عليه وكان جورجيوس اسقف كبدوكيا قد ضايقه ونفاه اليه. كذلك كان الحال مع ابولونيوس رئيس دير على مقربة من هرموبوليس (المنيا) يحتوي على خمسماية راهب كان اثناسيوس قد سامه اسقفاً بعدما اضطهده جورجيوس اسقف كبدوكيا المار ذكره . وقد ترهبن ابولونيوس هذا وهو في الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان من اصل طيب ذا غيرة ونشاط فانه مع اهمال اوليائه في أمر تربيته صار بجده واجتهاده من مشاهير العلماء الاعلام في ذلك الحين وقد افاد روفينوس فائدة عظمى في انه اعلمه بحالة الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما انه اسهب له في تبيان ماهية ديانة المصريين القدماء وطقوسها واحتفالاتها والرموز الصحيحة التي كانت تستعمل في الزمن الغابر للدلالة على الحيوانات المقدسة وكان ابولونيوس يدقق كثيراً على الرهبان الذين تحت رئاسته ولم يكن يسمح له بالاهمال في اتمام مواجب الحيوة وضرورياتها والتحلي بحلية

الدين والآداب حتى قيل ان ثيابهم كانت نظيفة كما كانت قلوبهم طاهرة ولما برح روفينوس ورفقائه هذا الدير الشهير أوفد معهم رئيسه الذي اشتهر بالكرم والبشاشة ثلاثة من التراجمة كاد لا يرشدونهم في الطريق ويوضحون لهم ما يغمض عليهم معرفته فساروا لافتقاد الاديرة الكثيرة في مدن لم يرد ذكر اسمائها في ما كتبوه عن هذه الاديرة ثم زاروا كثيرين من النساك المشهورين الذين كانوا معتزلين في خلواتهم

وبين هذه الخلوات خلوة قامت على قمة جبل اقفر خلف مدينة انطينيوس يصل اليها بطريق وعرة ضيقة حتى ان الذي لم يطأها من قبل لا يمكنه المرور فيها . ففي هذه الخلوة القفره عاش راهب اسمه الياس وحيداً في مغارة واسعة الاطراف ولم يكن له مؤنس فيها وظل على حالته هذه نيف وسبعون سنة كما قال الرواد الذين زاروه وكتبوا عنه كما انهم أثبتوا انه بلغ من العمر ١١٠ سنين عندما زاره روفينوس وكان قد اصيب بالفالج فاهزله واضعفه . ولم يشهد أحد من جيرانه بأنه راى الياس خارج هذه المغاره او انه سكن في مكان آخر غيرها ثم وقد اشاعوا عنه انه شفى مرضى كثيرين . وقد اتضح لروفينوس وزملائه ان طعام هذا الراهب كان ثلاث أوقيات من الخبز يومياً وثلاث زيتونات كل مساء ولما رآه هؤلاء الشبان السائحين اندهشوا ونظروا اليه نظرة الهيبة والاجلال لما شاهدوه فيه من الصمت والسكوت ثم رجعوا ادراجهم الى الريف بعد ان عانوا مشقة وتعباً في هذا السفر . وقد زاروا ايضاً الخلوة التي كان

يقطنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتضلعه في اللغات اليونانية والمصرية واللاتينية ايضاً

ومن اشهر هؤلاء النساك والزهاد يوحنا الاسيوطي الذي كان يقطن صومعة على اكمة مرتفعة اشتهر بحكمته وعلمه حتى ان القائد الروماني الذي كان معسكراً في اصوان كان يستشيره في الامور السياسية لاعتقاده برصانة عقله ورجحان رأيه كما ان الامبراطور ثيودسيوس كان يسير على رأيه ويهتدي بمشكاة فكره . ولم يقتصر يوحنا على الرهبنة والعزلة فقط بل كان يجمع الصدقات ويوزعها في مديرية اسيوط ذلك لان جميع السكان هناك اتفقوا في ما بينهم على ان يقدموا له عشر ايرادهم فكان يوحنا يجمع هذه الاعشار ويوزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا المشروع سيراً حثيثاً وبزغت شمسه من اسيوط فانتشرت اشعتها على كل مصر ومنها عم جميع الممالك المسيحية . وقد اسند المؤرخون مبدأ تقويم الاعشار عند المسيحيين الى هذا الراهب الاسيوطي . وبعد هذا العهد كانت هذه الاعشار تجزأ الى ثلاثة اقسام - احداها رواتب الاكليروس وثانيها لعمارة الكنائس وثالثها للفقراء والمعوزين . وعلى هذه القاعدة سارت الكنيسة القبطية في هذه الايام فانك اذ دخلت الكنيسة المرقسية الكبرى الآن ترى ثلاثة اطباق للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون بها اثناء تادية الخدمة واحد خلف الاخر وكل منهم يمد يده لجماعة المصلين الذين اعتادوا ان يدفعوا ثلاث دفعات - واحدة للاكليروس وواحدة لمصاريف

الكنيسة والثالثة للفقراء

أما الرهبان في مصر فكانوا على ثلاثة أنواع - النساك وهم الذين يسكنون الاديره جماعات وفئات . والزهاد وهم الذين يعيشون في الخلوات والصوامع والمتبتلون وهم الذين يجتمع اثنان أو ثلاثة معاً ويسكنون المدن ولكنهم لا يتزوجون

وبعد ان تمت سياحة روفينوس ورفقائه في وادي النيل صعداً عادوا قاصدين وادي النطرون فلما وصلوه وجدوا فيه اكثر من خمسين ديراً فيها ما ينيف عن خمسة آلاف راهب وهم مثل رهبان هرموبوليس في انهم من أحسن النساك واكثرهم نظافة ومعرفة . وقد علمنا ان أول من وضع اساس الاديرة في وادي النطرون هو مارامون الذي مات حوالي سنة ٣٤٥ واعقبه في الرئاسة مكاريوس . ولا يغرب عن ذهن القارىء انه كان يوجد في مصر قديسان يسميان بهذا الاسم وكانا معاصرين لبعضهما ولاجل التفريق بينهما في الاسم سمي احدهما مكاريوس الاسكندري والثاني مكاريوس المصري . وقد يصعب جداً التمييز بين الاعمال التي قام بها هذا من ذاك أو معرفة ما أتاه الواحد من الاخر فضلاً عن انه كان يوجد كثيرون يسمون بهذا الاسم . أما مكاريوس الذي اتى ذماً لا تذكر بالشكر في ايام اثناسيوس وكان من القسوس المنتمين اليه والمخلصين له فهو غير هذين القديسين على ما يظن . ذلك ان مار مكاريوس المصري كان من اصدقاء مار انطونيوس ومعاصريه وهو ومكاريوس الاسكندري

سكنا وادي النطرون ووادي سيتس الذي يبعد مسيره يوم عن وادي النطرون ولو انه ليتصل به اتصالا طبيعياً . ومما يحتمل التصديق ايضاً أن مكاريوس المصري هو مكاريوس مجنوس بعينه الذي نشأ في القرن الرابع وله تآليف ثمينه رداً على اعتراض الوثنيين على الديانة المسيحية كانت قد لعبت بها ايدى الضياع الى ان نبغ فبسفورس في القرن الثامن ووجد نسخة منها بعد ان صرف اموالا طائلة وتحمل عناء كبيراً ويؤخذ من هذه النسخة ان مكاريوس مجوس هو مكاريوس المصري كما اسلفنا ولا يوجد مايدعوا للريب في هذا الظن . وكان يوجد في وادي النطرون ايضاً أربعة رهباناً يعرفون بالاخوة الطويلي القامة اكبرهم امونيوس كان قد رافق اثناسيوس الى رومية عند ما مكث فيها سنة ونصفاً . فهؤلاء الرهبان الاربعة كانوا اخوة من أب وأم واحد ومن دين ومذهب واحد وقد اشتهروا بطول قامتهم واعتدال قوامهم كما انهم عرفوا بغيرتهم الفائقة وعفتهم وتقواهم . وقد نشأ في وادي النطرون جمعيتان أسستا على مبادئ الجهل والغباوة ـ فاحداهما وهي الاكثر عمه وسخافة كانت ترتأي وجوب تصوير الآله بصورة انسان بكل ملامحه واجزائه وتمثيله جل شأنه بمثالا ظاهر واضح وأما الثانية فكانت تبحث في الرموز والمعاني الروحية التي وضعها اوريجانوس . ولما زار روفينوس هذا الدير كان السلام والوئام سائدين فيه فلذلك وطن النفس على البقاء هناك ردحاً من الزمن الا ان جو مصر الاسيفة اكفهر بغيوم الاضطرابات الدينية والسياسية فلم

يصف لها الدهر يوماً الا تكدر في الثاني

الفصل الثامن عشر

آخر اسقف أريوسي في الاسكندرية

سنة ٣٧٣ للمسيح و٨٩ للشهداء

كانت وفاة اثناسيوس بدء سعي جديد قام به اتباع اريوس سواء مع الوثنيين قصدوا به قلب الكنيسة رأساً على عقب . فاعيدت المظاهرات التي اشتهرت بتطفل جورجيوس أسقف كبدوكيا وتداخله في أمور كنيسة مصر بلا مسوغ ثم ان الامبراطور ڤالنس كان أريوسياً وكان متغيظاً من ان المصريين قاموا ينتخبون بطريركا لهم حسب اختيارهم فحدث انه بينما كانت تقام الخدمة الدينية في كنيسة مارشيوناس ـ وهي الكنيسة التي يصلي فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص ـ هجم عليها والي مصر الوثني بالاريوس ومعه فرقة من الجند فاوقع الرعب والخوف في قلوب المصلين . وكان أيضاً ان رهطاً من زعانف الوثنيين واليهود انتهزوا هذه الفرصة لتدنيس المذابح واهانة المسيحيين فلما رأى البطريرك بطرس هذا فعل ما فعله اثناسيوس قبله في أنه فرّ هاربا وقصد كيناً يختبيء فيه . وفي هذه الأثناء كتب البطريرك رسالة رعوية لم تزل موجودة الى الان وفيها يصف هذه الحوادث التي وقعت يومئذ . وكان داماسيوس البابا الروماني قد انفذ رسولاً من قبله يحمل رسائل السلام والمحبة الى بابا الاسكندرية بطرس فعند وصوله اليها قبض عليه وأرسل

سجيناً يشتغل في المناجم . فلما رأى بطرس هذه الحالة فر هارباً لى رومية وبقي ضيفاً فيها خمس سنوات كاملة (١)

وقد عرفنا في ما سبق ان لوشيوس الاسقف الاريوسي كان يسعى للحصول على الكرسي الاسكندري فلما وقعت هذه الاضطرابات نال لوشيوس ما تمناه ودخل الاسكندرية دخول الظافر المنتصر يحيط به جمهور من وجوه المدينة فلم يكد يجلس على السدة البطريركية حتى بدأ باضطهاد الكنيسة المصرية فصب جامات غضبه على الاديرة والرهبان بنوع خاص ويقال انه سار بنفسه الى دير وادي النطرون ومعه فرقة من الجنود الملوكية قاصداً شن الغارة على جماعة الرهبان الذين ابو انكار ألوهية الابن (٢) . فلما رأى لوشيوس ان الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال وانهم راضون باقامة سوق حرب تباع فيها النفوس بثمن

(١) ان امر هذه المشاحنات الغيبة بين الطوائف المسيحية المختلفة لم يقتصر على مصر فقط بل تعداها الى رومية والقسطنطينية . اما دماسيوس بابا رومية فلم يتم انتخابه الا بالقوة والعنف

(٢) قال جيبون المؤرخ ان هذه الحملة العسكرية المؤلفة من ٥٠٠٠ رجل التي سارت ضد رهبان وادي النطرون كان القصد منها اجبار الشبان والاقوياء منهم على الخدمة العسكرية . وقد يمكن ان يكون هذا صحيحاً الا ان جيبون اخذ روايته من مصدرين افرنسيين ذكرا ان القانون الذي سنه تيودوسيوس كان يقضي على الرهبان بالتجند . ولكن جميع المؤرخين في ذلك الحين اتفقوا على ان القصد من هذه الحملة كان ادخال مبادي اريوس بالقوة في دير وادي النطرون الذي كان أقوى حصن ديني في القطر المصري

رخيص امر هذا المبتدع قائد الحملة ان ينفي مكاريوس الاسكندري ومكاريوس المصري رئيسي وادي النطرون وسيتس ظناً منه انه يسهل عليه الانتصار على جماعة الرهبان متى ما أبعدوا رؤساءهم عنهم . ومن ثم نفي القديسان مكاريوس الى جزيرة فيلا في الصعيد الاعلى وكانت هذه الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكان كاهن هذا الهيكل محترما عند سكان القرى المجاورة حتى كادوا يؤلهونه فلما وصلها هذان الرهبان المنفيان حدث فيها هياج واضطراب وذلك ان ابنة هذا الكاهن الوثني سلكت مسلك من يعقلها مس من الجنون في انها اندفعت كالسهام المفوقة الى الشاطيء الذي رسى فيه تانك القديسان وصرخت قائلة (لماذا اتيتما الينا لتخرجانا من ههنا . فقد ظننا اننا في مأمن منكما في هذا المكان الذي لا يعرفه أحد وفيه نقطن آمنين بوائق الايام فلا نحن نؤذي أحداً ولا أحد يؤذينا . فاذا كانت أنظاركما تطمح الى هذه الجزيرة أيضاً فهنيئاً لكما بها خذوها اذ لا مقدرة لنا على مقاومتكم »

فلما فاهت الصبية بهذه الكلمات سقطت على الارض مغمي عليها فتقدم اليها احد الرئيسين الذي كان متضلعاً في علم الطب فعالجها وشفاها وكانت النتيجة ان جميع سكان هذه الجزيرة اعتنقوا الديانة المسيحية ولما بلغ لوشيوس هذا الخبر أصدر امراً خصوصياً باعادة هذين الرئيسين

ولما كان لوشيوس معضداً في اعماله بالحكومة الامبراطورية فلذلك نفى احد عشر اسقفاً بينهم ميلاس اسقف رينوكولورا (هي الآن

العريش في حدود مصر) وكان قد عهد الى قوة عسكرية بنفيه فلما وصلت هذه القوة الى الكنيسة في مساء يوم التقت بشاب كان يشتغل في تصليح القناديل واعدادها لساعة الخدمة فسأله الجند عن ميلاس وكان ميلاس هو هذا الشاب الذي التقوا به - فاجابهم ان ميلاس على مقربة منهم الآن وانه سيخبره بقدومهم حالاتم سار بهم الى منزله وقدم لهم عشاء فاخراً وظل يخدمهم بنفسه فلما فرغوا من تناول الطعام عرفهم بشخصه فدهش القوم من مروءته وجراءته واخبروه انهم يسمحون له بالفرار ولكنه ابى ذلك تفضلا مقاسمة اخوته الضراء من ان يربأ بنفسه ويتمتع بالراحة والسراء

ومن الذين قبض عليهم في دير وادي النطرون روفينوس المار ذكره وسجن مدة من الزمن واخيراً نفى الى خارج القطر المصري وكذلك السيدة ميلانيا وهي غريبة عن مصر كانت قد جاءت الى الاسكندرية ومكثت فيها نحو ستة شهور ثم نفيت الى ابروشية قيصرية في فلسطين ونفي معها جم غفير من الاساقفة والقسوس والرهبان وقد بثت في قيصرية مدة من الزمن كانت تقبل فيها كل المصريين المنفيين وتقابلهم بهشاشة وبشاشة وتعولهم بمصاريفها الخصوصية وقد عول روفينوس على الالتحاق بها والاقامة عندها ولكنه قفل راجعاً الى مصر حالا وقضى فيها نحو ست سنوات صرف اكثرها في معاشرة الرهبان والامتزاج بهم

ومن اشهر الرهبان في ذلك العصر راهب اسمه موسى كان يعيش في صومعة موجودة في الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وكان ذا هيبة واجلال لاجل تقواه وورعه وكانت قبائل البدو الرحل - او هم العرب (١) - يعتبرونه ويكرمونه

وكان جماعة البدو في ذلك الحين تحت رعاية ملكة اسمها ماثيا كان بين زوجها وبين الرومان محالفة ووداد في زمن قبل الزمن الذي كانت فيه . وبعد وفاة زوجها هذا عادت قبائل العرب واشتبكت في حرب استباحت فيه كل بلاد المشرق حتى كادت تدمرها . وكان سكان جنوبي فرنسا في ذلك الوقت قد اتعبوا الامبراطور ڤالنس كثيراً فكان هذا سبباً في ايقاف سير الاضطهاد في مصر . ولذلك لم يقدر ڤالنس على صد هؤلاء العرب عن حدود بلاده فارسل يطلب منهم عقد صلح معهم فصاغت الملكة ماثيا شروط الصلح واهمها طلب تسليم الراهب موسى اليها لتعينه اسقفاً في بلادها وقد اشترطت هذا الشرط مع انها لم تكن قد صارت مسيحية بعد . فاجاب ڤالنس طلبها وهو يكاد يطير فرحاً وأصدر الاوامر المشددة بالقبض على موسى واحضاره الى الاسكندرية لكي يرسم اسقفاً سواء بطوعه ام بالرغم عنه . اما موسى فجاء الاسكندرية برضى وطيب خاطر ولكنه لما عرف ان

(١) ان كلمة « بدوي » كانت سما عاماً يطلق على كل قبائل العرب الساكنة بين ساحل البحر الاحمر ونهر الفرات

لوشيوس البطريرك الاريوسي سيضع يده عليه ليرسمه رفض الرسامة رفضاً باتاً وقال : ـ (انني احسب نفسي غير مستحق لهذه الوظيفة السامية ولكن اذا كانت دواعي الحال عند الحكومة ماسة لتوظفي فيها فلا مندوحة لي من قبول هذه الوظيفة ولكنني لا اقتبلها من لوشيوس ولا هو يضع يده عليّ ليرسمني لانها يد ملوثة بدماء الابرار القديسين)

فاغتاظ لوشيوس واعترض على هذه الجرأة التي بدأت من موسى وقال انني لم اطلب احضاره امامي لكي يؤنبني ويعنفني بل طلبته لا تمته المبادئ الدينية واعلمه منشأ العقائد الصحيحة . فرد عليه هذا الراهب الفاضل قائلاً اننا لم نختلق في المسائل الدينية بعد وان هذا الامر لا علاقة له بالدين ولكن المسألة بسيطة لا تحتاج الى بحث كثير هي انني رفضت الرسامة من يد لوشيوس الذي اضطهد المسيحيين واذاقهم مر العذاب . ثم بدأ موسى بايراد الادلة والبراهين على القسوة والوحشية اللتين رآهما في لوشيوس رأي العين ولكن لوشيوس لم يحتمل سماع هذا الكلام المؤلم فصرفه من امامه على عجل وللحال سار به الحراس الى الجبال ليبحثوا عن احد الاساقفة المنفيين لكي يضع يده عليه ويرسمه . ولما تعين موسى اسقفاً انتشرت بواسطته الديانة المسيحية انتشاراً واسعاً بين جماعة البدو وفي السودان ايضاً ولما رقي يوستيان العرش الامبراطوري صارت جميع هذه البلاد مسيحية بالمرة

وفي ربيع سنة ٣٧٨ رأى البطريرك بطرس ان فالنس مهتم بامر سكان شمالي اوروبا الذين كانوا يوالون هجماتهم على حدود بلاده وعليه لم يبق للوشيوس سند او عضد في مصر فآب هذا البطريرك من رومية ليجلس على كرسيه ثانية وساعده شعبه الذي قام بنفس واحدة ضد لوشيوس وطرده من الاسكندرية . فرفع لوشيوس دعواه الى فالنس الذي اشغلته هذه الشواغل عن مساعدته ثم قتل هذا الامبراطور في معترك الهيجاء في السنة عينها فخابت بموته آمال لوشيوس واوهامه

وجلس ثيودوسيوس بعد فالنس على عرش المملكة الشرقية وهو اسباني الاصل وابن ثيودوسيوس الاكبر الذي خدم هذه المملكة خدمة تذكر وهو من قوادها البواسل وكان جزاءه على هذه الخدمات العظيمة انه راح ضحية لاوهام فالنس وخرافاته . وتفصيل هذه الخرافة هو ان فن التكهن وضرب الرمل كان شائعاً في المملكة الرومانية في ذلك الوقت . وحدث ان بعض محاربي فالنس عقدوا جلسة رسمية لضرب الرمل ليعرفوا منها من الذي يخلف فالنس في المملكة وما هو مصير رجل اسمه ثيودورس كانوا يتمنون بامره ويخشون سلطته . فلما ضرب الرمل ظهرت فيه هذه الاحرف الاربعة مكتوبة وهي : ت ـ ي ـ و ـ د ـ وهي اوائل اسم الرجل الذي يعقب فالنس حسب زعمه فلذلك اصدر هذا الامبراطور امره بقتل ثيودوروس حالاً وانتحل لنفسه سبباً ليقتل كل شخص مشهور يبتدئ اسمه بهذه الحروف ث ـ ي ـ و د . وكان

بين الذين انطبق اسمهم على هذه الاحرف ثيودوسيوس البطل المقدام وابنه المسمى باسمه فقتل الاب اما الابن فتمسك برأي صائب هو انه اركن الى الفرار وذهب الى اسبانيا حيث اقام في منزل اسلافه الى ان ملك فيما بعد كما اسلفنا

اما المملكة الغربية فبعد موت فالنشيان سنة ٣٧٥ خلفه فيها ابنه غراطيان وكان له اخ يافع تحت رعايته فلامات فالنس رأى غراطيان ان المملكة الشرقية في قبضة يده وانه قادر ان يضمها الى مملكته ولكنه تصرف تصرف الحكيم العاقل الذي يعلم ان المطامع منشأ كل شر وويل فلذلك ارسل واستدعى اليه ثيودوسيوس وكان عمر غراطيان نحو عشرون سنة وعمر ثيودوسيوس ثلاثة وثلاثين عاماً وكانا كلاهما يديان بالدين الصحيح ويرفضان كل بدعة وخرافة . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ لما رأى ثيودوسيوس ان الاحوال الدينية قد تضعضعت في القسطنطينية وانها وصلت الى دركات الانحطاط اكثر من الاسكندرية ورومية نشر بين اهالي هذه المدينة بياناً وايضاحاً وافٍ عن كيفية الايمان وعمله ومقدار تأثير التقوى والدين في القلوب وكان قبل هذا الوقت بسنة طلب من البطريرك بطرس القبطي ان يعالج هذا الداء لعله ينجح في تقويم هذا الاعوجاج فلبى البطريرك طلبه وظل يهتم بامور القسطنطينية الدينية وينهمك في تدبير احوالها منذ ما آب من رومية الى مصر

ومن مشاهير الرجال الذين عبق عبير اعمالهم وسطع ضوء فضلهم فانار

دياجير الظلمات التي اكتنفت اواخر الجيل الرابع هو غريغوريوس النزينزي حبيج ان لاعلاقة له بتاريخ مصر ولكن ارتباطه ببطريرك الاسكندرية وعلاقته المتينة معه يسوغان لنا ذكر بعض ما اشتهر به من الفضائل والفواضل فغريغوريوس هذا هو ابن غريغوريوس اسقف نزينزن في كبدوكيا وكان قد رفع افاويق العلوم في اثينا في ذات المدرسة التي تربى فيها الامبراطور يوليانوس الكافر وباسيليوس اسقف قيصرية اللذان ذكرناهما قبلا . وكانت امياله متجهة الى الرهبنة ولكنه لم يرض ان يفارق والديه الحرمين فلذلك بقي معهما وكان يعيش عيشة الزهد والتنسك معتزلا كل عمل دنيوي مع انه كان وكيلا لابيه في اعماله . ثم ان اباه اضطره بالرغم عنه ان يقبل وظيفة كهنوتية وهو في السادسة والثلاثين من عمره وكان غرض ابيه من ذلك ترشيحه لرتبة الاسقفية التي لايمكنه ان ينالها اذا ظل علمانياً . وفي سنة ٣٧٢ صمم ابوه وباسليوس اسقف قيصرية على تعيينه اسقفاً لساسيما وهي بلدة صغيرة تابعة لمقاطعة كبدوكيا كان قد ادعى مطرانيتها انها واقعة ضمن ابروشيته . ولكن غريغوريوس رفض قبول هذه الوظيفة لاسباب بدأت له ومع انه سيم اسقفاً الا انه لم يمارس اعمال الابروشية التي تعين لها ولم يتداخل في شؤونها وبقي يساعد اباه في اشغاله الى ان مات ابوه في سنة ٣٧٤ وله من العمر مائة سنة ثم توفت امه عقيب وفات ابيه وكانت تحب زوجها في حياته فلم ترض ان تفارقه في مماته فدعاها الصوت الالهي من السماء فلبت الدعوة وفارقت هذه الدار الفانية حينما كانت جاثية تتناول العشاء الرباني

وكان لغريغوريوس اخ واخت ماتا قبل هذا الحين فاصبح هو وحيداً في هذا العالم وبقي سنتين ينظر في اعمال الابروشية التي عهدت اليه منتظراً تعيين خلف له ولكنه راى ان وجوده في هذه الوظيفة قد يدعو الناس الى الظن بانه طامع فيها راض بحمل عبئها الثقيل فلذلك اختفى فجأة وذهب الى دير شلوسيا حيث مكث فيه ثلاث سنوات في حالة الزهد والنسك

وفي سنة ٣٧٩ رفع اليه مسيحي القسطنطينية المستقيمو الرأي عريضة مهورة بامضاء عدد كبير من الاساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية فيها يلتمسون منه ان يجيء هذه العاصمة ويعمل على تثبيت كرسيهم . وكان في القسطنطينية غير شيعة آريوس اكثر من ست شيعات دينية متغايرة المبادي متباينة الافكار وكانت جميعها معدودة هرطوقة تقول بغير التعليم الصحيح . ومن اهم هذه الشيعات الشيعة المانوية وشيعة توفانيان اما غريغوريوس فلبى الدعوة وسار الى القسطنطينية حيث اتخذ لنفسه بيتاً معتزلا وبداء يعلم الناس ان يسلكوا بالتقوى والعفاف وان يبتعدوا عن المماحكات الدينية الفارغة وهي تعاليم كان قد اهمل احدها زماناً طويلا . وقد بنيت كنيسة اكراماً له سميت كنيسة القيامة وظل غريغوريوس اكثر من سنة يعاني فيها الشقى الاعمال واتعبها

وفي هذه الاثناء وفد على القسطنطينية رجل اسمه مكسيموس وهو سايح اسكندري تاريخه يدهش الالباب ستقف عليه في ما يلي . وكان

الرجل مسيحياً نصرانياً ولكنه كان فيلسوفاً شكساً شرساً . وقد ادعى انه مقر بالايمان القويم يدين للحق ولكن اعدائه قالوا عنه انه جلد بالسياط ونفى ليس لاجل ايمانه وتقواه بل لاجل سوء تصرفاته . ومن المحتمل ان مكسيموس هذا كان شديد الذكاء قوي العارضة حتى انه صرف جهده ليؤثر تاثيراً قوياً على بطرس بطريرك الاسكندرية وغريغوريوس بطريرك القسطنطينية . وقد وصفه الواصفون بانه شاب ليس حسن المنظر له شعر اشقر طويل تسترسل جدائله مستشذرات الى الاسفل حتى تغطي منكبيه . قال عن نفسه انه صار صديقاً مكيناً لغريغوريوس حتى ان هذا اخلص له الضمير بناء على كلامه المملو من الرياء والمداهنة مع ان مكسيموس ما فتئ كل هذه المدة يدس الدسائس عند بطريرك الاسكندرية الذي كان له ثقة عمياء فيه وذلك لكي يطرد غريغوريوس عنوة من وظيفته ويأخذ لنفسه الرئاسة في القسطنطينية

وكان بدء هذه الدسائس انه قال لبطرس مرة انه اخطا خطاء كبيرا في تصديقه على تعيين غريغوريوس في القسطنطينية تعييناً غير رسمي وان نقل غريغوريوس من ساسيما التي لم يقبل التوظف فيها كان غير قانوني ايضاً . ثم اتهم غريغوريوس بخشونة الاخلاق وغلاظة الطباع وقال ان اهالي القسطنطينية المهذبين يأنفون منه ويتذمرون . فمال بطرس بكليته الى سماع هذه التهمات ونوى على ارسال وفد من الاساقفة الى القسطنطينية مزودين باوامر مقتضاها تعيين مكسيموس بدلا من غريغوريوس

فلما وصل الوفد الى القسطنطينية كان غريغوريوس مريضاً لكن من فرط حبه لمكسيموس لم يتأخر عن اظهار صداقته له فقام من فراشه وسار مع الوفد الاسكندري ليلا الى الكنيسة حيث بدأوا باقامة الاحتفال لاجل رسامة مكسيموس . وكان من المحتم قص خدائر الشعر الجميلة المسترسلة على رأس مكسيموس قبل ان يلبس القلنسوة (وهي التي نادى اثناسيوس بابطالها قبل ذلك الوقت ببضع سنوات قائلا انها خصت بالكهنة الوثنيين لا بالكهنة المسيحيين) وقبل ان يتم الاحتفال اشرقت شمس الصباح فهب اهالي القسطنطينية وساروا الى الكنيسة ليعرفوا ماذا يعمل فيها فهجم الاوباش على الكنيسة وطردوا المحتفلين منها ولكن شعر مكسيموس كان قد قص في حانوت احد المزمرين فلذلك لم يطق البقاء في القسطنطينية لاجل هياج الشعب ضده فقر قاصداً تسالونيكي ليقابل ثيودوسيوس ويلتمس منه الاسعاف والمدد فرفض ثيودوسيوس مساعدته والاعتراف بسلطته فعاد راجعاً الى الاسكندرية وطلب من البطريرك بطرس ان يستعمل ماله من السلطة والنفوذ في تعضيده . اما بطرس فكان قد ازيح الستار الذي أسدل على عينيه وتجلت له صفات صديقه ومحسوبه فأبى ان يصغي اليه وطلب من الوالي انه ينفيه فنفاه من الاسكندرية . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ انتقل البطريرك بطرس الى رحمة ربه

وقد دخل الامبراطور ثيودوسيوس الى القسطنطينية دخولا

رسمياً في نوفمبر سنة ٣٨٠ وفي مايو سنة ٣٨١ شكل مجمعاً عاماً يبحث عن الطرق المؤدية لدوام السلام في الكنيسة وليبت الحكم بنوع خاص في مسألة بطريركية القسطنطينية التي كانت في حالة الارتباك والتشويش وقد أعيد انتخاب غريغوريوس الى رئاسة القسطنطينية ولكنه استقال بالنسبة الى كثرة الانشقاقات رغبة منه في دوام السلام وكانت استقالته قبل ارفضاض جلسات المجمع ثم سار الى نزينزن سنة ٣٨٣ وظل يمارس اشغال هذا الكرسي الى ان تعين اسقفاً فيها بدلا منه بناء على طلبه وحينئذ اعتزل العمل وصرف الستة شهور التي بقيت من حياته في الاشتغال بالآداب والعلوم . ومع ما اشتهر به هذا الرجل من طيبة القلب والتبحر في العلوم فقد يحتمل انه في اخر سني حياته سار على الخطة التي سار عليها امبروز في اوروبا وبوفيلس في مصر في انه استعمل نفوذه الشخصي في استمالة ثيودوسيوس نحو التحيز والتشيع الى فريق دون الآخر بدلا من ان يحمله على ايقاف سير الشحناء والبغضاء التي سرت بين تلك الشيع المتعددة

وقد جلس على الكرسي البطريركي في الاسكندرية بعد بطرس اخوه تيموثاوس الملقب بالقصير وذلك لانه وزع كل ما يمتلكه من حطام الدنيا . وكان تيموثاوس هذا عضواً في مجمع الاسكندرية وقد اشترك في المناوضات التي افضت الى استعفاء غريغوريوس وله اليد البيضاء في نشر قانون المجمع النيقاوي بالصورة التي تداولها الآن ما عدا الجملة

الافتتاحية التي مر ذكرها فلم يصادق عليها مجمع عام مطلقاً .

ولما بدأ هذا المجمع يبحث في المسألة المعضلة وهي وضع ترتيب معروف لمراكز البطريركات المختلفة كان الجميع على اتفاق تام في هذا الموضوع . ففي القرنين الاولين كانت الكراسي الخمسة التي من الدرجة الاولى هي : الاسكندرية ورومية وانطاكية واورشليم وقيصرية وكان الكرسي الاسكندري صاحب الاولوية على هذه جميعها (١) . وكان كرسي رومية يتقد حسداً لاسبقية كرسي الاسكندرية عليه ولكن بطاركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقة واللطف وحسن المجاملة رضوا بغض الاشكال ولو افضى الى التنازل عن افضليتهم . وكانت الرئاسة الفعلية والخطاب العام الذي يصدر سنوياً وفيه تاريخ عيد الفصح مصدرهما الاسكندرية . فلما اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية صار لمدينته الجديدة مركز بين البطركخانات الاصلية . فعند ما انعقد المجمع النيقاوي دهم الاسكندرية اول مصاب حط من شهرتها ذلك لان هذا المجمع قرر اعتبار التاريخ الغربي قاعدة لعيد الفصح . ومن ذلك العهد اخذت سلطة رومية الكهنوتية في الازدياد بينما الاسكندرية والقسطنطينية كانتا تحطان وتضعفان لداعي الخصومات المستمرة ولكثرة الاضطراب والقلاقل . ومن الاسباب التي اوجبت تقدم رومية ان الامبراطرة الذين

(١) في القانون الذي صدر من مجمع نيقيه وضع الكرسي الاورشليمي في الدرجة الثانية اما الرئاسة الحقيقية فكانت تتراوح بين الاسكندرية ورومية

على مذهب اريوس لم يكونوا يعبئون بها او يهتمون بأمرها بل كانوا يصرفون جل جهدهم في مقاومة بطريرك مصر والحط من شأن الاسكندرية . وفي مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ (وهو مجمع غير عام) فازت رومية بالحصول على قانون عام يقضي باستئناف المشاكل الى بابا رومية باعتباره حكماً في المسائل المتنازع فيها . وفي مجمع القسطنطينية الذي نحن في صدده سعت في الحصول على اثبات مدعاها بطريقة قانونية ليس فيما يختص بالرئاسة — لانه لا يسمح لها بها — بل فيما يختص بالاسبقية والاولوية . وكان لغراطيانوس وابيه قوة في المملكة الغربية ولذلك ادعوا الرئاسة على المملكة الشرقية ايضاً ولهذا كان الوقت مناسباً جداً لما تدعيه رومية خصوصاً ان ملك ثيودوسيوس كان تحت رحمة امبراطور اوروبا فلم يسعه التداخل في هذه المسألة او البحث فيها ولكنه كان يتمنى لو ان عاصمة مملكته (القسطنطينية) تحصل على الدرجة الثانية في الترتيب . وانتهى الامر بأن صدر قانون في مجمع القسطنطينية هذا يخول لرومية حق الرئاسة والقسطنطينية تالية لها وصارت الاسكندرية في الدرجة الثالثة بين كراسي البطاركة وكان تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وهو عضو في هذا المجمع لم ينل اصواتاً كغيره فلذلك خرج من المجمع غاضباً ساخطاً وآب مع اساقفته الى مصر حيث صرف ما بقي من حياته في اتمام الواجبات المفروضة عليه بكل هدو وسكينة وقد كتب تواريخ حيوة كثيرين من القديسين

المصريين ومع اشتغاله باعمال اخرى اصدر ايضاً تعليمات للاساقفة والقسوس يهتدون بهديها في معضلات الامور ومن هذه التعليمات المرعية ان الكاهن يتحمل على نفسه المسؤلية اذا هو رفض اتمام عقد زواج يظنه غير قانوني كأن يكون زواج الرجل بأخت امرأته المتوفاة . وفي قانون آخر انه لا يجوز الصلوة على رجل انتحر وهو مختل القوى العقلية. وفي غيره كتب رداً على سؤال وجه اليه قال« ان الذين يأكلون سهواً قبل المناولة لا يجوز حرمانهم من تناول الاسرار المقدسة لهذا السبب حيث ان الشيطان كثيراً ما يتخذ مثل هذه الطرق لمنع الآدميين من العشاء الرباني فاذا نحن حرمناهم منه فنكون كمن ساعده على تضليله »

وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البطريرك شاد عدة كنائس في الاسكندرية واذا انت تصفحت قائمة اسماء القديسين المصريين تجد بينهم اسم تيموثاوس ولكن نيبل المؤرخ يقول انه لا يمكن ان يكون القديس تيموثاوس هو هذا البطريرك ما دام ان القديسين المصريين كانوا غير متزوجين وان هذا البطريرك كان متزوجاً . ولكن حيث انه كان بين بطاركة الاسكندرية الاولين كثيرون منهم متزوجون وكانوا يعدون من ضمن القديسين ايضاً فهذا البرهان الذي اتاه المؤرخ المذكور لا يثبت هذه الحقيقة التي قلناها عن تيموثاوس ولا ينقضها

الفصل التاسع عشر

سقوط هيكل سيرابيس

سنة ٣٨٥ للمسيح و١٠١ للشهداء

بعد ان تنيح البطريرك تيموثاوس الملقب بالفقير اختير ثوفيلس خلفاً له وقد كان كاتب سر للبطريرك اثناسيوس. وقد قال عنه يوحنا النيقاوي انه ولد من والدين مسيحيين في مدينة ممفيس . يتيم ثوفيلس وهو في مهد الطفولية وكانت له اخت صغيرة ايضاً فنيط امر تربيتهما بجارية حبشية كانت ملكاً لابيهما . فحدث في ذات ليلة قبل بزوغ الشمس ان الجارية اخذت الطفلين الى هيكل الآلهة الكاذبة وفيه تمثالا ارطاميس وابولون وكانت تقصد العبادة كعادة الوثنيين . ولم يكد الطفلان يطآ ارض الهيكل حتى سقطت الاصنام الى الارض وتحطمت تحطيماً (١) فخافت الجارية اقتصاص الكهنة الوثنيين منها ففرت هاربة وجاءت بالطفلين الى بلدة نيقيوس ولكنها لم تستقر فيها طويلا لانها رأت ان اهالي هذه المدينة قد يمكن ان يسلموها الى كهنة الاصنام فحينئذ سارت بالولدين الى الاسكندرية . وكأن الهاماً من الروح القدس اوعز اليها ان تأخذ الطفلين الى احدى الكنائس لكي يتسنى لها فهم عبادة المسيحيين بطريقة جلية . فحالما ولجوا باب الكنيسة وجلسوا على مقربة من المنبر تحول

(١) ان حكاية يوحنا هذه غامضة مبهمة وقد يحتمل ان الطفلين ضربا الاصنام في انهما طرحاها على الارض وحطماها تحطيماً

نحوهم نظر البطريرك اثناسيوس فأمر ابقاء هؤلاء الاشخاص الثلاثة في الكنيسة الى ما بعد نهاية الخدمة . فلما ارفضت الكنيسة جيء بالولدين والجارية امام البطريرك فوبخ هذه الأمة لانها ذهبت بابناء والدين مسيحيين الى هيكل الوثن ثم أوضح لها ان هذه الآلهة الكاذبة لا تفهم ولا تعي ولا مقدرة لها على مساعدتها في شيء فضلاً عن انها تحطمت امام ولدين صغيرين ثم قال لها « من الآن فصاعداً يبقى هذان الطفلان في قبضة يدي »

فلما رأت هذه الجارية ان سرها قد انكشف وانها لا يسعها انكار ما فعلت طرحت نفسها على قدمي البطريرك والتمست منه ان يعمدها لكي تصير مسيحية فقبل اثناسيوس هذا الالتماس بكل ارتياح وعمدها الثلاثة معاً ثم وضع الصبية في دير بقيت فيه الى يوم زفافها اذ تزوجت برجل من بلدة المحلة (غربية) وفيها ولدت انبا كيرلس الملقب بالنجم المشرق الذي صار بنعمة الله بطريركا بعد خاله ثوفيلس

اما ثوفيلس فبعد عماده البسوه الحلة البيضاء (التونية) وجعلوه في زمرة الطلاب فشب على خوف الله وتضلع من معرفة الكتب المقدسة وكان مطيعاً لاوامرها سائراً حسب فرائضها . وقد ترقى الى رتبة شماس ومن ثم الى رتبة الكهنوت وأخيراً اختير للكرسي البطريركي اذ اضاء مدينة الاسكندرية باكملها بنور ايمانه الساطع . وقد فاز باتصال شافة الاصنام من جميع المدن المصرية حتى لم يبق واحد يعبد التماثيل

المنحوتة كما انبأ عنه القديس اثناسيوس قبل الآن

ومعلوم ان ثوفيلس كان غيوراً غيرة تفوق حد الوصف ولكنه عرف بالتقصير في مضماري الحكمة والتواضع . وكان خيراً له ان لا يكون موضع ثقة الامبراطور ثيودوسيوس ومحط افكاره لان هذه الثقة أوجدت فيه نوعاً من الخيلاء والصلف . ولدينا الآن ايضاح بسيط عن السنوات الاولى من رئاسته نبسطه هنا شرحاً لاعماله التي عملها

من ذلك ان أول واجب فرضه عليه الامبراطور هو ان يبت رأياً في مسألة عيد الفصح التي وقع الاختلال والاختلاف فيها مرة ثانية حتى انه في سنة ٣٨٧ صار الفرق بين العيد المصري والعيد الروماني مدة خمسة أسابيع كاملة . وبناء على ذلك وضع البطريرك تقويماً للاعياد لمدة ٤١٨ سنة وصنع جدولاً يحتوي على الايام التي يقع فيها عيد الفصح لمدة مئة سنة مبتدئاً من سنة ٣٨٠ . ولا تزال صورة هذا الجدول الخاص باعياد الفصح باقية الى يومنا هذا وفيها اوضح ثوفيلس افكاره بان مخلصنا صلب في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) لا في الرابع عشر منه . ثم وضع هذه القاعدة وهي : اذا كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يوافق يوم الاحد فعيد الفصح يتبعه باسبوع . ومما يحتاج الى اثبات او هو يحتمل الشك واليقين كون ثوفيلس ارسل كاهناً من قبله اسمه اسودورس في خلال اللدد والخصام بين ثيودوسيوس ومكسيموس مزوداً بخطابات شكر وتهنئة

ليوصلها الى الحزب الفائز من الحزبين

وفي نحو سنة ٣٨٩ تحصل ثوفيلس على هبة من الامبراطور هي اطلال هيكل دارس خاص بباخوس اله الخمر في الاسكندرية حيث قصد ان يبني فيه كنيسة . فعند الشروع في حفر الاساسات اكتشفت قباب متنوعة مرسوم عليها صور تدل على الطقوس الدينية لعبادة الاوثان وقد عرفت في ما مضى ان جورجيوس أساء كثيراً بتقويضه اركان هيكل الاله مثراس الخاص بالوثنيين وكذلك ثوفيلس ارتكب شططاً بالطريقة التي سلكها نحو هذه الطقوس الوثنية ولم يكن طويلاً حتى اصبحت شوارع الاسكندرية مرسحاً لخصام دائم ونزاع مستمر بين المسيحيين والوثنيين خصوصاً وان هؤلاء كانوا يسيرون يومياً نحو الانحطاط والفناء ولذا اخذ منهم اليأس والطيش كل مأخذ سيما وانهم في مدة حكم قسطنطين كانت دياناتهم الوثنية تعامل معاملة حسنة اكثر مما كان ينتظر قياساً على الحوادث التي وقعت في الاثنتي عشرة سنة التي سبقت هذه المدة. الا ان قسطنطين كان قد أبطل الذبائح الوثنية خصوصاً التي كانت تجري تحت جنح الظلام لانها كانت ذبائح بشرية تعتبر كقتل وجنايات فظيعة . اما قسطنطينوس فلم يقف عند هذا الحد بل تعداه الى مقاصة كل من خالف امر قسطنطين ومعاقبته بالموت وضم ممتلكاته لجانب الحكومة . الا ان هذين الامبراطورين كانا يحترمان الفنون ويعتبران الآثار القديمة ولذلك لم يسمحا بملاشاة الهياكل

والتماثيل التي كانت تحتوي على أهم العاديات واثمنها . صحيح انهما امرا بايصاد الهياكل وعدم تقديم ذبائح فيها ولكنهما أيضاً أبقيا عليها كآثار قديمة وأقاما لها حراساً على مصاريف الحكومة وعينا لها أدلاء يرشدون الزائرين الى مشاهدة ما فيها من الفنون والصنائع . ولما زار ايوليانوس محل تروادة القديم لم يجد ان الهياكل محفوظة فقط على غاية ما يرام بل ان الحارس صار أسقفاً لها

أما في مدة حكم ثيودوسيوس فتغير كل هذا النظام وأبدل بالمرة ذلك ان مبدأ التعذيب والاضطهاد الذي ادخله اتباع آريوس في الكنيسة وجد له منازعاً عند الارثوذكس فصاروا يميلون ايضاً الى اضطهاد كل من يخالفهم في الدين والمذهب حتى ان الرهبان كانوا اكثر الناس شراً من هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم اثمهم كل مكان خصوصاً مصر فاصبحوا فيها جيشاً ناشذاً يسيرون حفاة الاقدام حتى اشبهوا جماعة الثوار في كل اطوارهم من جهل وعمى وبعدت عنهم المعرفة والعلم ومما طوح بهم الى مهاوي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط الانسان عن ارتكاب المنكر . ثم زاد عصيانهم وصلبت رؤوسهم فلم يكونوا يطيعون آدمياً سوى رؤساء ديرهم . فهؤلاء الرهبان أخذوا في تقويض الهياكل والتماثيل الوثنية في كل انحاء المملكة وذلك ضد الاوامر الامبراطورية . ومما يستدعي الاسف انه لما عزم ثيودوسيوس على التداخل بقوته على ايقاف هذا الخراب العلم ارهبه امبروز الميلاني فأوقفه

عن قصده بالتهديد الديني . وفي سنة ٣٩٣ اصدر ثيودوسيوس أمراً يدفع به الوثنيين عن مجامع اليهود ولكنه ترك هياكل الوثنيين التي كانت آية في الرونق والبهاء تحت تصرف الرهبان فلم ينج من ايديهم الا المدرسة الرومية المخصصة لاقامة الاعياد وهيكل جوبيتر وذلك رغماً عن ارادة امبروز ولكنهما أبيدا بعد وفاة ثيودوسيوس في مدة حكم ابنه . أما في مصر فقد سارت عوامل الخراب في هاتيك الهياكل سير النار في الهشيم وذلك بامر ثيودوسيوس بناء على طلب البطريرك ثوفيلس . فلم يبق حجر على حجر من هيكل سيرابيس الا ونقض وقد كان هذا الهيكل معدوداً من أجمل الاعمال الهندسية في مدينة الاسكندرية

واذا قلنا أن اعمال ثوفيلس هذه كانت منشأ للاضطرابات والقلاقل فلنا أن نقول أيضاً ان الوثنيين انفسهم احرزوا على ما بقي لهم من الرفعة والمجد وجروا انفسهم الى الحضيض . وكان في اثناء الخصومات التي حدثت بين الوثنيين والمسيحيين ان قتل كثيرون من هؤلاء أما الوثنيون فاختاروا أولمبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائداً لهم ثم ذهبوا وتحصنوا في فتن هذا الهيكل العظيم وأخذوا يدافعون عن انفسهم ويصدون هجمات مدينة الاسكندرية التي قامت ضدهم . وقد كان هذا الهيكل كحصن حصين لانه بني على صعيد من الارض على شكل بديع وفي وسطه ردهة واسعة وكانت جدرانه سميكة مبنية على شكل هندسي دقيق تعلوها طبقة من النحاس وتر تحتها امماش وطرق سرية وهو مقسم من الداخل

الى غرف تختص بعضها بالكهنة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيها مكان هائل معد للمكتبة الكبرى التي فاقت مكتبة المتحف المصري في عظمتها وكثرة محتوياتها . ففي هذا الهيكل السامق تحصن وجوه الوثنيين ومعهم رجال ابطال أعدوا للحرب والقتال فكانوا يسخرون وهم من داخل ابوابه بالامبراطور والبطريرك معاً ولكنهم لم يبقوا على هذه الحالة طويلا بل هددوا الامن العام اذ خرجوا من حصنهم وهجموا على المدينة هجمة واحدة واحتملوا جمهوراً من المسيحيين أدخلوهم في هيكلهم وعذبوهم امام المذابح ليضطروهم لان يذبحوا للاوثان

ومعلوم ان الحكومة لا تسمح باستمرار مثل هذه الحوادث ولذلك سار ايفاجريوس والي مصر في ثلة من الجند وتقدم نحو الثائرين ثم أخذ يسرد لهم نتيجة هذا العمل الذي يعد ضرباً من الجنون ويظهر لهم سوء العقبى وصرامة القصاص الذي يقع عليهم اذا هم ظلوا يسخرون بالسلطة الرومانية . ولم يكد ينتهي من كلامه حتى قام اولمبيوس والقى في قومه خطاباً فصيحاً يحضهم على احتمال أي عناء وتعب لا ان يتركوا آلهة آبائهم عرضة للهزء والسخرية . فلذلك رفض جماعة الوثنيين المصريين سماع كلام الوالي الروماني وشاحوا بانوفهم اعراضاً عن نصائحه بانفة وشهامة عرفت عن أجدادهم الاولين

ولما كان هذا الهيكل حصيناً لا يمكن فتحه الا بعد حصار طويل وحرب عوان ترك الوالي جماعة الوثنيين فيه دون ان يفاتحهم العدوان ثم

كتب لمولاه الامبراطور يسأله اعطاء التعليمات والاوامر اللازمة للعمل بموجبها في حل هذا المشكل . فرد عليه الامبراطور ثيودوسيوس قائلا أن المسيحيين الذين قضوا نحبهم في هذه الحوادث يعدون ضمن الشهداء ولذلك يجب مسامحة قاتليهم والتجاوز عن سيآت الذين أساؤا اليهم . ثم أمر الامبراطور بهدم جميع الهياكل التي في الاسكندرية وازالتها من الوجود ما دامت هي سبب هذه الاضطرابات ومنشاء هذا الهياج والثورات

فلما ذاع خبر الامر الذي أصدره الامبراطور ودرى الناس انه سيقرأ جهاراً على رؤوس الاشهاد احتشد كثيرون من المسيحيين والوثنيين لسماع مؤداه ومعرفة ما حواه . فلما اتم الوالي قراءته صاح المسيحيون صيحة الابتهاج والتهليل أما الوثنيون فعرتهم دهشة ورعب وفروا هاربين فلما أتى المساء واسدل الظلام حجابه خرج اولمبيوس واتباعه من الهيكل وتركوه وشأنه تعبث به أيدي العبث وساروا يلتمسون لانفسهم كمناً يلجأون اليه . قيل انه لما خيم الظلام ومدّ الليل رواقه مر أحد المسيحيين على الهيكل فوجده بلقعاً بوراً ليس فيه أحد من الانس ولما اقترب الى مزاد الهيكل الذي فيه الذخائر المقدسة سمع صوتاً من الداخل يقول (لا يوجد أحد هنا) ثم تلا هذا الصوت نغمة تسبيح ختمت بكلمة (هللوياه) فعجب الرجل لهذا الامر الذي لم يعرف له سبباً ولكنك ستعرفه أنت فيما يلي

وفي اليوم التالي استيقظ سكان الاسكندرية سحراً جداً وبداء هرج الناس ومرجهم يتزايد وجموعهم تتوافد الى أن انتظم عقد الاحتفال وسار في مقدمته البطريرك والوالي راكبين جنباً لجنب وتبعهم جمهور الكهنة يرتلون ويسبحون ثم العساكر يسيرون عابسين وفي أيديهم الفؤوس والحراب وباقي ادوات الخراب . وبينما كانت هذه الجموع المكتظة تسير الهوينا كان يقول الواحد منهم للآخر ان الاتذكر تلك النبوءة القديمة التي فاه بها بعضهم وقال انه في اليوم الذى تتلاشى فيه هذه الاصنام تضمحل الارض وتتساقط السموات وتتقوض دعائم العالم باسره ويعم الخراب والفناء كل متحرك وجامد فيه . وكثيرون من المسيحيين كانوا يصدقون هذه الخرافة حتى خافوا اتمام هذا العمل لئلا تصح النبوءة وتخرب الدنيا . فلما اقترب ذلك الموكب من الهيكل صعد نحو مائة رجل على الدرج حتى وصلوا الى الطيارة الكبرى التي رقاها ذلك الشاب اوريجانوس وحده قبل هذا الزمن وقام فيها خطيباً والخطر يتهدد حياته وذلك لكي ينادي بيسوع مصلوباً الذي جاء خدامه الآن في أبهة الرئاسة وعظمة القوة تحيط بهم الجنود وتحف بهم سطوة المملكة الرومانية ليهدموا هيكلا يمثل الديانة الوثنية القديمة ويبرهن بوجوده على قوة تأثير الديانة المسيحية الحديدة وفعلها السريع

وكان كثيرون من المسيحيين الملتئمين حول بطريركهم والوالي تتراوح قلوبهم بين عوامل الخوف والفرح ولم يكونوا قد رأوا هذا

الاله العظيم الذي جاؤا ليرموا به في الحضيض وهو الذي تسلط على عقول المصريين مدة ستمائة سنة وملك افهامهم بخرافات واباطيل كان منبعها ذلك المزار المقدس الذي كانت تخرج منه أصوات لا يفهم الناس مصدرها فكانوا يعدونها اسراراً لا يقدر على ادراكها الا هذا الاله الكاذب . وقد وقف هؤلاء المسيحيون يشخصون في هذا التمثال وهم سكوت كأن على رؤوسهم الطير بينما كانت آمال جماعة الوثنيين الحاضرين تذبل ورجاؤهم في هيكلهم العظيم خاب وضاع لما رأوا عوامل الخراب والدمار تفعل فيه فعلا قاسياً . وقد يغلب على الظن ان والد هيباشا التعيسة كان بين هؤلاء الحاضرين وهو الذي صار فيما بعد شهيد هذه الديانة الهالكة . وكذلك هيباشا كانت في ذلك الوقت يطفح وجهها بالجمال الناضر مع انها لم تكن في عنفوان الشباب وكانت تنظر الى هذا الاحتفال الغريب نظرة المعجب المغضب ولا بد انها عرفت فيما بعد غلط هذه الخفلات التافهة ووخامة هذا التعصب الغبي الذي اتاه جماعة يعبدون ابن النجار الذي عاش في هذا العالم يسالم الاشرار ويؤاخي الخطاة ويأكل مع العشارين ويدخل بيت امرأة خاطئة ويعفو عن الزانية بينما عبيده وخدامه يقتصون من كل من سار على غير مذهبهم وخالفهم في مشربهم . وقد عثرنا في كتاب على وصف لتمثال الاله سيرابيس فآثرنا نقله هنا افادة للقراء الكرام وهاك الوصف :

« كان للآله سيرابيس تمثال هائل جالس القرفصاء وله يدان تمتدان

في عرض المكان وتتصلان بجدارين على جانبيه وهو مصنوع من معادن مختلفة اغبر لونه واكفهرّ منظره لمرور زمن طويل على صنعه ولكنه كان مرصعاً باحجار كريمة ثمينة لا تزال تتألق وتضيء حتى تكاد تخطف الابصار بلمعانها . وكان على صورة رجل هرم وضع على رأسه مكيالاً للغلال رمزاً على الخصب وجودة الحاصلات والى جانبه صورة رأس اسد ورأس كلب ورأس ذئب . وكانت احدى يديه على شكل افعى وذلك رمزاً على الخلود . ولا غرو ان خليفة اثنا-يوس (اي ثوفيلس) كان ينظر الى التمثال الذي يدل على عظمة الديانة المصرية القديمة نظرة معجب بها مندهش من فخامتها كما ان جماعة الاسكندريين كانوا ينظرون بعين ملؤها الاعجاب بهذه المباديء القديمة التي سادت على مصر في الازمنة الماضية سيادة لم تكن لتنزع لولا مجيء الوقت الذي فيه ملك ذلك الملك العظيم على هذا العالم فقامت كنيستة حينئذ ووضعت اعداءها تحت موطيء قدميها »

ولما بداء الهدم في ذلك الهيكل ضج قوم من الواقفين وعجواواخذ دخان يثور من افواههم يدل على ان وراءه نار قد يتأجج سعيرها اذا حركتها الازند ولذلك رأى البطريرك أن الحكمة تقضي باتمام هذا العمل في اسرع وقت لان التأخير قد ينتج ضرراً لا تعرف نتيجته الا بعد حدوثه ومن ثم التفت نحو رجل من حاملي المعاول والفؤوس وامره أن يضرب التمثال الضربة القاضية فرفع الرجل فاسه وضرب

التمثال ضربة ازعجت جماعة الحاضرين وجعلتهم يصرخون صراخ الخوف والرعب كأن عدواً قوياً فاجأهم على غرة منهم . ثم ثنى الضارب مرة أخرى فانقلب خوف القوم وصراخهم الى ضحك وقهقهة عند مارأوا رأس آله المصريين القدماء تتدحرج على الارض كالكرة مخرج من جوفه رهط من الفيران والجرذان فزعت مذعورة كمن دهمتها مصيبة أو انها كانت كمن أفرج عنه بعد طول الاعتقال فذهبت الى كل ناحية من انحاء الهيكل وهي تزحف وتركض فرحة جذلة أو خائفة وجلة . ولم يك طويلا حتى زال الخوف والرعب من القلوب وأخذ القوم فى تدمير هذا الهيكل العظيم وهم يطربون فرحاً ويفرحون طرباً ولم يتركوا فيه تمثالا الا وحطموه تحطيما . لم يدعوا فيه بناء حتى نقضوه نقضاً فساوت جدرانه السامقة الارض الواطئة وانحطت تلك المباني الفخيمة الى الحضيض الاسفل ولكن السور الخارج لم يهدم وظل قائماً مكانه الى أن صار فيما بعد بطريكخانة يقيم فيها البطريرك

أما وجوه الوثنيين واصحاب الحيثيات فيهم الذين سببوا كل هذا الهياج والقلاقل ضد المسيحيين فلم يجدوا لهم حيلة بعد الذي جرى سوى ان يتركوا الاسكندرية ويفروا هاربين الى ديار أخرى غيرها ولم يمد احد من المسيحيين يده بسوء الى هؤلاء الوثنيين مع ان هيلاديوس كاهن الاله جوبيتر صرح على رؤوس الاشهاد مفتخراً بانه ذبح مرة بيده تسع ذبائح آدمية على مذبح الاصنام الكاذبة . وقد كتب سقراط بعد ذلك

الفقرة الآتية عن هيكل سيرابيس قائلا :—

« عندما تهدم هيكل سيرابيس واصبح انقاضاً بالية وجد منقوش على حجارته كتابة باللغة الحيروغليفية لها شكل الصليب وهيئته تماماً فلما رآها المسيحيون والوثنيون قال كل فريق منهم ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة ينادون الغير . ذلك لان المسيحيين يعتقدون ان الصليب علامة الفداء وتذكار الخلاص الذي عمله المسيح للجنس البشري ولذلك قالوا ان هذه الاشارات التي وجدت على الحجارة تدل على ديانتهم وتنبئ بها اما الوثنيون فقالوا لا يبعد ان تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيرابيس في آن واحد وذلك لانها مشتركة بين المسيحيين من حيثية الشكل وبين الوثنيين من وجه الكتابة والحفر . وبينما كان الطرفان يتباحثان ويتجادلان في هذا الشأن ظهر لهم وثني اعتنق الديانة المسيحية وكان ملماً بمعرفة الحير وغليفية عارفاً باللغة المصرية القديمة فترجم لهم هذه الكتابة الموضوعة بشكل صليب واذا هي « الحياة العتيده » فلما سمع المسيحيون هذه الترجمة قالوا لم يبق بعد دليل على انها تشير الى ديانتنا وانها وضعت لتنبئ عنها . ثم ظهرت كتابات اخرى باللغة المصرية اوضحت معنى شكل الصليب هذا ايضاحاً تاماً ومعناها «انهُ عندما يبتدئ الناس يعيشون العيشة الجديدة (اي يصيرون مسيحيين) فلا بد من سقوط هيكل سيرابيس ودماره » فلما طرق هذا القول مسامع الوثنيين اقتبل كثيرون منهم الديانة المسيحية معترفين بخطاياهم تائبين الى ربهم عما فرط منهم

ثم تعمدوا بمعمودية التوبة الصحيحة »

وقد عمّ مبداء كسر الصور وتحطيم التماثيل مصر بأسرها واصاب الضرر جميع العاديات والآثار الثمينة في القطر المصري مدة القرن الرابع بما لم تصب بمثله منذ افتتاح الفرس مصر او عند أخذ المسلمين اياها لما بدأوا بعوامل الخراب فيها شيئاً فشيئاً وساروا في تدميرالهيا كل ونبش قبور الاموات سيراً حثيثاً وكان غرضهم البحث عن الكنوز التي زعموا انها موجودة داخل تلك الاجداث وهو خطأ لا يزال الكثيرون يأتونه في ايامنا هذه ولم ينج منه حتى بعض السياح الذين يجهلون الحقائق ويظنون ان كل الصيد في جوف الفراء اوان كل السعد والغنى في باطن القبور المصرية القديمة . ولم يبق اثر للهيا كل في الاسكندرية وغيرها من المدائن الشهيرة بل تساوت جميعها بالارض واخذت منها التماثيل والانصاب المعدنية وسبكت اواني واوعية للكنائس اما التماثيل الحجرية فتحطمت وسحقت ولم يسلم منها سوى تمثال له رأس نسناس اقامه البطريرك ثوفيلس في ميدان فسبح حتى يعتبر الناس به ويعلموا كنه الآلهة التي كان يعبدها اباؤهم والاجداد وكيف انها حقيرة مزدراة . ولكن هذا الصنع اسماه اموئيوس بنوع خاص وهو ذلك العلامة الوثني الشهير واخذ يتذمر ويذم هذا التشهير المعيب الذي شهرت به الديانة القديمة وكيف انها صارت هزءاً وسخرية

واما في باقي الاقاليم المصرية فكانت الهيا كل الوثنية لا تزال قائمة على

اساساتها ولم يصل الخراب الا الى بعض اجزائها فقط ولكن تماثيل الآلهة التي كانت من أحسن ما صنعت يد الانسان وابهى حد وصلت اليه الفنون المصرية القديمة اذا نحن قسناها على التماثيل اللذين نقلا لرومية — كل هذه التماثيل أزيلت وأعدمت ولم يبق منها اثر ولا عين . ولك في حكاية بومن واخوته التي سنسردها الآن اعظم مثال على عوامل التخريب التي لعبت بتلك التماثيل الثمينة

اما بومن هذا فكان له اخوة ستة او سبعة كما يقول البعض وقد صاروا جميعهم رهباناً وامتاز بومن وواحد من اخوته اسمه انوف بالشهرة الواسعة والصيت الطيب . وحدث ان جماعة التدمريين الذين عرفنا انهم غزوا مصر قبلاً استولوا على جميع ممتلكات والد هؤلاء الاخوة ثم اوردوه حتفه وطردوهم من منزلهم ففر هؤلاء الاخوة يطلبون النجاة لانفسهم من اولئك المعتدين ثم اصبحوا بلا مأوى ولا عضد جائلين في فضاء الارض ورحبها بحالة البؤس وضنك العيش الى ان حطوا رحالهم في هيكل خرب اتخذوه داراً لهم يأوون اليه . وكان انوف اكبر هؤلاء الاخوة يتألم ويتوجع لحال اخوته اكثر من غيره . وحدث انه وجد في هذا الهيكل البالي تمثالاً عجيب الصنع مطروحاً على الارض بعد ان عبده الناس زمناً طويلاً في الهيكل المذكور وسجدت له الجباه والصقت بالارض اكراماً له واجلالاً فرأى انوف ان يجعل هذا التمثال درساً لاخوته ويتخذه لهم عظة يتعظون بها فرجاهم ان يظلوا اسبوعاً كاملا

سا كتين دون ان ينبثوا ببنت شفة ولا ان يسألوه عما يفعله · وكان يهب من نومه في صباح كل يوم من ايام هذا الاسبوع ويجمع اخوته حوله بالاشارة ويبتديء يرمي ذلك التمثال بالاحجار ويكسر بعض اجزائه ثم يركع امامه ويسأله الصفح والمغفرة فلما انتهى الاسبوع سأله اخوته ايضاحاً وشرحاً عمله هذا فاجابهم ان هذا التمثال قد اهانه كثيراً حقرته تحقيراً فلم يشك ولم يتذمر لانه صنع ايدي الانسان فهو يعارضه في عمله · كذلك يجب على الانسان الخضوع التام لارادة الله اعماله دون ان يعترض او ينقم

وبعد مضي بضع سنوات على هذه الحادثة علمت امهم ان ابناءها رهبنوا وهم يقطنون دير وادي النطرون فطلبتهم بشوق معروف عن والدات خصوصاً وسارت تجد الخطى حتى وصلت هنالك ولكن من رفض مقابلتها بالمرة وسبب ذلك ان شظف العيش وضيق الحال هاتيك المصاعب والمتاعب افقدت الاحساس الشريف واضاعت العواطف الحية من قلب بومن هذا حتى انه أبى النظر الى وجه امه التي ولدته · ومما يندرج ضمن هذا الباب ايضاً ان ابن أخت بومن كان قد حكم عليه بالاعدام فرضي الوالي بالعفو عنه اذا تداخل بومن في امره وطلب العفو عنه وذلك لشهرته بالتقوى والعفاف ولكن بومن يعبأ بتوسلات اخته التي حركت الجماد ولم تحرك قلبه بل اجاب رجاها بهذه العبارة «اذا كان الشاب يستحق الموت فليمت والا فلا بد ان الحاكم يبرئه»

وفي وقت حكم البطالسة كان مقياس النيل المقدس محفوظاً في هيكل سيرابيس فلما ملك قسطنطين نقل هذا المقياس من هيكل سيرابيس ووضع في الكنيسة القيصرية الكبرى «سيزاريوم» ثم أعيد الى ذلك الهيكل بامر من يوليانوس الملحد · فلما خرب الهيكل خراباً كاملاً نقله المسيحيون الى كنيستهم باحتفال باهر فتنبأ الوثنيون نبوة مفادها ان الآلهة سينتقمون لانفسهم بمنع النيل من الفيضان حتى لا يروي الاراضي · وكان النيل قد تأخر في الزيادة عن ميعاده السنوي فصدق صغار العقول من الوثنيين والمسيحيين ان الآله سيرابيس انتقم منهم حقيقة وقاصصهم على تخريب هيكله فزاد ضجر الناس وقلقهم وتفاقم الشر حتى خشي الوالي الخطر من هؤلاء الناقمين وكتب يسأل المرجع الاعلى عما اذا كان مناسباً ان يرد شر جماعة المتمردين ويكفي الحكومة مؤونة الثورة والهيجان بان يجعل مقياس النيل تحت رعاية الكهنة الوثنيين وتصرفهم · فاجابه الامبراطور ثيودوسيوس جواباً مختصراً مفحماً هو «اذا كان النيل لا يفيض الا بواسطة السحر والرقى او بذبح الذبائح وتقديم المحرقات فخير له ان لا يفيض وان تبقى مصر ظمآنة الى الابد»

ولم يكد هذا الامبراطور يصدر امره الآنف ذكره حتى تغير الحال واخذ النيل في الفيضان بسرعة زائدة حتى خاف الناس الغرق بعد ان كانوا يخافون الشرق وزال بذلك خطر الثورة فتنعم بال المسيحيين واستراح خاطرهم

الفصل العشرون

﴿ الاخوة الطويلو القامة ﴾

﴿ سنة ٣٩٠ للمسيح و١١١ للشهداء ﴾

في سنة ٣٩٤ سار البطريرك ثوفيلس الى القسطنطينية ليحضر مجمعاً آخر عقد فيها لفض بعض المسائل التي اودت الى خلاف بين جمهور الاساقفة المتبايني الاغراض والغايات . وقد حضر هذا البطريرك الاحتفال بتدشين كنيسة كبرى بنيت اكراماً للرسولين بطرس و بولس كان الوالي قد شادها في دغلة حول مدينة خلكدونية تدعى دغلة البلوط . و يحتمل انه في هذه السنة عينها ان ارسينوس استعفى من وظيفته وهي تعليم ابني الامبراطور وتهذيبهما وصار راهباً واتخذ ارض مصر موطناً لرهبنته وهو رجل عالم فاضل عرف بين اترابه بسعة العقل وغزارة المادة والتضلع في المعارف النافعة وربما كان قد عاد مع ثوفيلس عندما جاء من القسطنطينية الى مصر بعد ارفضاض المجمع

وفي سنة ٣٩٥ توفي الامبراطور ثيودوسيوس فاقتسم ولداه المملكة قسمين فخص اركاديوس المشرق وهونوريوس المغرب . وفي سنة ٣٩٨ ذهب ثوفيلس مرة ثانية الى القسطنطينية ليرسم يوحنا كريسوستم بطريركا لهذه الابروشية . قيل ان ثوفيلس اتم هذه الرسامة رغماً عنه لان ارتفاع كرسي القسطنطينية الى درجات الفخار فوق الاسكندريه كان قد ساءه جداً كما ساء سلفه تيموثاوس من قبله ولذلك تمنى لو يمكنه ان يعين شخصاً من

خاصته في هذا المركز بدل تعيين رجل مشهور قادر مثل يوحنا المذكور آنفاً

ولحد هذا الحين كان ثوفيلس على وفاق ووئام تام مع جماعة الرهبان العديدين في مصر خصوصاً مع رهبان وادي النطرون الذي هو اكبر دير واقرب لمدينة الاسكندرية من غيره وكانوا قد ساعدوه في هدم الهيا كل وتدميرها فمدح غيرتهم ومروءتهم وكافأهم على ذلك بان رقى بعضهم الى رتبة الاسقفية كلما كانت تسنح له الفرصة . وبين الذين ترقوا ديسقوروس احد الاخوة الطويلي القامه تعين اسقفاً لواحة هرموبوليس (المنيا) كذا شقيقاه يوساب ويوثيموس كان ثوفيلس قد طلب منهما ان يتركا ديروادي النطرون ليعينهما رعاة في كنيسة الاسكندرية . وفي سنة ٣٩٩ دارت المكاتبة بين ثوفيلس وجيروم قصد منها ذلك ان يسوي الخلاف بين جيروم ويوحنا اسقف اورشليم وهو من رهبان وادي النطرون وكانت النتيجة ان جيروم رد على بطريرك الاسكندرية قائلاً « انك لم تعرف كيف يكون الصدام مع الخصم في حومة الجدال ولم تعتد لقاء العدو غير هياب ولا وجل لانك الفت رهباناً يحتفلون بك ويجلون قدرك عند مقابلتهم اياك بل هم يحيونك ويبيونك باخلاص وولاء لانك لم تظلمهم او بالحري لم تقس عليهم في شيء) « ١ »

(١ يظهر ان جيروم هذا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لدير في بيت لحم كان ميالاً ميلاً طبيعياً الى الشقاق والخناق . فقد سبق له انه غضب وصخب مع صديقه القديم روفينوس الذي كان سابقاً مع ميلانيا في جبل الزيتون عندما هجر مصر لقاة سنة ٣٩٧ عندما ذهب الى رومية وكذلك تناقر جيروم مع ثوفيلس بشان اسقف مصري كان هذا قد حرمه وطرده فقبله جيروم عنده باكرام وتبجيل

وقد أورد مؤرخو ذلك العصر ادلة كثيرة تؤيد تفضيل هذا البطريرك للرهبان اتباعه وايثارهم على غيرهم في الخطة التي وضعها اثناسيوس لسوء الحظ وهي اختيار الاساقفة من بين الرهبان العذاب بدلا من اختيارهم من بين القسوس المتزوجين . واذا نحن بحثنا في النتائج التي نجمت من هذا التفضيل لرأينا ان الجهل والعمه فشيا بين جماعة الرهبان للسبب المذكور كما انهم تدرجوا في مبادئ العجرفة والغطرسة منذ تسليم مقاليد هذه الوظائف اليهم . ولك دليل متين على هذه الغطرسة والخيلاء هي ان العلامة ارسينوس ذلك الرجل الطيب الارومة الشريف المحتد لما نوى على الرهبنة وجاء ليقدم نفسه الى رئيس دير برية شيهات وكان اسمه يوحنا وتوسل اليه ارسينوس بكل تواضع وخضوع ان يقبله عنده ليكون في زمرة هؤلاء الرهبان فاعرض هو ورهبانه عنه وذهبوا يتناولون طعامهم جلوساً بينما هذا العالم الفاضل واقف يتلظى كانه على مقالي الجمر (١) واخيراً رمى له واحد منهم بقطعة من الخبز الجاف كأنه كلب فجثى ارسينوس والتقمها التقاماً . فلما رأى الرئيس منه ذلك قال بصلاحيته للرهبنة وصرح له بالبقاء مع الرهبان حتى يدرس قانون الرهبنة درساً مدققاً ويسير على فرائضه واحكامه وعين له صومعة يقيم فيها في سفح جبل المقطم حيث قضى اربعين عاماً معتزلا

(١) ان مبداء العنف والقسوة الذي سارت عليه الاديرة المصرية مع كل طالب للرهبنة راغب فيها لم يقتصر على مصر بل تعداها الى اوروبا حتى صار قانوناً مرعياً في قوانين الرهبنة هنالك

وحيدا . وقد عزم الامبراطور اركاديوس تلميذ ارسينوس ومربيه ان يرقى استاذه هذا ويمنحه اقصى درجات المجد والشرف وينعم عليه بجزية مصر وخراجها ليصرفها على الفقراء والاديرة فاجابه اركاسينوس انه مادام قد مات عن هذا العالم وصلب الجسد مع الاهواء والشهوات فهو لا يهتم بالدراهم ولا يعنيه أمر توزيعها وتقسيمها بين الناس . ومع كل ذلك فلم تخمد نار غيرته الوطنية ولم يزل حاذقاً وديعاً طيب القلب نقي الفؤاد . والذي يراجع الروايات المنقولة عنه يظن لاول وهلة ان عيشة العزلة والانفراد اثرت في طباع هذا الرجل فجعلته شكساً جافي المراس ولكن الحقيقة التي لا مرية فيها هي انه اختار راهباً اعتاد على السرقة والخطف واتخذه له خدنا ورفيقاً واسكنه معه في مغارته وكان قصده من ذلك ارجاعه عن عادته هذه واصلاح حاله . والذي يقلب صفحات الكتاب المسمى « نصائح للرهبان » المسند اليه يرى مقدار الشعور العميق الذي كان يشعر به هذا الفاضل من التجارب الكثيرة التي يقع فيها جماعة الرهبان وكيف انه حذر كثيراً وانذر طويلا في هذا الصدد مما يدل على الخبرة الواسعة والباع الطويل

وكان البطريرك ثوفيلس قد جاء الى الدير لزيارة ارسينوس فقال له هذا انه يرجوه امرا واحدا . قال البطريرك وما هذا . اجاب ارسينوس اني اطلب منك ان تعود ادراجك دون ان تقابلني لانني لا ارغب في رؤية آدمي قط . وحدث ان سيدة من عقيلات رومية كانت تعرفه من قبل جاءت لزيارته وسارت المسافة بين الريف

ووادي النطرون مشياً على الاقدام لكي تراه اما هو فتلقاها بفظاظة وعبوسة وابى مقابلتها فشكت هذه الفاضلة امرها لثوفيلس فطيب هذا خاطرها وقال لها انها واحدة من بنات حواء لا ينتظر من قديس تقي مثل ارسينوس ان يخاطبها او ينظر الى وجهها

وقد كان في طوق البطريرك ثوفيلس ان يحتمل الكبرياء والغطرسة اللتين شبت عليهما جماعة الرهبان لما جهلهم فكان مما لا يطاق ولا يحسن السكوت عليه لما فيه من الخطر وسوء المصير يدلك على ذلك انه في سنة ٣٩٩ لما اصدر البطريرك رسالة الفصح السنوية اغتاظ اولئك الرهبان الجهلاء من عبارة بسيطة وردت فيه وكان سبب غيظهم سوء فهمهم وقصر ادراكهم مع سفالة في الطباع وانحطاط في الاخلاق . اما تلك العبارة فهي قوله ان الله روح لا يدركه انفهم وليس هو مجرد انسان عظيم الشأن يجزاء ويحد ويحصر كما هو شأن الآدميين

فلما قراء اؤلئك العميان هذه الرسالة حنقوا وهاجوا هياجاً غير منتظر وقام جيش جرّار منهم ترك وادي النطرون وسار في عرض الصحراء الى ان وصل الدار التي يقيم فيها البطريرك فاحتشدوا حولها كالنمل واخذوا يصيحون ويتوعدون و يتهددون البطريرك بالموت العاجل ان لم يسحب كلامه ويعدل عن رأيه المذكور قبل

فاحتار ثوفيلس واضطرب اذا رأى نفسه وحيدا لا سنيد له يدافع عنه ضد هؤلاء الناقمين الذين كانوا يموجون كالبحر الزاخر و يرغون

ويزبدون كانهم جيش عرمرم ملّ من طول الانتظار وطلب الكفاح والقتال فلم يجد هذا البطريرك الضعيف حيلة سوى ان يتملقهم فناداهم قائلا «اني اذا رأيت وجوهكم اشعر كانني نظرت الله وجهاً لوجه لانكم على صورته ومثاله» ولكن هذا التملق لم يكن ليسكتهم او يوقفهم عند حدهم بل صاح بعض الزعانف منهم طالبين من البطريرك ان يحرم اوريجانوس وشيعه لانهم اعتبروا ان البدعة التي ذكرها البطريرك في رسالته حسب زعمهم قد اقتبسها من اراء اوريجانوس وافكاره فلم يرضوا الانصراف من امام البطريركية الا بعد ان وعدهم البطريرك باجابة ملتمسهم بحرمان اوريجانوس اما الاخوة الطويلو القامة فاتقوا من تصرفات هذا البطريرك وازدروا بهذا التملق فعادوا راجعين الى وادي النطرون دون ان يقابلوه ولكن الخلاف لم يمض ولم ينته امره فاضطر ثوفيلس ان يصالح هؤلاء الرهبان المتحفزين للثورة بل يخشى انه استخدم بعضهم في المصالح الكنائسية خوفاً من قوتهم واتقاء لبطشهم وعنفهم (١)

وكان ايسودورس امين صندوق كنائس الاسكندرية صديقاً حميما

(١) ان جميع الرهبان لم يؤلوا رسالة البطريرك ولم يفهموها بالمعنى الذي فهمها به اؤلئك البلداء . فان راهباً من اكثر الرهبان جهلاً كان يعبد الله كأنه انسان محصر اللفظ وكان هذا الراهب واسمه سيرابيون قد بلغ من الكبر عتياً فكان مبجلا معظماً في دير برية شيهات . وقد ظلّ على اعتقاده هذا مدة من الزمن الى ان وقت بينه وبين رئيس الدير وشماس كبدوي عالم مباحثة وجدال اقتنع منهما بخطائه في فهم الكتاب المقدس واخذه بمعناه الحرفي بل يجب تفسيره روحياً لان الحرف يقتل اما الروح فيحيي

ثوفيلس ودامت الصداقة بينهما مدة من السنين ولكن الحال تغير لاسباب. واستحالت الصداقة عداوة واستحكم الخلاف بين الاثنين . ولما كان ايسودورس منحازاً لمذهب القائلين بالوهيه الله وروحانيته اتخذ ثوفيلس هذا الاعتقاد واسطة للايقاع به بان حازب اولئك الرهبان الكافرين الذين كان ينفر منهم ومن معتقدهم قبلا وحرضهم ضد ايسودورس . وقد ذكر بعضهم اسباب كثيرة قالوا انها كانت منشاء لهذا الخلاف الشديد ولكن الذي يقرب من الذهن ان سببه مسائل مالية تختص بالدراهم التي هي علة كل شقاق وسبب جميع البلايا في هذا العالم

اما فيما يختص بمال الكنائس فكانت العادة ان جميع العطايا والهدايا التي يهبها جماعة المؤمنين لكنيسة الاسكندرية تبقى في حوزة البطريرك وتحت تصرفه واما في الابروشيات الاخرى فكان الاساقفة يتصرفون في نقود الكنائس بالاتفاق مع لجان تعين لهذا الغرض . وقد امتاز ثوفيلس عن باقي البطاركة بميله الشديد الى انشاء الابنية وتشييد الكنائس حتى انه كان يصرف اكثر الايراد الذي يجمعه في بناء كنائس فاخرة وتزويقها. وحدث ان سيدة اسكندرية موسرة تبرعت بصرف الف قطعة من الذهب في شراء ملابس للنساء الفقيرات ولكنها خافت ان يسمع البطريرك بخبرها فيأخذ منها المال ويبني به كنيسة بدل الملابس ولذلك عمدت الى امين الصندوق واسرت له الامر وجعلته يقسم لها ايماناً مغلظة بان يؤدي لها هذا الامر سراً وان لا يقول للبطريرك شيئاً عن هذا المال ولكن الخبر

ظل مكتوماً فان بعض النمامين اخبروا البطريرك به فلم يقبل كلمة في الامر تدل على تغيظه ولكن عند ما بدأ الخلاف بينه وبين ايسودورس انتهز هذه الفرصة واتهم هذا الرجل باهماله في وظيفته وعدم مقدرته على القيام بها وقال بعضهم بل انه رماه بتهمات قديمة لا اساس لها ولم يثبت منها واحدة ضده

اما فيما يختص بامر الملابس فان ايسودورس دافع عن نفسه فيها دفاعاً حسناً وقال للبطريرك كلاماً قاسياً مؤداه انه خير ان يصرف المال في شفاء المرضى وكساء الاجسام العارية التي تعتبر هياكلا لله بدلا من بناء حيطان وجدران لا تدعو الضرورة الشديدة اليها

وقد سبق معنا القول ان ثوفيلس اضطر ان ينحاز لجماعة الرهبان الذين يخالفون مبداء اوريجانوس الصحيح او هم الذين يضادون الاعتقاد بالوهية الاله . وحدث انه في اوائل السنة التالية شكل هذا البطريرك مجمعاً شجب فيه مبداء اوريجانوس وسفه تعاليمه (١) وكان ذلك اتماماً لوعد منه لاولئك الرهبان الاغبياء . ولم يكتف البطريرك بذلك بل انه في رسالة الفصح لسنة ٤٠١ كتب ضد اوريجانوس كلاماً مؤلماً وذكر عنه غلطات وهفوات لم تعرف عن هذا الرجل النابغة ولم يكن لها وجود الا في مخيلة ثيوفيلس

(١) ان اثاسيوس بابا رومية اصدر ايضاً حرماناً ضد اوريجانوس في الوقت الذي حرمه فيه ثوفيلس ولكنه اعترف فيما بعد انه لم يكن يعرف شيئاً عن اوريجانوس او ما في التعاليم التي فاه بها هذا الفاضل

واخيراً حكم عليه بانه هرطوقي مبتدع . ولما استفحل الخلاف بين البطريرك وايسودورس في السنة عينها اضطر هذا ان يهرب ويقيم في دير وادي النطرون مع جماعة الرهبان الموجودين فيه فلم يكن من ثوفيلس الا ان اصدر امره الى اساقفة الابروشيات ورؤساء الاديرة بنفي جميع الرهبان الذين يذهبون مذهب اوريجانوس او يقولون بقوله فلم يسكت امونيوس اكبر الاخوة الطوال القامة بل جاء الى الاسكندرية يرأس وفداً من الرهبان ليحتج ضد البطريرك على عمله هذا ويعترض على اعتباره اياهم مبتدعين لانهم رفضوا قبول فهم الكتاب المقدس فهماً حرفياً ناقصاً كما قبله جماعة الرهبان الاغبياء الجاهلين . ولما كان ثوفيلس يهاب سطوة هؤلاء المتغطرسين ويميل الى مذهبهم ولو ضد ضميره خاف شر الحرافيش والاوباش منهم واضطر ان يمالي الجهلاء ضد هذا الوفد الذي كان رائده الاعتدال وقائده الحجة القوية والبرهان الصحيح ولذلك سار معهم ثوفيلس سير المعتسف المغشوم حتى قيل عنه انه لطم امونيوس على فمه ودعاه مبتدعاً لانه رفض ان يحرم اوريجانوس ويسفهه . ومن غريب الامور ان خمسة من رهبان دير النطرون الذين لا هم في العير ولا في النفير لجهلهم وغباوتهم ارادوا ان يصلحوا ذات البين بينهم وبين البطريرك فطلبوا منه ان يصرح لهم بابتداع تهمات كاذبة ضد ثلاثة من مشاهير الرهبان وعظمائهم فاجاب طلبهم وكانت النتيجة ان البطريرك حكم على هؤلاء الاكابر بالحرمان

اما الوفد الذي جاء مع امونيوس فعاد قافلا الى وادي النطرون

بنفس كبيرة وقلب حزين ورضي اعضاؤه من الغنيمة بالاياب ولكن ثوفيلس لم يرض بل صار يسعى لاقلاق بالهم وتعب سرهم . ولم يبق ريب لدى هذا البطريرك في ان ازدياد الرهبان وتكاثر جموعهم واتساع دائرة سطوتهم ونفوذهم كانت من اشد الامور خطراً على مصر ومن فيها وهذا امر ثابت مؤكد لا مشاحة فيه ولا اعتراض عليه . ولكن هذا البطريرك لم يتخذ طريقة لقطع شأفة هذا الداء ولم يأت عملا يبرره في اعين الناقدين بل سار سيراً يوجب الاسف كل مدة رئاسته المشؤمة

وقد انقضى زمن الخلاف والشقاق وعاد رهبان دير وادي النطرون الى اعمالهم اليدوية الدنيوية وصاروا يجدون خلف الكسب وجمع المال . وقد كان بينهم الحائك والنساج وصانع الحلويات والطبيب وطالب العلم وكل أرباب الحرف والصنائع . وبقوا ساكنين سا كنين يصلون في كنيسة لهم كبرى تحيط بها ثلاث نخلات وكفوا عن الشقاق والخصام ولكن ثوفيلس لم يرق له هذا السكون فطلب من الوالي الروماني ان يمده بقوة عسكرية يهاجم بها جماعة الرهبان الآمنين فسار الى ديرهم تحت جنح ليل بهيم فاقلق بالهم وحرك ساكنهم عند ما سمعوا سنابك الخيول التي يمتطيها الجيش الروماني ترنّ في الفضاء فيسمع لها دوي يوقع الرعب في القلوب

فهاج الرهبان وذعروا لما بلغهم ان بطريركهم جاء ومعه جيش مزبد لكي يلقي القبض على اتباع اوريجانوس ومريديه وساد القلق

والخوف في نواحي الدير وذعر كل واحد فيه وهرع ثلاثة من أولئك الاخوة المعروفين الى الاختباء في بئر عميقة وذهب رابعهم ديسغورس وكمن في ركن من اركان الكنيسة ولكنه لم يلبث ان عرف مكانه جماعة من الحبشان المرافقين للبطريرك كانوا يتمايلون ثملين من بنت الدنان فاخرجوه من كمينه بقوة وعنف . اما العساكر فظنوا ان هذا الدير انما هو مدينة محصنة يجب أخذها قسراً واقتداراً وذلك رغماً عن طلب ثوفيلس لهم ان لا يفعلوا ذلك ولكنهم لم يذعنوا لقوله بل مالوا على الصوامع فنهبوها واضرموا فيها النيران ومات راهب حرقاً داخلها كما اثبت ذلك شهود عدول

فلما لاح الفجر وبدت تباشير الصباح كفّ العساكر عن عملهم القاسي خصوصاً لالحاح ثوفيلس عليهم بذلك ولانهم ممتعنين لا بد من مقاومتهم مقاومة لا تخلو من الخطر فلذلك اضطر الجنود ان يقفوا جانباً بعد ان ردوا سيوفهم في اغمادها ثم دعى ثوفيلس جماعة من الرهبان ليعقدمنهم جمعية يطرح عليها كلامه وافكاره بسلام ووئام بدلا من الحرب والخصام ثم قرأ على مسامعهم بعض نبذات مما كتبه اوريجانوس والغازه الغامضة — وهي لا علاقة لها بايمان الرجل ولا تدل على مقدار اعتقاده — ثم استنتج منها ما توهمه فيها من البدع التي ودّ ان يقتنع الرهبان بصحة نسبتها وحينئذ خاطبهم قائلا : — « فلهذا السبب حكم على حلفاء اوريجانوس واتباعه بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم

بل وضعوا يدهم عنوة على كنيسة دير وادي النطرون وقفلوها في وجوه الاساقفة ورؤساء الاديرة وصاروا يمسكون في أيديهم النبابيت مغطاة بسعف النخل لكي يفاجئوا كل من يقف في طريقهم فاضطر الرأي العام الارثوذكسي الى وضع حد لهذه القلاقل وتم الامر الآن على ما نريد ونشتهي

أما الاربعة الاخوة الذين اختبأوا في الدير فلم يمكثوا فيه طويلا بل ساروا الى فلسطين حيث قضوا بعض ايامهم يسكنون آمنين في سفح جبل جلبوع وهم يمارسون عمل الاقفاص من جريد النخل وهي صناعة تعلموها في مصر وتبعهم كثيرون من الفارين حتى زاد عديدهم زيادة تستدعي الالتفات وكان جماعة المسيحيين في فلسطين يرمقونهم بعين الاحتقار والفتور لعلمهم أن بطريركهم حرمهم ونفاهم ولكن بعض الاساقفة اظهر نحوهم حناناً واشفاقاً فعنّفهم البطريرك ووبخهم ورجاهم بان لا يعودوا ويمتزجوا بهؤلاء الرهبان لئلا يعد عملهم هذا سبة ويحسب ذنباً واهانة في عرف جماعة الجهلاء ولما ضاق الحال على هؤلاء الرهبان المنفيين — وكان عددهم قد بلغ الخمسين — رفعوا دعواهم الى يوحنا بطريرك القسطنطينية

وفي أواخر سنة ٤٠١ مثل امام بطريرك اسطمبول أولئك الرهبان الهرمن الذين اضناهم طول السفر وأضر عظمهم البلاء المر فلما رآهم هذا

البطريرك فاضت عيناه بالدموع الغزيرة رثاء لحالهم وتوجعاً لمصابهم وسألهم ان ماذا افعل لكم وأي طريقة تخفف ويلاتكم . فطلبوا منه أن ينصفهم من بطريركهم الذي جار عليهم واعتدى وهضم حقوقهم دون ان يخشى ربه أو يخاف لوم اللائمين ثم وقف كليم فصيح من بينهم وخاطب البطريرك بصوت جهوري قائلا : ـ

(اذا كنت تراعي خاطره ولا تعمل على تنفيث كربنا فنضطر حينئذ الى رفع دعوانا الى الامبراطور نفسه وكل الذي تطلبه منك أن تسترضي ثوفيلس حتى يسمح لنا باستيطان وطننا ومسقط رأسنا فاننا لم نجن ذنباً ضده ولم نرتكب اثماً يستمطر غضب الله علينا)

فوعدهم البطريرك يوحنا خيراً واخبرهم انه سيبذل جهده في مساعدتهم على شرط ان لا يقدموا مسألتهم أمام السلطة المدنية ولا ان يحدثوا هياجاً واضطراباً في المدينة ثم ختم كلامه لهم بقوله (حيث انني كتبت لاخي ثوفيلس في هذا الصدد فعليكم بالصبر حتى يجيء رد الجواب) وقد اظهر لهم كل لطف وايناس واسكنهم في مخادع كنيسة القيامة وكان في ذلك الوقت يبحث في هذا الامر مع جماعة من اكليروس الاسكندرية كانوا ارسلوا الي ديوان الامبراطور لاشغال تختص بوظيفتهم وصار يستشيرهم في الامر . فقالوا له ان رهبان دير وادي النطرون تحملوا الهوان في المعاملة التي عوملوا بها ولكن هؤلاء القسوس ارتأوا ان رفع

هذه الدعوى الى بطريرك القسطنطينية لا ينتج نتيجة حسنة ولا يأتي بفائدة ثم طلبوا من هذا البطريرك ان لا يتسرع في قبول هؤلاء الرهبان على مائدة العشاء الرباني لئلا يكدر خاطر بابا الاسكندرية بعمله هذا ولكنه اذا رغب في اظهار الشفقة والحنو لهم فليظهرها بطرق أخرى غير طريقة المناولة

فقبل بطريرك القسطنطينية نصيحتهم وكتب الى ثوفيلس يرجوه ايجاد وسائل السلام والسكينة ولكن ثوفيلس لما بلغه ان هؤلاء الاخوة ساروا الى القسطنطينية ارسل الى بطريركها مكاتيب اللوم والتعنيف التي كتبها الى اساقفة فلسطين قبل حين عاتب منهم عدم الاختلاط مع هؤلاء الرهبان ولكنه لم يكتف بذلك هذه المرة بل اتهمهم بتهمة جديدة هي انهم ليسوا فقط اهل بدعة وشقاق بل هم سحرة يخاطبون الجن ويلتصقون بجماعة المفاريت (١) فاهاجت هذه التهمة الشنيعة سخط عامة اهل القسطنطينية ضد هؤلاء الاخوة المساكين حتى كانوا يزجرونهم ويهزأون

---

(١) لا شك في ان القلب الذي ابتدع هذه التهمة ضد اولئك الرهبان كله حقد وغل لانها صادفت ارضاً ذات زرع في مصر التي نشأ فيها الجهل بسرعة غريبة بدل ذلك العلم الذي فاقت به الامصار الاخرى في قديم الازمان ووصلت الغباوة في هذه البلاد الى درجة كان فيها كل عالم يمارس العلم ويتبحر في فنونه يتهم بالسحر والتنجيم والعياقة والقيافة وفي اشكال الخرافات الاخرى وهكذا كان العلم في جميع انحاء المملكة الرومانية يعد خرافة وجهلا

بهم على قارعة الطريق فخزن اكثر الرهبان لاتهامهم بهذه التهمة التي يعرفون انها سيئة النتائج فلذلك انفذوا الوسطاء والشفعاء الى ثوفيلس يرجونه صفحاً ومغفرة ولكن الاربعة الاخوة واصدقائهم الاخصاء نظروا الى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتقار ولم يعبأوا بها قط بل أعدوا تهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها لبطريرك القسطنطينية

فكتب هذا البطريرك الى ثوفيلس مرة أخرى واظهر له اسفه الشديد من ان خصومه جروا معه على الخطة التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القسطنطينية فلم يفلح . فاجابه ثوفيلس جواباً مملوءاً من الغضب والحنق وقال :

(اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذي وضعه المجمع النيقاوي القاضي بعدم تداخل اسقف أو بطريرك في المسائل التي لا تنحصر ضمن دائرة سلطته فارجوك أن تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكف عن الصدام والجدال معي . أما اذا قضى الزمان علي بالمحاكمة فسوف يحاكمني اساقفة مصريون لا انت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا يقتضي لوصولنا اليهم أو لوصولهم الينا سفر ٧٥ يوماً كاملة .)

فقرأ يوحنا كريسوستم هذا الجواب بالرضى والاذعان واخذ يسعى جهده في اقناع الاخوة الطوبلي القامة واصدقائهم على فض هذا المشكل

بالحسنى وابطال رفع الدعاوي التي تولد الحقد والغل ولكن هؤلاء لم يرضخوا بل استأنفوا قضيتهم الى الامبراطورة ايدوكسيا وتوسلوا اليها ان تأمر بسماع دعواهم قانونياً . وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار امره باستدعاء ثوفيلس الى القسطنطينية حتى يمكن للبطريرك كريسوستم ان يفحص المسألة بنفسه ويبت فيها حكماً قاطعاً . ومعلوم ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثوفيلس وهضما لسلطته لانه بصفته بابا الاسكندرية كان مساوياً في القوة والعظمة للامبراطور اركاديوس نفسه وله في مصر ما لهذا الامبراطور من النفوذ والسلطة لان الامة المصرية كانت تعتبر بطريركها اعتبارها للملك المتوج بل لم تكن هذه الامة تهتم كثيراً بامر اولئك الامبراطرة لبعدهم عنها . فلما صدر الامر لثوفيلس بالذهاب الا الاسكندرية لم يرفض الطلب رفضاً باتاً كما انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعوى ضده غيابياً وافتتحت بفحص الشكاوى الموجهة نحو رهبان وادي النطرون فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم المجمع بسجن الخمسة رهبان الذين انفذهم ثوفيلس ليشتكوا ضد رهبان وادي النطرون وظلوا في السجن الى ان توفي بعضهم وكان ثوفيلس في هذه الاثناء قد ارسل مكتوباً الى ايفانيوس اسقف سلاميس يرجوه فيه الذهاب الى القسطنطينية وعرض قرار المجمع الاقليمي الخاص بحرم اوريجانوس والحكم عليه كهرطوقي على كريسوستم ليصدق

عليه ويمهره بختمه ولكن هذا البطريرك رفض ذلك قائلا ان هذه المسألة تحت نظر مجمع عام فهو يحكم فيها حسب القانون

وفي سنة ٤٠٣ سافر البطريرك ثوفيلس قاصداً القسطنطينية واشاع قبل سفره انه ذاهب اليها ليخلع يوحنا (١) بطريركها من وظيفته قصاصاً له على اعماله التي اتاها ضده . فسار البطريرك المصري الى عاصمة المملكة في ابهة السلطان تحف به حاشية من اساقفة مصر والحبشة وتحيط به زمرة من الكهنة والقسوس كما لو كان من الملوك والسلاطين فالقت سفينته مرساها في مياه البوسفور التي كانت تنعكس اشعة شمس شهر يونيو على مياهه فيخالها الرائي لجيناً أو عسجداً فجاء بحارة المراكب المصرية التي كانت راسية هنالك حاملة ضريبة الحنطة وادوا له واجبات التعظيم والتبجيل وهم يفرحون ويطربون ولكن قسوس القسطنطينية لم يغدوا لاستقباله او الاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة بالقسطنطينية بل قصد خلكدونية ومكث بها حيث لاقاه سيرينوس اسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم واحسن وفادته . فلما استقر به

(١) ان كلمة « كريسوستم » هي لقب اطلق على بطاركة القسطنطينية ومعناها « فم الذهب » او « ذهبي الفم » . وكثيرون من القراء يعرفون يوحنا فم الذهب الاسكندري المصري الذي اشتهر بزلاقة لسانه وطلاقة بيانه واصله فيلسوف وثني مشهور بين كبار العلماء في ذلك العصر

المقام ارسل يستدعي كريسوستم بانفة وعزة نفس يعز نظيرهما وطلب منه الحضور امام المجمع ليدفع عن نفسه تهمات طويلة عريضة اتهمه بها اعداؤه وسعوا في اثباتها ضده وكانت اكثرها عديمة الاهمية لامعنى لها بل قصدوا بها ازعاج خاطره ووسوسة عقله ولكن ثوفيلس اختار تهمتين من هاته التهم الكثيرة ورتبها ترتيباً يسر نقضها ولا يسهل دحضها أولاها اتهام كريسوستم هذا بتلقيبه الامبراطورة بلقب « ايزابل » (هي امرأة اخاب ملك اسرائيل الشريرة) والثانية انه تكلم ضدها كلاماً غير لائق يدل على احتقاره لها . فلم ينكر هذا البطريرك بانه دعى هذه الامبراطورة باسم ايزابل في عظة القاها على ملاء من الناس . ثم أتهم بتهمة أخرى لها مسحة من الحقيقة هي انه عمل على هضم سلطة بعض الاراخنة وتحريض الآخرين على عصيان رؤسائهم الروحيين وكان يقصد ثوفيلس بذلك مسألة رهبان وادي النطرون ومن معهم التي كادت تصبح نسياً منسياً وتطرح في زوايا الاهمال لولا ان حرك ساكنها هذا البطريرك الاسكندري وطلب شهود الاثبات ولكن احد الشهود وهو ديسفورس كان قد انتقل الى رحمة مولاه ولم يبق سوى امونيوس اخيه الذي جيء به الى خلكدونية وهو يحتضر فلما رآه ثوفيلس في حالة الموت ذرفت عيناه دمعاً مدراراً من شدة التأثر وهكذا تم الصلح بين خصمين لدودين في اقل من لمح البصر بدون وساطة ولا شفاعة سوى وقع العين

على العين وايجاد التأثير في قلبين يقبلانه حالا قبول الارض الجدباء للماء القراح . وفي هذه الاثناء ارسلت الامبراطورة خطاباً صادراً من ديوان الامبراطور الى مجمع خلكدونية لجلسته الثانية عشرة وفيه تحتيم على المجمع باصدار حكمه في مسألة كريسوستم بغاية ما يمكن من السرعة والذي دفعها الى ذلك حنقها على هذا البطريرك وتغيظها منه لانه شتمها واهانها

وعلى ذلك حكم المجمع بخلع كريسوستم من وظيفته ثم صدر أمر الامبراطور بنفيه حالا خارج القسطنطينية ولكن ثوفيلس فعل كل هذا وهو لا يعرف مقدار تأثير البطريرك المذكور في الرأي العام الروماني وعلو منزلته عند شعبه حتى انه بعد مضي ثلاثة ايام على حكم نفيه كان من الصعب القاء القبض عليه لان جمهوراً غفيراً من رعيته التأموا حول سكنه وأخذوا على انفسهم حراسته وحمايته فكانوا يتناوبون المدافعة عنه بطريقة منظمة كانهم حرس عسكري حتى صار القاء القبض عليه مما يحدث في المدينة حرباً اهلية لا تحمد نتيجتها بل ان هذه الحرب كانت على الابواب وأوشك لهيبها يندلع لولا ان كريسوستم نفسه كان يرقى منبر الوعظ كل آونة واخرى ويفوه بنصائح وانذارات لشعبه يحرضهم فيها على الميل للسلام . وكان في منتصف اليوم الثالث في وقت القيلولة عندما ذهب حارسوه للراحة أن كريسوستم انسل من باب خصوصي دون

أن يشعر به احد وسار الى موظفي الحكومة وسلم نفسه لهم بكل رضى وسكوت فاخذوه حينئذ الى سفينة وارسلوه الى بيت عنيا

فخلا الجو لثوفيلس ودخل المدينة في اليوم التالي لسفر كريسوستم باحتفال حفيل وتوجه تواً الى الكنيسة الكبرى لكي يسيم خلفاً لكريسوستم ولكن لما وقف الواعظ من قبل ثوفيلس واخذ يطعن في كريسوستم بكلام مرّ قارص هاج الشعب هياجاً لا تدرك نتيجته فصاروا يصيحون ويضجون حتى اهتزت الكنيسة وارتجت وكادت تندك من اساساتها ولولا ان قوة عسكرية جاءت فطردت الهائجين خارجها بالعصي والمعاول . وكانت الشوارع قد امتلأت بجمهور من الاوباش الثائرين وهم يملأون الفضاء بصياحهم طالبين ارجاع بطريركهم لهم وكادوا يهجمون على ثوفيلس ويأخذونه غيلة مع تعضيد الامبراطورة له لولا ان حدثت زلزلة في الهزيع الاول من الليل فهزت المدينة ورجتها حتى ان الامبراطورة قامت مذعورة من نومها وسارت مسرعة الى مخدع زوجها ورجته ان يعيد كريسوستم الى وظيفته ما دام ان السموات غضبت لاجله وكادت تصب غضبها على الارض حزناً عليه فلم يسع الامبراطور اركاديوس الا اجابة هذا الطلب ولما عرف ثوفيلس ما تم وخاف قيام جميع الشعب ضده برح القسطنطينية حالا وعاد راجعاً الى الاسكندرية . وللحال انعقد مجمع من نحو ستين اسقفاً ألغى كل اجرآت المجمع السابق وقرر ان كريسوستم لا يزال

بطريركا للقسطنطينية . أما ثوفيلس فكتب خطاباً الى بابا رومية يخبره فيه انه جرد كريسوستم من وظيفته فرد عليه هذا البابا يسأله اسباب هذا التجريد ثم قال له انه لا يزال على تمام الصداقة والالتحام معه ومع كريسوستم ايضاً

أما بابا الاسكندرية ثوفيلس فلم يكف عن اسباب الخصام والنزاع ولم ينتأ يناصب كريسوستم العداء فاوفد وفداً من قبله الى القسطنطينية ولم يذهب هو بنفسه معتذراً بكثرة اشغاله ووفرة الواجبات الضرورية المحتم عليه أدؤها لرعيته فناب هذا الوفد منابه في التدابير التي افضت الى طرد كريسوستم طرداً نهائياً من ابروشيته بامر استصدروه من الامبراطور والامبراطورة معاً . ولتنفيذ هذا الامر ارسل خصومه كوكبة من الفرسان هاجمت الكنيسة بينما كان البطريرك يؤدي خدمة عيد الفصح وقيل انه كان يوجد في هذه الكنيسة اكثر من ٣٠٠٠ نفس طالبين العماد فطردهم العساكر من المعمودية باسنة الرماح ثم دفعوا كل الشعب خارج الكنيسة بالقوة . فتقدم جماعة من القسوس الاشداء وجمعوا طالبي العماد من الشوارع واخذوهم الى حمامات قسطنطين وقرأوا على الماء التي في هذه الحمامات وباركوها ثم عمدوا القوم بكل نظام تام وسرعة زائدة ولم يكد يتم عماد الجميع حتى سمع العساكر بذلك فهجموا على القسوس وطردوهم من هناك ايضاً . واخيراً صدر الحكم النهائي

بنفي كريسوستم وذلك في يونيو سنة ٤٠٤ وظل في منفاه الى ان توفي في خريف سنة ٤٠٧

الفصل الحادي والعشرون

﴿ سينيثيوس القوريني ﴾

ولد سنة ٣٦٥ للمسيح و١٨ للشهداء

في آخر رئاسة ثوفيلس حدث بينه وبين سينيثيوس القوريني صداقة وولاء وكان الاخير رجلا مشهوراً بالعالمية والفضل وله رابطة مع حوادث تالية ستعرفها فيما يلي :

ولد هذا العالم في مدينة قورينة سنة ٣٦٥ من عائلة يونانية قديمة استوطنت هذه المدينة في الايام السابقة وكانت لعائلته هذه أملاك واسعة وعقارات كثيرة في مقاطعة بنتابوليس . وكان قد صرف بعض سني شبابه في الجيش ولكنه استعفى من منصبه وهو بعد شاب وعكف على درس الفلسفة والتبحر فيها

وكان الدهر قد عبث بمدرسة قورينة الشهيرة وأودى بها فسار سينيثوس الى الاسكندرية ليتلقى العلوم فيها مثل غيره من الطلاب الذين كانوا يؤمون المدارس الوثنية التي كانت في ذلك العهد قد انحطت ودخلت في دور التقهقر . وكانت هيباشا الشهيرة قد بدأت تلقي الدروس

على التلامذة الذين بينهم سينيثوس وكان وجهها يطفح بالجمال وعقلها يفيض علما ومعرفة ففعلت مواهبها هذه في قلب سينيثوس الجندي الباسل فصار عبداً مطيعاً لها وبعد اعتناقه الديانة المسيحية اصبح صديقها المخلص لولائها المعجب بخصالها وفعالها . ولم تكن هيباشا الى ذلك الحين قد حازت المعرفة التامة فيما يختص بمبادىء الفلسفة الوثنية ولم تكن قد استوعبت العلوم المصرية الرفيعة بكل اجزائها ولكنها جدت فيها بعد واجتهدت حتى تضلعت في هذه المعارف واستعملتها لاصلاح الفساد السريع الذي سرى في الديانة المسيحية بالاسكندرية كما أسلفنا . فلما رأى سينيثوس أن معلمته ليس في وسعها تثقيف عقله كما ينبغي جنح قلبه الى مدارس اثينا عاصمة اليونان والتردد عليها خصوصاً وانه كان يحن الى زيارة وطنه ومنبت اثلته حنين من تشبعت نفسه بحب الوطن وما فيه . فارسل اليه صديق من اصدقائه جواب توبيخ يعنفه فيه على تركه الاسكندرية وذهابه الى اثينا وتعلقه بمبادئها وديانتها فرد عليه سينيثوس رداً جميلا هاك مغزاه : ـ

(اني بذهابي الى اثينا سأتحصل على الاقل على شيء واحد مفيد هو انني لا أعود انظر نظرة الاحترام والاجلال الى اولئك الاشخاص الذين مع انهم لم يفوقونا في معرفة فلسفة افلاطون وارسطوطليس ولكنهم يعدون انفسهم في مصاف الالهة ويعدوننا نحن حيوانات صماء

بكماً لانهم حضروا الجمعية العلمية مرة وشاهدوا دار الفنون . المعارف باعينهم فقط فلذلك يحتقرونا ويزدرون بنا لاننا لم ننظر هذه الآثار ولم نحضر جلسات الجمعيات العلمية فلذلك دعتني الغيرة وحب المناظرة والمباراة الى مساواتهم في هذا الشأن والسبق عليهم في غيره

أما سينيثوس فلم يطل الاقامة في اثينا بل انكشفت له ابهة هذه المدينة وعظمتها فظهرت امامه بمظهر حقرها في عينيه حتى انه قال عنها انها مثل حيوان مات فسلخوا جلده وملأوه قشاً ونصبوه ليغروا الناس بانه حيوان والحقيقة انه خياله أو مثاله . ولم يبق في اثينا حينذاك من الصنائع المهمة سوى استخراج الشهد من خلايا النحل . قال سينيثوس ان اشهر الاساتذة والمعلمين في اثينا لم يستميلوا تلامذتهم اليهم بواسطة القاء العلوم المفيدة عليهم بل باهدائهم هدايا وافرة من عسل النحل فيغوونهم بهذه الطريقة على مداومة الحضور لمدارسهم

وبعد ان تحصل سينيثوس على شيء كثير من العلوم في الاسكندرية واثينا عاد الى مصر ومكث في بنتابوليس يعمل في املاكه ويدير حركة عقاراته بعقل واسع ومعرفة كاملة . وكان له أخ اسمه افوبيوس أحبه حباً مفرطاً وكان يكاتبه في مدة غيابه بلا انقطاع ولا تزال بعض مكاتيبه موجودة الى الآن وفيها دليل كاف على ان المصريين المتعلمين في أواخر القرن الرابع كانوا يماثلون غيرهم من علماء القرون الوسطى والحديثة كما

ان الفلاح المصري في هاتيك الايام كان عاقلا عارفاً غزير المادة اكثر من التلميذ المصري في هذه السنين . وهاك جواب ارسله اقويتيوس الفلاح الى اخيه سينيثوس بينما كان هذا متغيباً في اثينا مترجم هو وغيره عن الحوابات نفسها بغاية الدقة والوضوح : -

« أخي العزيز

نحن الآن نستيقظ من نومنا مبكرين بواسطة صهيل الخيول وخوار الثيران وبعبعة الغنم والمعزى ونلتئم معشر الفلاحين معاً كاننا من عائلة واحدة لا يشوب اجتماعات القوم المتمدنين من التحاسد والتنافر والتباغض بل يساعد الواحد منا رفيقه في كل واجباته واعماله سواء في زرع الاراضي وتفليحها أو في رعي قطعان الغنم واسراب المعيز أو في صيد الظباء والايائل التي لا يمكن اقتناصها الافي الارياف ووسيع الخلاء . أما طعامنا فبسيط خفيف هو خبز الشعير نلتذ من اكله ويمريء جسمنا من غذائه ولا نفرح باطايب الافاويه وتعدد اصناف المآكل على الخوان مما نظن فيها تخمة للمعدة . ولسنا نشرب سوى عصير الشعير الذي نأكله فنسوغه بعد كثرة الشغل فيمتص من اجسامنا الحرارة الشديدة التي نصادفها في أيام الصيف ولا نخشى غيرها من انواع المشروبات المذهبة للعقل المضعفة للبصر المحطة للشرف المخربة للجيب . ولا تظن اننا ناكل الشعير ونشرب عصيره لضيق ذات يدنا أو لاننا محرومون

من المواد الاخرى بل اعلم ان عندنا مقادير وافرة من القمح واكداساً مكدسة من الفواكه والاطايب اللذيذة واوعية مفعمة بقطر الشراد ولبن الاغنام الذي نستدره منها ونأدم به ولا نحلب الابقار بل نرك لبنها لفصيلها يغتذي به ويقوى . أما احسن أكل تنفتح له الشهية فهو ما نصطاده بايدينا ونتعب بالحصول عليه . ولنا آلات طرب نلتذ لسماعها ونطرب وهي وطنية صرفة عبارة عن قصبة مزمار علاها الصداء لها نغمة خشنة فهي تنفع لان يستعملها احد اساتذتكم كعصا يؤدب بها تلامذة مدرسة افلاطون اذ لا يمكن لكم ان تشجوا من نغماتها ولا يحرك صوتها الاجش ساكن احساساتكم التي ترقت كثيراً فصارت لا تطرب من الذي يطرب منه الفلاح الساذج نظيرنا الذي له بعض ادوار بسيطة اختارها ارباب الطرب منا ليسهل لهم التوقيع على آلات بها وهي ادوار ليست على شيء من الرقة ولكنها تختص بمدح الكلاب القوية التي لا تخاف الضباع ولا تخشى الذئاب بل تنقض عليها وتقبض على ارقابها فتقتلها . وكثير من هذه الاغاني ثناء وشكر للنعجة التي تلد توأمين ولاشجار التين التي تحمل ثمراً كثيراً وفيها ايضاً غزل بالخمر وباقي انواع المشروبات والانبذة . واكثر ما يكون من اغنياتنا تسابيح حمد وطلب بركة الله على الانسان والنبات وكل عشب اخضر . أما عن الملك (أي الامبراطور) واصدقائه فليس لنا

شيء نقوله عنه سوى اننا نعرف بوجود ملك حاكم علينا ويذكرنا بوجوده الجباة الذين يجيئون لجمع اموال الخراج ولكننا لا نعرف من هو هذا الملك أو ما هو اسمه حتى ان البعض منا يظنو[ن] ان اغاممنون بن اتريوس الذي اشتهر في حروب طروادة لا يزال ما[لكاً] علينا الى الآن والذي حدى بهؤلاء البعض الى هذا الظن هو ا[نهم] سمعوا [في] طفوليتهم انه يوجد ملك اسمه اغاممنون فقالوا انه لا يزال متسلطاً عل[ينا] الى الآن والى الابد . ولا يخطرن على بالك ياشقيقي ان هذا ناتج عن جهل منا أو تقصير في معرفة حكامنا بل اننا قوم لاعلاقة لنا بهؤلاء الملوك والقياصرة ولا يهمنا من امرهم سوى العدل واجراء الانصاف بين الرعية فليس من الضروري معرفة اسم الملك أو نظر رسمه ما دمنا جماعة سذجاً بسطاء القلوب حتى انك لتعجب جداً اذا قلت لك ان الكثيرين من الفلاحين الذين بلغوا من العمر اشده احياناً ما يسألونني عن المراكب وشكلها والقلوع وكيف توضع عليها وباي كيفية تسير هذه الجواري في المياه السائلة فاشرح لهم ذلك ببيان وايضاح وقد يصدقون ويفهمون ولكنني اذا قلت لهم انه يوجد في البحر حيوانات حية متحركة يأكل منها الانسان ويغتذي فقد لا يصدقون قولي ولا يعقلون كلامي بل يذهبون ان كل ماكل ومشرب لا يأتي الا من الارض التي هي أم كل حي . ولما اتعب معهم في البرهان على وجود سمك البحر اضطر ان أجيء لهم بجرة فيها

ماء وسمك من ارض مصر وافتحها امامهم لاقنعهم بوجود هذه الاسماك في مياه البحار ولكنهم مع ذلك لا يقتنعون بهذا البرهان بل يقولون انما هذه الا[سماك] هي حيات واحناش سامة تجنحت بزعانف فصارت تعوم وتسبح ترى عظامها لا بد وان تكون ملأى بالسم الزعاف كأنياب الافا[عي] وغريب أن رجلاً يعتبر من انبه الفلاحين واعقلهم قال ان لا يسعه التصديق بوجود شيء يصلح للاكل والغذاء في المياه المالحة في الابحر سوى شيء من الضفادع والعلق الذي نجده في انابيب ماء الشرب التي لا يجسر حتى المعتوه على اكلها أو القرب منها »

اما جماعة الفلاحين الذين كانوا يشتغلون في حقول سينيثوس فاكثرهم من العبيد الارقاء ورثهم اباؤه عن اجداده وورثهم هو عن الاباء وهم من ابناء البلاد كانوا يعاملون معاملة طيبة حتى كأنهم اولاد صاحب الارض

وحدث في سنة ٣٩٧ ان الضرورة الجأت سينيثوس للذهاب الى القسطنطينية لعمل هام يتعلق بمدينته وصالح بلاده فمكث في اسطنبول ثلاث سنوات كاملة قبل ان ينظر أحد من رجال البلاط الملوكي اليه أو يهتم باعماله وذلك لكثرة ارتباكات الحكومة وخلل نظامها في هاتيك الايام (وهذه ايضاً) . وكان له صديق اسمه اوريليان هو فيلسوف شهير له نفوذ قوي وتداخل متين في شؤون المملكة فساعد سينيثوس في امر خطير هو ان صدر النطق الامبراطوري لسينيثوس هذا بان يلقي خطاباً على مسامع الامبراطور اركاديوس ورجال حاشيته وكبار عمال دولته

فاصاب هذا الامر مغمزاً في نفس سينيثوس الذي كان متغيظاً جداً من سير الاعمال في حكومة القسطنطينية ومستاء من الخطل الكثير الذي انتاب جسم هذه الحكومة ولذلك اختار موضوع خطابه هذه العبارة « خطارة وظيفة الملك وواجباته نحو رعيته » . واذا صح ما نقله الينا الناقلون عن هذا الخطاب وما فيه من قوارص الكلم فهو يدل على ما كان عند الامبراطور اركاديوس من سموّ المدارك وشرف النفس وحرية الفكر لانه صغى الى هذا الخطاب القاسي بكل اناة ولطف ولم يتململ من سهام الكلام الموجهة اليه كما يفعل غيره من الملوك والاقيال الذين يثقل على صماخ آذانهم قول الحق فلم تظهر عليه بوادر الغضب الكامنة في نفسه ونفس اسلافه من العنصر البيزنطي فسمع قول سينيثوس بكل هدوء ورصانة حيث قال هذا في عرض خطابه المذكور : —

(اسمع يا جلالة الامبراطور واصغ لاقوالي . أن ترفعك عن مقابلة الناس وظنك ان الاختلاط بالرعية يخفض من مقامك ويجعلك مساوياً لها — ان هذا الفكر اوجد عندك مبداء العزلة والانفراد حتى اصبحت كسجين في قصرك لا تعرف شيئاً مما يجرى في مملكتك ولا تقف على أمر من الامور السائرة في حكومتك التي لو عرفتها لصرت اكثر خبرة واوسع دراية بشؤون دولتك مما انت عليه الآن . بل خالفت القانون الطبيعي ووضعت نصب عينيك الملذات النفسانية والتمتع بكل انواع السرور التي تروق لك بغض النظر عن شعبك ورعيتك فلذلك كانت حياتك

حياة من يعيش ليأكل لا من يأكل ليعيش)

وقد وضع سينيثوس مدة اقامته في القسطنطينية نبذة سياسية تحتوي على افكار عالية ومبادىء قويمة في شكل رواية مصرية بقالب خيالي يختلب الالباب ذكر فيها كيفية الدسائس التي كان يدسها القائد جيناس ضد الامبراطور اورليانوس والمملكة باسرها . ولبراعة سينيثوس ومهارته نال من القسطنطينية المأرب الذي ذهب لقضائه ومكث لاجله فيها كل هذه المدة الطويلة ثم عاد الى بلاده ومسقط رأسه وهو يشكر هذه السوانح التي اوجدت له اصدقاء كثيرين يركن اليهم ويثني على العلم الذي كان سبباً في رفع شأنه وعلو مركزه بين العالمين

ولكن ثغر الزمان لم يدم مفتراً لسينيثوس بل شاب صفو لياليه شائبة كدر لسبب هجوم جماعة البدو الهمج على بلاده وكانوا يفدون اليها من صحراء ليبيا ويجيئون الى مقاطعة بنتابوليس (مديرية الشرقية الآن) ويغزونها حتى صيروها قاعاً صفصفاً . وقد تمادوا في غيهم وعدوانهم كثيراً لعدم وجود جند يصد هجماتهم عن البلاد كما ان معظم سكان هذا الاقليم كانوا من العبيد الذين استرقهم نزلاء اليونان قبلا واستخدموهم للفلاحة كما ذكرنا فلم تبق فيهم قوة أو معرفة بالطرق الحربية ولم يكن سوى جماعة المسيحيين القلائل وقسوسهم الضعفاء الذين اعتقلوا سلاحهم وقاموا يكافحون للدفاع عن حوزة بلادهم بقدر ما يصل اليه جهدهم ولعل هذا هو السبب الاكبر في ميل سينيثوس للديانة المسيحية وحبه لرجالها

المخلصين وهو لم يكن يعرف شيئاً عنها حتى في مدة وجوده بالقسطنطينية وبعد أوبته منها . وقد كتب فيما بعد عن هؤلاء المسيحيين يقول : ـ

« اني ابداء بشكر جماعة القسوس واثني على مروءتهم وشجاعتهم وهم الذين اظهروا من البسالة وقوة البأس ما يحمدون عليه حتى انهم فاقوا الجنود المدربة الذين لما كثر لهم العدو عن ناب الغضب ولوا الادبار ولم يقفوا له في طريق ولكن هؤلاء الكهنة البواسل جمعوا شعبهم وبعد ان صلوا لله طالبين المعونة والنصر قاموا يذبون عن بيضة وطنهم ويدافعون عنه دفاع الاسود الكواسر . ومما يجمل ذكره في هذا المقام ان الاعداء تحصنوا في أخدود (واد ضيق) كثير الادغال والاحراش وساروا نحو البلاد دون أن يقابلهم جند يصد هجماتهم ولكن البطل المقدام فوسطس وهو شماس ذكي الفؤاد اعترضهم في طريقهم وهو أعزل من كل سلاح وهجم على جندي من الاعداء مدجج بمعدات القتال وآلات الفناء فضربه بحجر في رأسه غاص في جبهته فالقاه على الارض صريعاً ونزع عنه سلاحه وتقدم نحو القوم ينازلهم ويكافحهم حتى قتل كثيرين منهم وهكذا كان حال الآخرين من رجال لدين الذين اظهروا شجاعة وبسالة تستحق المكافأة الحسنة بل لو كنت ملكا لوضعت على رأس كل منهم تاجاً من الذهب الابريز ولشهرت اسمهم في طول البلاد وعرضها لانهم من الرجال الممدودين الذين ابدوا شهامة ومقدرة يعجز عنها الاولون والآخرون حتى ظن اكثر العارفين ان اعداءنا لم

يكونوا من الغزاة الاقوياء الذين يحاربون ويقاتلون بل هم قوم خطفة سالبين يسهل الانتصار عليهم ورد كيدهم في نحورهم »

ولكن مدافعة عدد قليل اعزل من المسيحيين الاشداء لم تكن تعني فتيلا ضد جماعة من الهمج المتوحشين كثر عديدهم وزادت قوتهم حتى اضروا بالبلاد ضرراً يتضح لك مقداره مما كتبه سينيثوس في هذا الصدد حيث قال : ـ

(لقد الحق بنا هؤلاء العتاة خسارة جسيمة اذ احرقوا الزرع واهلكوا الضرع ونهبوا البلاد وسبوا النساء والاطفال وقتلوا الصغار والرجال ولم يبقوا على احد وكانوا قبلا يتركون الشبان احياء ولكنهم عدلوا عن ذلك لانه لم تكن عندهم جنود تكفي لحراسة الاسلاب والغنائم وخوض معامع القتال . كل هذا ولا تزال بارقة من الامل تضيء أمام قلوبنا حتى صرنا نمكث في منازلنا منتظرين مجيء العساكر المنظمة لانقاذنا من مخالب هذا الموت الزؤام ولكن اتضح لنا بعد ذلك ان هذا الامل يعد ضرباً من الحمق لان النجوم اقرب لنا من قدوم جنودنا ولم يبق علينا سوى ان نعتقل البيض الصفاح ونستعد للحرب والكفاح دفاعاً عن ابنائنا ونسائنا ووطننا العزيز . ولقد كتب هذا الجواب وانا ممتط صهوة جوادي لاني مشغول في مراقبة الجيش الذي جيشته ورتبته من شبابنا وشبان جيراننا وصرت الآن اسير على الاعداء والامل رائدي على ان كثيرين من الفتيان سيتبعوني ويفانون في الذود عن ذمار

الوطن والاهل)

وكانت صعوبة هذا العمل تنطوي تحت عدم وجود الاسلحة خصوصاً وان أخاسينيثوس لما بلغه خبر هذه الحرب كتب لاخيه كتاباً شديد اللهجة يخبره فيه ان عمله هذا عرضه لتهمة خيانه الدولة لتجييشه الجيوش وتعبئة الفيالق في وسط بلاد الحكومة وهو عمل تستأ منه القوة الحاكمة وتخشى عاقبته فرد سينيثوس على اخيه يقول :—

(ان سذاجتك وبساطة قلبك وعدم تبصرك في عواقب الامور اضرت بنا ضرراً عظيما لانك اعقتنا من الحصول على الاسلحة حتى اقترب العدو منا وصار قاب قوسين أو أدنى واخذ ينهب ويسلب ويقتل ويذبح ما دام لا يوجد معنا جيش يدافع عنا ولا سلاح لدينا نصد به هذا المهاجم القوي . فهل يصح لك بعد هذا كله ان تخطئنا وتقول انه لا يجوز لاحد من افراد الرعية حمل الاسلحة النارية وان الحكومة تغضب وتنتاظ من كل شخص يدافع عن نفسه . اتمنى أن أموت يوم ان انظر بلادي تسترد مجدها الطارف وتعيد اليها سطوتها ورونقها . نعم انني اموت يومئذ قرير العين مرتاح البال على وطني الذي اليه احن ونحوه تصبو النفس وتطمح الابصار)

وقد كتب سينيثوس بعد ذلك الى العلامة هيباشا في هذا الصدد يقول:

(اذا صدق قول هوميرس الشاعر — « في الجحيم من يذكرك » على الاخرين فهو لا يصدق عليّ انا الذي مازلت اذكر العزيزة هيباشا

بين شفرات السيوف وصليل بيض الهند . واني لاخاف على قلبك ان يتصدع اذا انا ذكرت لك ما اعانيه من حزن يقصم الظهور على بلادي اناخ عليها الدهر بكلكله وما انا فيه من كآبة واسى على رجال كرام يجز العدو رؤوسهم بسيفه الصقيل كما يجز الجزاز صوف الغنم أو كما يجز الجزار رأس الكباش حتى صار الهواء الذي استنشقه ملآناً بالروائح الكريهة المتصاعدة من جثث القتلى واشلاء الموتى ولذلك صرت انتظر الموت لنفسي بين آونة واخرى وأرى كأن هذه الطيور الجوارح التي تحوم في الجو تأكل من جسدي بعد موتي كما هي الان تمزق اجسام هؤلاء الموتى المساكين وتملأ بطنها بها . كل هذا وانا لا ازال على ما انا عليه من الحب لوطني والميل الى بلاد تضم رفات اجدادي الكرام والنفس في تحن الى ارض يحوي تربها بقايا أولئك الآباء الذين شادوا لنا صروح المجد والفخار فلنبرهن بانا ابناؤهم لا ان نعق جميلهم علينا وعلى هذه البلاد باكملها . فاذا ساعدنا الدهر وفزنا بالنصر انبعث اميال قلبي من نحوك وتركت هذه البلاد وجئتك يحملني اليك الشوق ويحدوني حادي الود الصحيح والولاء الطاهر . فصبراً)

وكانت النتيجة ان سينيثوس فاز بالنصر الذي كان يرجوه فعاد الاعداء ناكصين على اعقابهم وتمتعت البلاد بالراحة والهناء بعد طول الجهاد والعناء . اما سينيثوس فوفي بوعده مع هيباشا وسار يحث المطايا الى الاسكندرية لزيارة هذه العالمة التي اشتهرت بجمال الوجه وكمال العقل

حدث له في هذه المدينة حادث يستحق الذكر هو ان قلبه وقع في فخاخ الحب لانسة مسيحية ومال الى الاقتران بها فسعى جهده الى اقناعها بذلك فرضيت وعقد لهما البطريرك ثوفيلس عقد الزواج (مع ان سينيثوس لم يكن قد صار مسيحياً بعد) وكان هذا البطريرك فرحا بذلك الزواج الذي يقرب هذا الشابة الى الديانة المسيحية ويوجد بينها وبين صديق هيباشا رباطاً متيناً لانه يظهر ان العالمة هيباشا كانت في ذلك الوقت خصما لدوداً للبابا ثوفيلس كما كانت كذلك مع خلفه كيرلس

ولم يعتنق سينيثوس الديانة المسيحية عند زواجه ولم تخمد نار محبته الطاهرة لمعلمته هيباشا وقد كانت قرينته من صديقات هيباشا المسيحيات وفي الاربع سنوات التي تلت قران سينيثوس أخذت الديانة المسيحية تعمل في قلبه عملها المعروف حتى اعتنقها بسرور وفرح لا يوصفان ولا غرو في ان القلب النقي والعقل الذكي يقبلان هذه الديانة الطاهرة باسرع مما تقبل الارض الظمآنة ماء المطر المتأخر

أما زواج سينيثوس فكان في سنة ٤٠٣ ومكث في الاسكندرية سنتين بعد زفافه وضع في اثنائهما فذلكة عن الرؤى والاحلام والف أيضاً نبذة أبان فيها ما يعتقده هو في الديانة المسيحية وما يعتقده باقي المسيحيين فيها ولسبب هذا الاختلاف بينه وبينهم . وقد جعل سينيثوس اهمية كبرى للرؤى والاحلام وقال ان احلامه التي كان يراها في منامه كانت الرائد الوحيد له في اعماله أما النبذة الثانية فكتبها ليرد بها على

الانتقاد الشديد الذي وجهه ضده فلاسفة الوثنيين ورهبان المسيحيين وليدفع عن نفسه ما رموه به من سفاهة الرأي واعوجاج المبداء في كونه خالف ذلك الفكر الشائع في مصر بخصوص الرهبنة والتبتل حتى ان البعض يذهبون الى ان مبداء الرهبنة وتعميمها في مصر كان السبب الوحيد في تأخير سينيثوس عن اعتناق الديانة المسيحية من زمن مضى . ولما اكمل سينيثوس وضع هذين النبذتين ارسلهما الى العلامة هيباشا لتنقدهما وتمحصهما فلما وقفت عليهما سرها ما فيهما من غزارة المادة وقوة الحجة ويؤخذ من الملحق الذي صنفه سينيثوس لهاتين النبذتين انه صار مسيحياً في اثناء الثلاث السنوات التي مكثها في وطنه بعد عودته من الاسكندرية ويحتمل ان عماده تم بعد زواجه بنحو خمس سنوات

أما سينيثوس هذا فكان شاعراً بارعاً وناثراً ماهراً ظهرت نفحات تأثير الديانة المسيحية في افكاره فأثرت في شعره ونثره . ولما رجع الى بلاده سنة ٤٠٤ وجد انه قد عادت الى عترها لميس وان جماعة الغزاة المتوحشين عاودوا الهجوم على البلاد لانهم سخروا بحاكمها وهزأوا بضعف رأيه وخوار عزيمته فلم يكن ثمت وقت لسينيثوس يتمتع فيه بالسعادة العائلية أو يغوص بافكاره في لجج العلوم وبحارها فيستخرج منها مايزرى بالدرر الغوال فاعاد الكره على الاعداء حتى في جواباته وخطاباته لاصدقائه في الاسكندرية التي كنت لا تقرأ فيها سوى ذكر بيادر حرقت وقطعان نهبت وقرى سلبت واصبح جميع الناس يستعدون للقتال والنزال . أما

حاكم هذه المقاطعة فترك وظيفته وفر هارباً فرار الجبناء الانذال فعوضت الحكومة الى سينيثوس امر الدفاع عن بطلومايس عاصمة اقليم بنتابوليس ففعل في مهمته هذه فعلا يظهر لك مقداره من نصوص المكاتيب الآتية حيث قال :—

(لما رأى الحاكم ان الخطر يتهدده انزل جميع نقوده وأمواله في السفينة ثم تبعها هو وأبحر الى حيث يأمن الشر واخذ يصدر لنا الاوامر تباعاً بواسطة زورق صغير بان نظل مختبئين داخل جدران منازلنا وان لا نهاجم هذا العدو القوي ولا نعتدي عليه بل يكفي ان نتخذ خطة الدفاع فقط والا فنحن مسؤولون عما يلحقنا من الضرر وجنابه خال من كل لوم وتثريب . فكنا نقيم اربعة حراس في الليل يحرسون المدينة وتعلمنا ان الخطر كل الخطر في غمض الاجفان وملء العيون نعاساً وليعذرني الاصدقاء في عدم المداومة على ارسال الخطابات اليهم لان وقتي قصير وهوذا أنا مشتغل الآن في تدبير طريقة اصنع بها منجنيقاً يصب على الاعداء صيباً من الحجارة ويرمي عليهم ادوات الفناء على مسافة بعيدة

أما الخطة التي سرت عليها في امر الدفاع هذا فهي انني امتطي متن جوادي في ضحى كل يوم واخرج لاستطلاع طلع هؤلاء اللصوص الذين لا اسميهم اعداء ولكنني أدعيهم سلبة خاطفين لا يأتون شيئاً سوى النهب وقتل الضعيف الذي لا سند له ولا عضد . فاذا جن الظلام وارخى الليل سدوله خرجت في نفر من الشبان الاقوياء ودرنا حول التلال

والكثبان حتى يطمئن بال النساء ويغمن آمنات طوارق الحدثان . وعندي الآن فرقة من الجند كانوا قبل تعيين حاكمنا الحالي يادة راكبة يرمون السهام من فوق ظهور الشهب المطهمة فلما تعين هذا الوالي باع خيولهم فاصبحوا يؤدون خدماتهم معي ولا جياد معهم ولكنهم يحسنون رمي السهام التي تفيدنا كثيراً في رد العدو عن المنازل وصده عن النهر الذي نشرب منه لاننا لا نجد الماء داخل المدينة . ولا يحوجني في هذه الحالة سوى بعض رجال لهم صفات الرجال الشجعان فبمعونة الله ومساعدة هؤلاء الابطال اضمن الفوز والنجاح . اما اذا كان نصيبي الموت لاجل وطني فلا يجب عليّ ان اجزع منه ولا احزن على فناء جسم يقول عنه جماعة الفلاسفة انه كتلة لحم نتن ان لم يأت بفائدة لبني الانسانية . ولكن لا يلومني اللوام اذا انا اذرفت الدمع الغزير عندما اتذكر قرينتي وولدي لان الاحساسات الابوية امر طبيعي لم يخل منه الحيوان فضلا عن الانسان)

كانت النتيجة بعد هذا الجهاد ان مساعي سينيثوس قوبلت بالفوز والنجاح وكللت اعماله باكليل الظفر والفخر الذي يناله كل خادم للانسانية ساع في صالح ابناء امته من قلب مخلص وضمير طيب وانتهى الامر بعزل ذلك الحاكم الجبان وتعيين بدله من الرجال الاقوياء القادرين على صد الغزاة وخفض شوكتهم وكسر قوتهم . وحينئذ صفا الجو لسينيثوس فعاد الى الفلسفة وابحاثها وانكب ينعب على العلوم ويسعى خلفها بعزمه الاول وكان الرجل ميالا الى الفلسفة والتفقه فيها اكثر من ميله الى

العلوم الاخرى وهو يضاد في ذلك المبداء الذي سار عليه ناشئة بنتابوليس في ذلك الحين من تفضيلهم العلوم والفنون على الفلسفة وفروعها وهاك ما كتبه سينيثوس في هذا الصدد : —

(انني لا اري اثراً للفلسفة في ليبيا باكملها ولا اسمع لها صوتاً سوى صدى صوتي الذي يرن في الآذان فان لم يشهد احد لي بهذه الاسبقية فان الله جل شأنه يعلم انني باريت الاخرين في هذا المجال الفسيح لانه اعطاني عقلا نيراً هو صنع يديه . كذلك النجوم والكواكب تنظر الي من فوق مفترة مبتسمة لي لانني اعتني بامرها وارقب حركاتها وارصد دورانها وميلها في فضاء هذا الجو الواسع الذي يبهر الانظار ويحير العقول)

وقد سعى سينيثوس كثيراً في تنظيم رديف عسكري وطني في مقاطعة بنتابوليس ولكنه لم يفلح ولم يقبل أحد رأيه لان سياسة الدولة الرومانية لم تكن لتسمح للمصريين الكارهين سلطتها بالتجند وحمل السلاح . وقد شرع سينيثوس ايضاً في مشروع مفيدهو ان يعهد بتعيين حاكم مقاطعتهم الى والي مصر لا لديوان الامبراطور في القسطنطينية وذلك لانه اتضح له بعد الاختبار الكثير ان تعيين الحاكم من قبل الامبراطور يكون مجلبة للضرر وسببه انه لا يطمع احد بهذا المنصب في بلاد بعيدة محفوفة بالاخطار الدائمة وغزوات القوم المتوحشين سوى رجل يكون غرضه الاول جمع المال والحصول على الثروة في مدة ولايته التي هي عبارة عن التزام أو استئجار هذه الولاية . وقد ضرب سينيثوس

مثلاً هو ان احد حكام بنتابوليس جمع ثروته بطرق دنيئة قبيحة منها انه فتح بيتاً لا ينبغي ذكره لهذا الغرض . وقد كان الناس يرسلون شكاويهم تباعاً الى القسطنطينية ولكن بدون فائدة واحياناً لا تصل هذه الشكاوي الى ولاة الامور لصعوبة المواصلات وبعد المسافة بين هذه المقاطعة وتلك المدينة القاصية مع ان اكثر البيوتات الشهيرة في قضاء بنتابوليس كان لها اقارب واصدقاء في الاسكندرية حيث يسهل التخاطب معهم وايصال طلباتهم اليهم لرفع حيف أو طلب انصاف

ومضى الزمن الطويل ولم يعبأ احد من رجال بطانة الامبراطور بهذه الطلبات العادلة فهاج السكان وماجوا وسعوا في دس الدسائس ضد الدولة فاذعنت هذه الى مطاليبهم واستدعت الحاكم العسكري الذي كان عليهم وعينت بدله حاكما اسواء منه حالا وارداء خصالا كان مشهوراً في الولاية باكملها بالشر والفساد فحنق جميع افراد الرعية وغضبوا من هذا الظلم الجائر وقاموا كرجل واحد بطريقة لم تكن تنتظر منهم حتى كادوا يشعلون جذوة ثورة في البلاد لا تخمد نارها الا بشق الانفس

ولا يخفى انه مذ ما جلس قسطنطين على العرش الروماني صارت السلطة الرومانية في مصر تنسل شيئاً فشيئاً من يد الامبراطور وعمالاته الى يد البطريرك والاساقفة واصبحت القوة الحقيقية في القطر المصري

في قبضة الاباء الروحيين بدل الولاة الزمنيين (١) وسبب ذلك بغض المصريين للحكم الروماني حتى تطرفوا اخيراً وصاروا لا يخشون سطوة هذه الدولة ولا يهتزون لهيبتها ولا يهتمون لامرها سوى في دفع الضريبة السنوية المفروضة عليهم التي لم يدفعوها الا بعد تعب ومقاومة وتحكم سوط الجباة في اجسادهم كما اشرنا الى ذلك قبلا . فما داموا يدفعون الضريبة ويؤدون جزية الحنطة المفروضة عليهم سنوياً الى القسطنطينية فالديوان الامبراطوري لا يهمه من أمر مصر شيء ولا يعمل على مافيه راحتها وانصافها سوى انه كان يميز غيظاً وحسداً من ازدياد سلطة بابا الاسكندرية وامتداد نفوذه الادبي والروحي . كذا كان انسلال السطوة من ايدي الحكام الى الاساقفة سارياً في جميع انحاء المملكة على النمط الذي سرى عليه في مصر وذلك لان الوالي من هؤلاء الولاة لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد التي يحكمها ولم يكن يفكر في تقدمها وارتقائها

(١) في مدة حكم امبراطرة الروم كانت مصر مجزأة الى ست مديريات يحكمها ولاة من قبل الامبراطور يستمدون الاوامر من القسطنطينية وليس لاحد في مصر حق الرئاسة عليهم . كذا كان الجباة الذين يجمعون اموال الخراج تحت سلطة القسطنطينية رأساً ولا علاقة لهم مع ولاة مصر . ثم قسمت مصر بعد ذلك الى ثمانية اقضية (١) طيبة العليا تتبعها ١١ مدينة (٢) طيبة السفلى ولها عشر مدائن بما فيها الواحات البحرية (سيوى) (٣) ليبيا العليا أو قورينه (٤) ليبيا السفلى (٥) اركاديا (نسبة الى الامبراطور اركاديوس) (٦) نصف الدلتا الشرقي (٧) نصف الدلتا الغربي (٨) من تل بسطة بمديرية الشرقية لغاية البحر الاحمر

بل كانت علاقته معها كعلاقة المستأجر مع اجيره أو كعلاقة الغريب النازح مع المستوطنين فضلا عن ان الاساقفة كانوا دائماً مصريين ينتخبون من ذات الابروشية التي يعينون فيها ولذلك كان يحبهم شعبهم ويرضخ لاشارتهم ويطيعهم طاعة تامة بحيث لا يخالفون لهم قولا ولا يسيرون على غير رأيهم. اما الاساقفة الذين اصلهم رهبان ورقاهم اثناسيوس وثوفيلس فمع انهم لم يكونوا محبوبين كثيراً من شعبهم لجمودهم وبلادتهم ولكنهم كانوا يملكون قلوب الرعية في ابروشياتهم بواسطة تقواهم وعفتهم ولان بعضهم كان عارفاً بقشور من علوم المصريين القدماء وفلسفتهم فكانوا يظهرون امام الشعب بمظهر العالم العارف ويموهون على البسطاء السذج منهم فلم يكونوا يخرجون عن طاعتهم أو يعرفون حاكماً لهم غير هؤلاء الاساقفة فقط . والذي زاد انحراف الرعية عن الحاكم الروماني وبغضها له ما وجد في طبع هذا من الجشع والطمع وعدم المقدرة على ادارة امور البلاد بالحكمة والسداد حتى ان اهالي المديرية مثلا كانوا كثيراما يهبون الى تغيير حاكمهم ويقع اختيارهم على رجل ينتخبونه ثم يلتمسون من البطريرك تعيينه اسقفاً عليهم ليحكمهم ويسوسهم . وكثيراً ما يكون في الابروشية اسقف يؤدي اعمالها ويدير حركتها ولكن لاتساعها وتعدد مدنها يعمد بعض اهاليها الى تعيين اسقف آخر تعهد اليه اعمالهم فيلحون على البطريرك والاسقف الاصلي باجابة طلبهم ورسم الاسقف لهم وتخصيصه بابروشيته خاصة به وبهم أو على الاقل تعيينه معاوناً للاسقف القديم

ولهذا السبب لم يأبَ سكان مقاطعة بنتابوليس بتعيين الوالي اندرونيكس حاكماً عليهم وذلك لان مقاطعة بطلومايس التي كان لها حق السلطة الدينية على ابروشية بنتابوليس كانت بدون رئيس ديني فصمم الشعب على اختيار سينيثوس اسقفاً ووالياً عليهم فلم يتوقف البطريرك ثيوفيلس في رسامة سينيثوس ولم يتردد في اجابة طلبهم لانه كان راغباً في اعطائه هذا المنصب اكثر من رضى سينيثوس به . وفي هذا الحين كتب سينيثوس كتاباً مطولاً ارسله الى اخيه الذي كان مقيما حينئذ في الاسكندرية واوصاه باطلاع البطريرك على فحواه وهو يتضمن الشكر الكثير والثناء الوافر على مواطنيه الذين زادوه شرفاً باختيارهم اياه لهذا المنصب الخطير الذي شعر بعدم كفاءته له وعدم رغبته في هذه الوظيفة لاسباب ذكرها في الخطاب المذكور آتي على مغزاها حيث قال : —

(اني اقسم اوقاتي الى قسمين للرياضة والنزهة وللدرس والمطالعة ففي الوقت الذي اشتغل فيه بالدرس خصوصاً في الكتب الدينية انقطع عن أي عمل آخر وامنع نفسي عن ممارسة أي شغل ولما اذهب الرياضة وتسلية الخاطر اكون رجلا ورعاً تقياً والورع لا يهتم بالرياضة الجسدية ولا بما ينزه النفس ويسر الفؤاد كما ان العيون كلها تتطلع نحوي لترى ما اذا كنت متمما لواجباتي قائماً باعباء وظيفتي . وويل لي اذا قصرت في امر . كذا تجبرني وظيفتي الدينية الى الابتعاد عن العزلة أو الانقطاع للدرس والمطالعة بل التزم بمخالطة الناس وصرف كل اوقاتي معهم في التعليم والارشاد

ولا انسى انني ساكون بمفردي مسؤولا عن كل شخص حاملا اثقال جميع الناس وهذا عمل يحتاج رجلا نادر الصفات ثابت الجنان قوي العقل والجسم ليقوم بشعائر هذه الامور الروحية بدون كلل أو ملل)

وفضلا عن هذه الاسباب السالف ذكرها كان يوجد سببان قويان جداً يحملان سينيثوس على الابتعاد عن هذه الوظيفة ورفضها بتاتاً . ذلك انك عرفت في الذي مر انه في مدة الاربعين سنة الاخيرة جرت العادة بانتخاب الاساقفة من طغمة الرهبان وصار القس المتزوج محروماً من الترقية لمثل هذه الوظائف . ولقد اعترض سينيثوس على هذه القاعدة اعتراضاً ملؤه الحجة القوية والبرهان الصحيح حيث قال .

(ان الله والناموس ويد البطريرك ثوفيلس سلمتني امرأتي التي اصرح جهارا انه لا توجد قوة في الكون غير الموت تقدر تفصلني عنها كما انني لا اسير على مذهب ضعاف العقول الذين يقولون ان ابتعد عنها وازورها سرياً كما يفعل الزناة الخاطئون فهذا العمل يخالف الانسانية والشرائع الالهية وعليه فسأظل ملتصقا بقرينتي الى النهاية واطلب الى الله ان يرزقني منها اولادا اتقياء يعبدونه ويخدمونه)

هذا سبب من السببين اللذين بغضا سينيثوس في وظيفته الاسقفية أما السبب الثاني فيختص بآرائه الدينية ومذهبه واعتقاده . فمعلوم انه لم يمض زمن طويل على صيرورة سينيثوس مسيحيا كما انه تربى تربية وثنية ورضع البان فلسفة هذه الديانة وعلومها ولذلك كانت افكاره في بعض

النقط الدينية لا تزال مرتبكة مضطربة مع انه عاهد نفسه عهدا متينا بعدم الخوض مع شعبه في المسائل اللاهوتية الغامضة قائلا في نفسه ان ما فائدة العامة من البحث في الامور الفلسفية العويصة ما دام ان الله سهل المأخذ قريب الايمان به ومعرفته بامور بسيطة لا تحتاج للتنقيب عن اسرار والغاز تدهش العقل واللب ولذلك رغب في عدم ايجاد امر ينشأ منه سوء الفهم بينه وبين البطريرك وكتب يقول:

(انني اذا دعيت لمنصب الاسقفية فلي كلمة اقولها لا استطيع كتمانها وهي حقيقة يشهد على صحتها الله والناس ولا اخشى في قولها لومة لائم لان الحق من عند الله الذي احب ان اكون امامه بلا لوم. ذلك انني متغرم من نعومة اظفاري بمواد الرياضة والتسلية ولي ميل شديد لاقتناء الاسلحة الفاخرة واحراز الخيول الاصايل ومع ذلك فانني راض ان اترك كل هذه الاشياء واتخلى عنها ولو انه يسوؤني ان أرى كلاب الصيد التي لي محجورة لا تصطاد ولا تطارد فريستها وان اترك سهامي واقواسي عرضة للعث والسوس ينخرها ويأكلها ولكن هذه جميعها شيء تافه زائل لا يهمني اذا اراد الله أن يستعملني آلة لمجد اسمه واصطياد الناس.

وكما انني ابغض كل ما يشغل بالي ويتعب عقلي ولكنني مستعد لتكريس نفسي لخدمة المسيح خدمة احتمل في سبيلها كل عناء وتعب الا انني لا استطيع ان اغش نفسي من جهة العقائد ولا ان اقول ضد ما اضمر ولا اصرح للسائل ان ينطق ضد الذي في جناني. وعليه فانني ارجو ان الاب ثوفيلس المحترم يخبرني برأيه جهاراً امن نحوي وان يقول عني ما يعرفه في دون كتمان فاما ان يتركني وشأني اعيش لنفسي باخذ في

الفلسفة واصولها أو يعطى ضماناً كافياً حتى لا يحاكمني احد فيما بعد لاجل افكاري ويحكم عليّ بالطرد من وظيفة الاسقف التي يختارني الشعب لها).

ويظهر ان البطريرك ثوفيلس سلك في هذا الامر مسلك الحكمة والتعقل خلاف ما كان ينتظر منه قياساً على تهوره واندفاعه في مسألة الرهبان ويوحنا كريستم. فان هذا البطريرك مع ما عرف عنه من الغلطات الكثيرة كان عاقلا خبيراً رأى الفائدة العظمى التي تنجم من ادخال سينيثوس ضمن الرعاة وليمنع الشبهة الموجهة ضده من انه شاع في ذلك الوقت ان له افكاراً تخالف نصوص الكتاب المقدس. اما فيما يختص بامرأة سينيثوس فان ثوفيلس لم يبد ادنى اعتراض على زواجه هذا لانه راى في مدى العشر سنوات الاخيرة الخطر الهائل الذي انتج من الرهبنة ومصائبها. وقبل ان يقر الرأي على امر ذهب سينيثوس الى الاسكندرية ليستشير ثوفيلس شخصياً في هذا الشان وحينئذ شاع بين اهالي بنتابوليس الشاعة انه اذا رفض سينيثوس اجابة طلبهم ولم يقبل وظيفة الاسقفية فلا يمكنه الرجوع الى وطنه والسكنى بين مواطنيه

وتم الامر اخيراً واختير سينيثوس اسقفاً لبنتابوليس سنة ٤١٠ وعند تعيينه ارسل جواباً في هذا المعنى الى اساقفة بطلومايس ناتي لك على معناه وهو.

(حيث ان الله جل وعلا اختارني لهذه الوظيفة طبقاً لارادته لا لارادتي فانني اطلب منه بالحاح ان يهبني الصفات العالية حتى اسلك في هذه الوظيفة مسلكا يرضيه وان اعمل ما يطلبه مني. فانه لا يمكن القيام باعباء هذه المرتبة الخطيرة لانني رجل ضعيف لا المام لي الا بالفلسفة العالية ولا معرفة عندي سوى ما تلقنته في حداثتي من العلوم الوثنية ولكن اذا ساعدني الله واخذ بيدي واعدني لهذا العمل العظيم عشت عيشة اخدمه فيها واخدم كنيسته خدمة يطلبها من كل شخص وضع يده على الحرات نظيري. وعليه فانني ارجوكم ايها القسوس ان ترفعوا ايديكم نحو العزة الالهية وتبتهلوا الى الله العظيم وان تطلبوا من شعبكم ان يصلوا معكم من اجلي الى الله لكي يساعدني ويأخذ بيدي وينجح عملي. فاذا عضدني الله فانني اضع مركز الاسقفية هذا فوق كل مركز آخر من نوعها وارفعها بمعونة القدير الى اعلى عليين.)

وقد قضى سينيثوس ثلاث سنوات في وظيفة الاسقفية ذاق فيها كل انواع العناء والتعب . فانه بعد عودته من الاسكندرية عند اتمام رسامته وجد مقاطعة بطلومايس في هياج واضطراب ذلك لان الوالي اندرونيكس ارتكب فيها من الفظائع ما لا يحصره القلم فانه اضطهد شعب هذه المقاطعة الواقعة على حدود مصر بعيد عن سلطة الولاة العظام دون ان يقترف هذا الشعب جرماً يوجب اضطهاده وعذابه سوى ان هذا الوالي الظالم كان يسعى في ابتزاز اموالهم واخذ مقتنياتهم لنفسه وهذا هو سبب ما ارتكبه من القبائح والمظالم . وقد تفاقم الخطب جداً وذاق الناس مرارة العذاب المريع الذي سكبه عليهم اندرونيكس فهرعوا الى دار الاسقفية يطلبون لانفسهم ملجأ ومدافعاً يدرأ عنهم هذا الشر المريع فقام سينيثوس وعنف الوالي على عدوانه وشره وسعى جهده في حمله على الكف عن هذه الفظائع ولكن الشعب تذمر وتضجر وظنوا ان سينيثوس زعيمهم ومقدامهم لم يعبأ بهم ولم يلتفت لامورهم وكأن المصائب توالت تباعاً على رأس هذا الاسقف الحليم فمات ابنه الوحيد ولم يسمع الله لصلواته الحارة التي قدمها طالباً شفاؤه فقنط سينيثوس واستولى عليه اليأس حتى انه عمد الى الانتحار ليتخلص من حياة ملؤها الهم والكدر .. وكان قبل هذا الوقت ارسل مكتوباً شديد اللهجة الى القسطنطينية يحتج فيه على سلوك الوالي المذكور ولكن الشعب لم يمهله حتى يصل رد مكتوبه فشكل سينيثوس مجمعاً حافلاً في الكنيسة الكبرى واصدر فيه حكماً بحرمان اندرونيكس والقى موعظة مؤثرة شرح فيها الذنوب والآثام التي ارتكبها هذا الوالي حتى اضطر ان يتخذ ضده ما اتخذه وختمها بقوله

(بناء على ما اتاه اندرونيكس من الفظائع اصدرت كنيسة بطلومايس الامر الآتي الى جميع الكنائس في المسكونة وهو : لا يجب ان تفتح كنيسة او هيكل في وجه اندرونيكس وعائلته وثواس وعائلته وهو الذي كان آلة شر هذا الوالي الظالم وساعده في مظالمه ولتقفل جميع الابنية المقدسة في وجه هذين الشريرين فلا يدخلانها ولا يقبلان في عضوية كنيسة ابن الله . وكما ان الشيطان لا نصيب له في ملكوت السموات فهكذا هذان الظالمان لا ينجانها بل يطردان خارجاً حيث يكون البكاء وصرير الاسنان . وعليه فانني احذر جميع الناس من اي طبقة كانوا ان لا يساكنون هذين

الشريرين ولا يخالطونهما ولا يؤاكلونهما كما انني انبه على الاساقفة ان لا يتكلمون معهما وهم احياء ولا يدفنونهما بعد موتهما . واذا ارتأى شخص ان يحتقر هذا الامر لانه صادر من كنيسة صغيرة حقيرة ككنيستنا فيختلط بهذين الشقيين فليعلم انه خالف ارادة الله الذي ارسل ابنه المسيح ليفتدي هذه الكنيسة ونظيراتها بدمه ويجعلها كنيسة واحدة في اتحاده ولذلك نضطر ان نعامل هذا الشخص سواء كان اسقفاً او شماساً او علمانياً معاملة اندرونيكس نفسه فلا نجالس معه ولا نأكل من اكله لانه يكون قد فضل اندرونيكس وثواس الشريرين علينا ولم يقبل حكمنا)

فلما بلغ اندرونيكس خبر هذا الحكم وعرف انه على وشك النشر بين اساقفة بنتابوليس جاء الى سينيثوس مقراً بذنبه تائباً عما اقترفه من الذنوب والآثام طالباً فسخ هذا الحكم وابطاله . فلم يعتمد سينيثوس على قول اندرونيكس ولم يثق بكلامه انما اوقف نشر الحكم الى حين لئلا اذا عرف هذا الوالي ان الحكم الذي صدر ضده اصبح لغواً قد يعود الى ارتكاب الشرور التي نشأ عليها

واذ عرف سينيثوس ان الطبع غلاب وان هذا الوالي الغاشم لا يمكنه التنازل عن غيه انفذ عليه حكم الحرمان وكتب الى البطريرك ثوفيلس يعلمه بذلك ويطلب منه معاملة هذا الرجل بما يستحقه من الاغضاء والاحتقار

ولما اراح سينيثوس رعيته من ظلم هذا الظالم جال في هذا الاقليم يتفقد شعبه ويؤاسيهم ووصل في سياحته الى قريتين واقعتين على حدود صحراء ليبيا وكانت هاتان القريتان قد انتخبتا اسقفاً نشيطاً عاملاً في مدة حكم فالدس ليرد عنهما هجماته ويدفع عنهما غوائله وكانتا قد طلبتا من البطريرك اثناسيوس ان يكرسه لهما ففعل واختص هذا الاسقف النشيط بابروشية صغيرة تابعة في اعمالها لابروشية بنتابوليس وعند زيارة سينيثوس لهاتين القريتين كان الاسقف المذكور قد انتقل الى رحمة مولاه فطلب من ثوفيلس ان ينتخب خلفاً له . وحدث ان بولس اسقف ابروشية صغيرة اخرى اسمها اريثون كان محبوباً من الجميع فطلب اهالي القريتين المذكورتين ان ينضموا الى ابروشيته دون ان ينتخبوا اسقفاً جديداً لهم . وكان لما جمعهم سينيثوس وطلب منهم اختيار خلف لاسقفهم المتوفي بدت منهم الامور التالية التي نشرحها لك في السطور الآتية :

(عندما تكامل عدد الشعب الذي جمعه سينيثوس وطلب منه انتخاب اسقف

طرح الشعب كله انفسهم الى الارض واخذوا يتوسلون الى البطريرك ثوفيلس كما لو كان حاضراً ويلتمسون منه بدموع ان يجيب طلبهم ويضيفهم الى هذا الاسقف الذي قالوا عنه وكانوا يفعلون ذلك بدون ترتيب او نظام بل ما كنت تسمع الا زفرات تتصاعد من افواه الرجال وشهيق يردده النساء وبكاء من الاطفال يملأ الفضاء حزناً وكمداً على كرسي اسقفهم المحبوب الذي اصبح خالياً منه بعد موته . فلم يستطع سينيثوس ترتيب هذا الجمع المختبط وحينئذ صرف الشعب بعد ان اخبرهم بالعودة الى هذا المكان بعد اربعة ايام . فلما اجتمعوا في الاجل المضروب حدث ما حدث اولا من الاختباط فاضطر سينيثوس ان يكتب بالتفصيل الى البطريرك ثوفيلس ويحيطه علماً بما حدث ويطلب منه القول الفصل في هذا الامر)

ولنا في القصة التالية اعظم دليل على صفات الاسقف بولس المتازة التي جذبت اليه قلوب الشعب في انه كان رجلا تقياً نشيطاً يقدر يفيد اصدقاءه ويضر مبغضيه اما هذه القصة فهي انه كان يوجد بقرب احدى القريتين المذكورتين قبلا اطلال قصر قديم قائمة على قمة كثيب كثير الحزون والوهاد . وكان هذا القصر قد ابادت به ايدي الزلازل فقوضت بعض جدرانه وكان بعضها يصلح لان يكون حصناً منيعاً للقرى المجاورة له تدرأ به هجمات الاعداء في هاتيك الايام التي كثرت قلاقلها وعظمت اضطراباتها حتى ان الشعب اضطر حينئذ ان يبحث عن حصن يكمن فيه عند تفاقم الخطوب حيث يكون في مأمن على المواشي والارزاق من غارات المتوحشين الذين كانوا لا يفتأون يغيرون ويحاربون . وكان هذا الكثيب والصرح ملكا لديسفورس اسقف قرية اسمها دردانوس مجاورة لاحدى القريتين المذكورتين ولذا عجز بولس عن الحصول على هذا الحصن المنيع وعليه سار اليه بالقوة الجبرية ونصب في وسطه منضدة اتخذها كمذبح وشرع في تكريس المكان ليكون ككنيسة وحينئذ صار هذا الحصن بمقتضى تكريسه ملكا لبولس تابعاً لابروشيته ولم يعد لاحد حقاً ليتصرف فيه . ولما وقع الخلاف بين الفريقين بسبب هذه القلعة رفعوا الامر الى الاسقف الكبير اعني به سينيوس الذي لم يستحسن ما عمل ولكنه لم يعلن بطلان التكريس ولم يقل انه غير نافذ المفعول مع انه لم يشك في ذلك لانه قال ان ممارسة الفرائض الالهية وتكريس احد الاماكن لا يؤخذ منه ان هذا المكان المكرس يظل مقدساً الى الابد

والا كان جميع القصور التي تقام فيها الصلوات والخدامات الدينية في ايام الحروب تبقى كنائس بناء على هذا الرأي . ثم كتب فقرة في هذا المعنى يقول فيها : —

« انني من الناس الذين يفرقون بين الامور الدينية الصحيحة وبين الخرافات التي اعدها نوعاً من الرذيلة لها مسحة الفضيلة ويعدها العلم شكلا ثالثاً من اشكال الزندقة والكفر كما انني لا اعتقد بقداسة مكان وطهارته الا اذا اجريت فيه اعمال القداسة والطهارة . فان الايمان المسيحي المتين لا يقول بحلول الروح القدس في مكان بناء على تكريسه أو تتمة بعض كلمات فيه ولكن الروح القدس يحل في الانفس الطاهرة والاجسام التي صارت هياكل لله ولا يسكن المسيح وسط بناء عملت له هاتيك الطقوس والرسوم لتكريسه ولكنه يسكن بين اثنين أو ثلاثة اجتمعوا باسمه . ومعلوم ان الروح الاقدس لا يحل وسط جماعة استولى عليهم الشنآن والحنق واستفحل بينهم روح النفار والنقار حتى اذا كان موجوداً في مكان دخلت فيه هذه الرذائل فلا شك ان روح الله يهرب منه ويفارقه . اذاً فتكريس الابنية لا توجب طهارتها وقداستها بل تشير فقط على تخصيصها للعبادة »

وعلى هذا المبدإ القوي لم يسع الاسقف بولس الا التسليم لحكم سينيثوس وقلبه مملوء من الهم والكدر . اما ديسفورس فاظهر كرماً ومروءة يحمدان ويعدان في انه قابل باستعداده لمهمة كما يزيل الخصام ويوجد السلام وعليه اشترى منه بولس الكثيب والقصر الذي فوقه وزال الشقاق من بين الجماعات وصاروا جميعهم مسرورين فرحين

ولم يمض وقت طويل على هذا الحال حتى استدعت الحكومة القائد المالهر الذي كانت قبائل المتوحشين تخشى بأسه وحل محله قائد ضعيف جبان مهد الطرق لجماعة الغزاة بالهجوم على مقاطعة بنتابوليس كما كان الحال سابقاً . وقد كتب سينيثوس في هذا المعنى يقول : —

« قرأت في التواريخ ان مدناً وقرى لم يبق فيها سوى النساء والاطفال لسبب الخراب والدمار اللذين استوليا عليها وقد شاهدت هذه الحالة في بلادنا بل اكثر منها شراً لان الاعداء لم يتركوا النساء والاولاد بل اتخذوهم غنيمة لهم وكانوا يبقونهم عندهم الى ان يكبروا فيرجعونهم لوطنهم ولكنهم كانوا يأتونه كاعداء بعد ان تشربت قلوبهم عداوته وبغضه حتى ان الشاب منهم كان يتلف الحقل الذي لابيه وهو لا يعلم انه له

فلو كان عندنا قائد ماهر لامكننا ان ننتقم لانفسنا من عدو دلي . مهان انتهك حرمة الاشياء المقدسة عندنا ولم يترك مكاناً مقدساً الا وداسه برجليه الدنستين ولم يدع قبراً اوحداً الا ونبشه نبشاً ولم يترك كنيسة الا واحرقها ودنس المذابح المقدسة واستعملها لاعيادهم وولائمهم واخذ الاواني المقدسة ووضعها في هياكل الاصنام والشياطين فضلاً عن القلاع التي هدمها والمواشي التي استاقها والعقارات التي سلبها حتى اصبحت مقاطعة بنتابوليس خراباً لا يأوى اليها احد ولم يبق لي بلد اين اهرب اليه الا فوربنة مسقط رأسي حيث ان نسبي يتصل بهرقل بطل الابطال . ولكن لا اهرب ولا اترك بنتابوليس التي انا اسقف لها ولا افر من القبر الذي اقبر فيه هنا . انني اشعر ان المصيبة قريبة مني حتى ان دموعي فاضت وخنقتني الزفرات فالتصق لساني بحنكي ولم اعد استطيع النطق حين افتكر بما حل ببيت الله وكنيسته وصرت في درجة الحيرة الشديدة حتى اذا ارتأيت ان انجو بنفسي الى جزيرة قريبة مني اعود فاغير فكري وامكث هنا ولم يبق عليَّ الآن الا الالتجاء لهيكل الله والتمسك بقرني مذبحه حيث اسكب دموعي على ارضه واظل اقبل بابه ومحرابه واطلب من الله النجدة والمعونة . ان عينيَّ جفاها النوم من كثرة القلق والاضطراب ولم تعد لي فرصة للوسن فيها يطبق اجفاني لكثرة اهتمامي بترتيب الحرس بالمناوبة و بعد ان كنت اصرف ليلي في مراقبة النجوم والسيارات وعمل الارصاد الجوية اصبحت الآن اقضي ليلة بعد الاخرى في مراقبة العدو حتى اذا هجعت قليلا ايقظتني الاحلام المريعة والمناظر المخيفة ويخال لي في المنام انني هارب او مسجون او مجروح او مكبل بالقيود والاصفاد او باعوني عبداً رقيقاً وكثير ما كنت اقوم من نومي مذعوراً لانني احلم بعد هذا كله انني هربت من عدوي الظالم بعد ان استغفلت العسكري الذي كان يتولى حراستي . فلو ثبت لي ان الجزر المجاورة لنا خالية من مثل هذه المصائب لكنت ذهبت اليها وارحت نفسي قليلاً من هذه المخاوف ولكنني اخشى ان ينزل بي القدر المحتوم قبل ان استطيع الهروب اذ ان يوم الهلاك اصبح قريباً ولم يبقَ عليَّ سوى الذهاب لهيكل الله والسجود لاسمه تعالى ليرسل لنا المعونة والنجاة وقد عولت على البقاء في هذه البلاد وعدم ترك الكنيسة وساضع امامي الاواني المقدسة واتسلق بها على اعمدة الكنيسة وسابقى فيهما بقيَ فيَّ رمق ثم اموت مدافعاً عن بيت الله مقيما واجباتي لانني معين من قبل الله لتقديم القربان على مذبحه

فلا غرو اذا جاء الوقت الذي فيه اقدم نفسي قرباناً على هيكله ولاشك في ان الله يرحم شعبه اذا رأى ان مذبحه تخضب بدماء اسقفه الذي يظل اميناً له الى النفس الاخير

وبعد ان انتهت هذه المخاوف مات ابن سينيثوس الصغير وكانت امرأته وولدان آخران قد ماتوا قبله في ظرف سنة واحدة فتراكمت الاحزان على هذا الاسقف المفضال وقصمت المصائب ظهره فكتب جواباً لهيباشا الشهيرة يقول فيه . — اما انا فقد اصبت بمرض في الجسم نشأ عنه مرض في العقل والفكر لان موت ابنائي وامرأتي اخنى عليَّ واسقمني فاصبحت واضرحة اولادي مرسومة امام عيني اللتان ابيضتا من الحزن ولست انسام حتى اسكن التراب نظيرهم اما امرأتي العزيزة فانني اقول لها :

ابكيك ما بقيت حياتي بعدكِ   حتى اراكِ ودمع عيني احمرا

وقد قال بعضهم ان سينيثوس اشتهر بمزايا لم تعرف عن غيره في انه كان جندياً شجاعاً وسياسياً متضلعاً وخطيباً مفوهاً وشاعراً مفلقاً وفيلسوفاً عالماً ومنطقياً بليغاً واسقفاً ورعاً كما انه كان محبوباً مكرماً من الجميع . وفي نحو هذا الوقت تنيح البطريرك توفيلس وهو من اقوى واشهر البطاركة الذين جلسوا على السدة البطريركية وهو اول من اطلق على الامة المصرية اسم « الكنيسة القبطية » ثم خلفه بطريرك كان سائرا على ذات الخطة التي سار هو عليها حتى اوصلا بلادهما الى درجة الاستقلال العقلي ولو انها لم تستقل اسمياً وظلت في مصر مدة تحكم نفسها بواسطة اساقفتها وبطاركتها ولم تتداخل الحكومة الامبراطورية في شؤونها مدة طويلة الا عند ظهور تهمة الهرطقة التي صرفها الامبراطور لطف خوفاً من نتائجها

وقد اضاف توفيلس بعض القوانين الى الكنيسة يحتوي احدها على ان الاكليروس يجب ان يختارهم الاكليروس عند تعيينهم ويختبرهم الاسقف وينتخبهم الشعب بعد تمام رضائه ورغبته . ومن غريب ما يحكى عن البطريرك ثوفيلس انه قضى ايامه الاخيرة في شغل منهك مضعف حتى اصبح هزيلا ضئيلا لدرجة اوجبت له الذهول والسبات الى ان انتقل لرحمة مولاه في ١٥ اكتوبر سنة ٤١٢

تم المجلد الاول ويليه المجلد الثاني